تسنيم التلاوي

رواية

بيسان

ما بين الحب والحرب

فريق متميزون
E-BOOK

دارك

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

بيسان ما بين الحب والحرب

تسنيم التلاوي

عن الرواية..

أن تعيش حياتك في محاولة لإصلاح ماضيك ليس كافيًا لتنسى أنك مَن قمت بإفساده، قد تمنحك المحاولة بصيص أمل وقد تخفف من شعورك بالذنب لكنها لن تمحو إثم خطيئتك...

ما بين الحب والحرب سطرت أحرف الرواية..

أحداثٌ مؤلمة وقلبٌ ممزق وبحثٌ عن الحقيقة..

أن تفترق عن أسرتك بعد أن ترى نهاية والدتك بعمرٍ صغير وتترك آخر فردٍ بها ولا تعرف إن كان سيبقى على قيد الحياة، وتكملَ حياتك وحدك على أمل اللقاء..

وهل سيكتب اللقاء؟

تنتقل من ضفة إلى أخرى وتعود لها بحثًا عن الجواب، وهذا وإن وجد من الأساس..

ليست رواية مبتذلة بنهايتها يتزوج الأبطال، ويكملوا حياتهم بسعادةٍ إلى الأبد..

وإنما هي آلام ومشاق بنهايتها نعرف قسوة الحياة ومدى واقعيتها، فالسعادة ليست هنا، خصوصًا إن كانت بين ضفتين، حيث الظالم يظلم ولا يحكم عليه، ولا يأخذ جزاءه!!

هذا هو الوقع بين الضفتين..

وواقعٌ مؤلمٌ بحق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداء..

إلى الحروفِ المُبعثَرة بين صفحاتِ الكتب، إلى الكلماتِ المكبوتة في صدورنا والتي لم تخرج إلا بَوحًا للسطور، إلى الدموعِ المُتساقِطة على هيئةِ حروف، وإلى الأسرارِ المُخَبَئة في بواطنِ الحكايات، إلى الاعترافاتِ والخطايا والهزائمِ والانتصارات، وإلى قصتنا والمرات الأولى من كلِّ شيء، إليكَ، وأخيرًا إلى الكتابة؛ ستبقين على الدوام طوق النجاة لكلِّ الحالمين والغارقين، والشاهد الوحيد على خلجاتِ القلب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تنويه قبل البدء في القراءة):

لن أتحدث هنا عن أرضٍ بعينها أو شعبٍ بعينه؛ فأنا أُخاطِب بهذه الرواية الإنسانية، أتحدثُ بقلوبٍ المُستضعفين وأدافعُ عنهم بما ملكت يميني؛ ولا أملكُ سوى الكتابة عنهم ولهم، هذه الرواية صوتي وصوتكم وأصداء أرواحكم، أشعرُ بكم وأتمنى أن يصل أنين قلوبنا ذات يومٍ للعالم، كُلّ العالم!

إذًا لن أُسمي أماكِن أو دُول وسأُقسِّم العالم أجمع إلى ضفتين؛ شرقية، وغربية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(الفصل الأول)

(1)

الأمر أشبهُ بالأحلام؛ الفساتين الوردية لأميراتِ ديزني، قوس قُزح بعد أول إمطارٍ في فصلِ الشتاء، غزل البنات الشبيه بالغيماتِ المُنتَفِخة الخَجِلة قُرمُزِية الخَدّين، الأُرجُوحة المُتَدلية من السحابِ المُقفَاة بوردِ البنفسج، صناديق الموسيقى الكلاسيكيةِ المُحلاة، الألوان الخزفية ذات الانعكاسات، كل ما هو خُرافيّ ومُفرِط في الجمال، من فرط جماله لا نصدِّق أنه حقًّا حقيقي، نمضي ونحن خائفين من حلولِ تلك النقطة المُحتَمة التي يتلاشى من بعدها، الأمر أشبه بأحلام الفردوس؛ لا وجود لها في الواقع!

**

«نحنُ هنا إذا وقعنا في الحبِّ لا نمتلك توقُّعات عظيمة تتجاوز الموت؛ فهو النهاية المُحتَّمة لكل قصة حب شهدتها أرضنا، يزداد يقيني بهذا يومًا بعدَ يوم كلما تطلَّعتُ إلى أمي؛ لمسة من الحزن والفزع يكتنفان وجهها في آنٍ، أحيانًا لا أجرؤ على ملامسة وجهها حتى لا أقع بأناملي على تجاعيد حفرها العمر بعنف، أخاف أن أسأل نفسي عمّا شِهدته حتى تعلو وجنتيها أولى خطواتِ الشيب وهي لا زالت في مُقتَبلِ العُمر؟! كلما أمعنت النظر لعينيها هالني اتساع سوادهما والذي يكاد من شدة سطوته يخفي لونهما الرمادي الأصلي، وكأن هذا الأخير وجد فقط كخطٍ كاسرٍ لرتابة الأبيض وكآبة الأسود، وكأنه لون لا ولن ينبئ عن شيء سوى الانطفاء ومزيدٍ من سنوات القهر، أظنُّ أن عينيها أعلنتا الحِداد على كلِّ شيء بما في ذلك أنا وأخي الصغير (جواد)؛ فمنذ أن جاءنا خبر استشهاد أبي تحت الأنقاض لم أرَ في عينيها بصيصًا وحيدًا للأمل، لم أرَ فيهما ولو طيفًا واهنًا لحلول الضوء، سُلِب منّا ما سُلِب ولم نعد نمتلك من الحياة سوى التشبث ببعضنا البعض لكننا رغمًا عن كل شيء نحاول، وكاتفاقٍ غير مُعلَن بيننا لا يفارق أحدُنا الآخر وكأننا نريدُ من داخلنا إذا حلَّ الموتُ ألا يأخذ منَّا ويُبقي ولو فردًا، لا نريد أن يعاني أحدُنا فزعًا جديدًا بمفرده أو حزنًا مميتًا دون كتفٍ يهوِّن عليه، نفكر ماذا إن خذلَنا الموت وتخيَّر منَّا ما اشتهتهُ نفسه وأبقى ما جزِع عنهُ لبعض الوقت؟! كيف لِمَنْ بقي أن يحيا هكذا بلا أيّ شيء؟!..

كنت أراقب أمي بعينين شاخصتين تعلو شفتي ابتسامةٌ واهنةٌ حتى لا يساورها القلق إذا ما لاحظت نظراتي المُتفحِصة تلك..

أغلقتْ للصغيرِ سُترته الصوفية ثم حملتْه وهي تبتسم لي قائلة:

- لنذهب.

بادلتُها نفس الابتسامة الراضية، ولكني شعرتُ حينها بغُصةٍ قسمت روحي حتى كدتُ أجتَذِبها من ذراعها وآخذها إلى صدري وأضمها وأنا أتوسل إليها ألا نبرح منزلنا اليوم، لكنها بدَّدَت ما اعتراني من خوفٍ لما عاودت جملتها مضيفة بنبرة متحمسة:

- أنا سعيدةٌ لأنّي أبذلُ ما بوسعي لأُنفِّذ وصية والِدكما -رحمه الله- لقد رآكما دومًا عظيمين، أراد أن تبلغا شيئًا لم نستطع أنا وهو بلوغه...

قطعتْ حديثها بثوانٍ من الشرود، ثم أكملت بنبرة خافتة وهي تقبض على معصمي لتحثني على النهوض متطلعة إليَّ:

- ربما لم أفهمهُ وقتها ولكنّي الآن أحاول، لذا يجب أن نكمل ما بدأه -رحمه الله- فأنتم أمانته لدي.

أنهتْ حديثها وخرجنا ثلاثتنا من البيت مُتَّجهين إلى منزل معلمنا الشيخ (مختار التميميّ) لطالما لمسَ الرجُل شيئًا عميقًا في قلوبنا أعمق من أن نتخطاهُ دون أن نحتذي به، وعلى الرّغم مما أخذته الحرب منه لم يبخل علينا أو يستسلم لعجزه إزاء ما خسره بسببها؛ فقد ودَّع شيخنا على مرأى من عينيه كل شيء بداية من ساقيه وانتهاءً بزوجته وولديه، لم يتبقَّ له سوى عِلمه والقرآن الذي حفظه فهو لهما ولأجلهما يحيا فنراه يحرص بكدٍ ودأبٍ على نشره فينا -صغيرنا وكبيرنا- ومن ثم الأخذ بيدنا للإيمان القلبي والعقلي.

تعطلت مدارسنا منذ فترة وبقي لنا أنقاضها، ورغم أنّها ليست بالفترة الطويلة إلا أنها تمر شديدة الثقل علينا، فقد كان التعليم أحد المسكنات الخفيفة لآلامنا فهو بمثابة الأملِ والحلم للخروج من هذه الأرض أو إنقاذها، وبهذا يُعدُّ الشيخ (مختار التميميّ) هو ملاذنا الوحيد لنفقه ولو الكفاف من علومِ الدنيا والدين.

وصلنا معًا إلى الساحة العامة حيث يتكدس أكثر اللاجئين؛ فهنا ترى الباعة الجائلين بسلعهم البالية التي لا ولن تجدينا بنفعٍ، وترى العجائز مُتَحلِّقين في دوائر يتبادلن فيما بينهن الحديث حول الهدنة والحرب وأشياء أخرى يطمحن لتغييرها وربما لنسيانها بحسب ما يقتضي الوضع، وأيضًا الأطفال في كل مكانٍ منهم الرائح والغادي، اللاعب واللاهي، الخائف والمشاغب، والحالم، كان هناك شيء وحيد يجمعهم وهو أنَّ كل واحدٍ منهم سُرِقت طفولته منه فإمّا أن نولدُ شيوخًا أو عجائز على هذه الأرض..

شيء آخر أضيفه بجانب ما قصصتُه عليك، نحنُ هنا قسمان، أوّلنا: ساخطٌ على كل ما يتّصل بالمحتل وإن كان سيفقد في المقابل قوتَ يومه؛ فالمهم والأهم أن ينقطع تمامًا عن التواصل مع الغزاة بأي شكل.

وثانينا: يعملُ في المؤسسات المَدَنية والتي تُديرُها حكومة الاحتلال تحت إشراف مراقبين مع قوانينٍ صارمة مفروضةٍ على الجميع كعدم السماحِ بالكلام أو تبادلِ السلام، فإن أردت أن تحيا شريفًا ميسورَ الحال تحظى ببعض النقود بين يديكَ لِتكفي أهلك وبيتك الحاجة والسؤال؛ عليكَ أن تعمل مثل الآلة بلا ذَرة شعور، بعد تتبُّع القوانين بحذافيرها في عملك وإلا سيقع العقاب دونما شك، لكن ليس عليك وحدك بل أنتَ وكل زملائك لأنهم سكتوا وتغاضوا عنك فيكونون بذلك منحوا أنفسهم دور المُحرِّض على التمرد ومخالفة الأمر، ربما يُقتَّلون جميعًا للحظتها وربما يعذبون شهورًا وأعوامًا دون أن يحظوا بفرصة الموت، على كلٍ جميعنا هنا مرضى نفسيون نعاني من الاكتئاب والقهر، ولن تجد بيننا معافى وحيدًا، لا تشفق علينا ما دمتَ لن تمُد لنا يد العون، فحينها لن تجدينا شفقتُكَ سوى مزيدٍ من الذُّل، إن كنت حقًّا ترغب في تقديم شيءٍ فيكفينا أن تبصرنا بقلبك، وتنصت بما منحك الله من حُبّ.

سرتُ بيدِ أمي أراقب (جواد) وهو يدير عينيه في كل مكان في الساحة فمنذ وقت طويل لم نغادر سكَننَا كانت عيناه تتسعان شيئًا فشيئًا يلتفت من حينٍ إلى حينٍ ثم يدفن وجهه في كتف أمي ربما خوفًا أو فزعًا رغبة في الاختباء أو الدفء وكأنَّ براءته قاصرة عن أن تعي لِمَ تحديدًا حلَّ ميلاده في هذا الوطن حيث تدمَّر كلُّ شيء، بدأ الأطفال يتتابعون في صفوف، تتفاوت أعمارهم بدءًا من السنتين إلى السادسة عشر، يلحق بهم بعض الآباء والأمهات وكلهم يلجون من الباب الرئيسي لمنزل الشيخ، أما نحن فكنا نتقدم في المشي نراقب من بعيدٍ ونمضي بخطواتنا إليه، وبينما نحن في أوجّ انشغالنا بحلمنا الوردي رأينا منزل الشيخ يستعر لهبًا وكأنه تحوّلَ من روضة لطلبة العلم إلى درك من دركاتِ جهنم، عَمَّت فوضى مُفزِعة في الساحة وبدأ الجميع يركضون في كلِّ اتجاه، كلٌّ يجري إلى أقرب مهرب ومفر، شاعت بين فينة وأخرى رائحة الموت وصار كل شيءٍ دامِيًا، كانت أمي تلقف أنفاسها سريعًا من شدة الخوف و(جواد) على يدها يصرخ وعيناه منهمرتان كالسيل وأنا أرمق كل شيء وأتذكر غصتي التي رغم وحشتها لم تدفعني لمنعهم من مواجهة الموت نِدًّا لِنِدٍّ. استجمعتُ ما بقيَ لي من قوة وصرخت وأنا أنتزع (جواد) من صدر أمي إلى صدري وألفّ ذراعِي اليمنى عليه ثم آخذ بيدي الأخرى كفَّ أمي وأتشبث به وأجري دونما وِجهةٍ أقصدها سوى الفرار من الطلقات النارية والقصف.

بدأت تحتل آذاننا أصواتُ المدرعات والدبابات التي يقودها المحتل مُختَلِطةً بعويلٍ وصراخٍ يُمزّق القلب، الكلُّ يسعى للهرب، حولنا طلقاتٌ ودَويّ، وأمي بالكادِ تلقف أنفاسها يتثاقلُ جسدها تدريجيًّا، أنظر إليها وأنا أخبرها بنبرة متوسلة لتصمد:

- هانت يا أمي، تحملي قليلًا، أعدك أن ننجو.

كانت تومئ إيجابًا لتطاوعني في الركض وأمارات الإعياء جلية على وجهها، أخاف عليها وأخاف أن يدركنا العَدُوّ. ابتعدنا مسافة كافية عن الخطر غير أنها لا تُؤهِّبنا لِنُوقِف العَدْو؛ فما زالت مدرعات الحرب تتقدم في طريقها إلينا ولن يسعنا الوقت.

وصلنا إلى طريق مهجور للسكك الحديدية، القضبان والحصى الفحمية السوداء في كل مكانٍ، احتفظنا بالمسار بيد أننا فقَدْنَا عربات القطار منذ زمانٍ قد مَرَّ، كان على جانبي السكة بعض الجرحى والقتلى وآثار ملطخة من الدماء، لم أعُد أرى الأعداء إذا ما التفتُ خلفي مما دفعني إلى المواصلة والمواصلة على أمل النجاة بعائلتي من الهلاك، إلا أن أمي توقفت ساحبةً يديها من يدي مستندة على ركبتيها لاهثة بصعوبة، وهي تقول بنبرة ضامرة:

- لا، أنا لا أستطيع، يجب أن تكملا من دوني.

تسمّرتُ مكاني وأنا أهز رأسي في علامة للرفض، نظرتْ إلى عيني الفزعتين ثم أمسكت يدي مترجية وتابعت محاولة دفعي للمواصلة:

- (جواد) بأمانتك، اهربا هيَّا، واصلا وعِدَاني ألا تلتفتا للخلف، لا تنظرا إليَّ، هيَّا فالوقت يمضي.

أجهشتُ بالبكاء وأنا أخبئ وجه (جواد) في صدري وأُملي عيني من ملامح أمي، كانت تنزف لا أدري متى أو كيف أصيبت، ولا كم تحملت من الوقت أملًا في إنقاذنا، ضمتنا بقوة إليها ما زلت أذكرُ صوت قلبها المرتجف، كيف وهي في خضم ألمها تطمئنني فتمسح على شعري برفق وتقبِّلني، كيف تغالب أمومتها وتعود من جديد محاولة دفعي لأواصل مع أخي دونها!

ولَّيتُ ظهري لها وصوت نشيجي يعلو كلما تقدمنا أكثر وابتعدنا عنها، حتى عاوَدَت أُذُنايّ من جديد أصوات الطلقات النارية والمركبات الحربية فأخذتُ ألتفتُ حولي بحثًا عن مخبأ أتوارى فيه مع أخي إلى حين انتهاء القصف، بدأت نبضات قلبي تتسارع بينما تتردد كلمات أمي الأخيرة على مسامعي: «جواد بأمانتك».

نظرتُ لأخي وأنا أَعِده أن أنقذه مهما كلَّفَني الثمن، وفي خضم حيرتي لمحتُ عن يميني مبنى ذا سياجٍ حديدية سميكة على مسافاتٍ مُتباعِدة يليها زجاج شفاف مغبَّر به بعض الكسور الصغيرة بالكاد تمكنك من مشاهدة جزء مما يدور في الخلف، لم أكن أعرف تحديدًا ماهية هذا المكان وما الذي يحدث فيه، ولكني رأيت أن من كانوا بداخله هم شعبنا من العمال والذين كُتبَت لهم النجاة لبعض الوقت؛ فقط لكونهم يعملون الآن تحت الرقابة وليسوا بالساحة

أو خارج بيوتهم، حَمَلتُ بيدي حصاة وقذفتُ بها في اللوح الزجاجي ليتهشم وأراهم يجفلون بالداخل دونما أن يجرؤوا على الالتفات إلى مصدر الصوت، كنت أنتظر ولو التفاتة تمكِّنني من معرفة إذا ما كان هناك مراقب قريب منهم أم أنه الآن يمر على غيرهم والوضعُ آمن بالنسبة إليَّ؟!

اقتربتُ أكثر لأتفحص المكان من الداخل وأحظى بنفسي على جوابٍ لأراهم كلهم يعملون يدوِّنون أشياء لا أعلمها على أوراق ويضعونها في عربة عليها صندوق ضخم، وكلما أودعوا بداخله رزمة أغلقوه حتى يضعوا التي تليها وهكذا، وجدت أنِّي لن أحصل على فرصة أفضل من هذه كي أُنقِذَ أخي ولأتدبر أنا شأني فيما بعد، أخذتُ أناديهم في الداخل أتوسل إليهم، أحاول استجذاب رحمتهم ليشفقوا عليَّ فيأخذوا (جوادًا) ويخبؤوه معهم لبعض الوقت، بقيتُ أتوسل وأبكي دون أن يلتفت أحدٌ منهم إليَّ، الجميع يخشى العقاب يخشى أن يُحمَل بسببه للكلّ، ولمّا حلّ بي اليأس ضَممتُ أخي أكثر إليَّ وأنا أُنكّس رأسي وهممتُ بالرحيل وليكتب الله لنا ما شاء إن قدر لنا النجاة فراضون وله الحمد، وإن كتبنا شهداءً فلتسامحني أمي لأني لم أُنفِّذ وصيتها وأنقذ أخي من الموت، وقبل أن أوليهم ظهري وأرحل سمعت همسًا فالتفتُّ لأجد فتاة شابة من الداخل تمد يدها لتأخذ الصغير مني بكيت وأنا أشكرها بينما تابع الباقون عملهم وكأنهم لم يروا أو يسمعوا شيئًا، رأيتها تحمل (جواد) إلى العربة وأزاحت غطاء الصندوق ووضعته بداخله وهي تشير إليه ليبقى ساكنًا دون أن يصدر صوتًا، ظللت أراقبهم حتى اطمأننت لكني فور التفاتي للجهة الأخرى التصق بعيني جنديٌّ من جنود الغزاة لمحت بعينيه نظرات الفضول ورأيته وهو يتطلع إلى الداخل بنظراتٍ يساورها الشك، لم أكن أعلم يقينًا أرأى كل ما حدث قبل لحظاتٍ أم أنه للتو حلَّ غير مُرحَّب به؟! تحسستُ بيدي لأقبض على قطعة من الزجاج المكسور لأصيبه في عنقه فيرفع يده سريعًا إلى موضع الجرح كاتمًا الدماء وهو يرمقني بغِلٍّ ويوجِّه سلاحه مصوبًا عليَّ، دفعته وأنا أركض ليلحق بي مُسدِّدًا طلقاته صوبي، من جهة يطاردني من الخلف ومن جهة أخرى أركض حيثُ تتقدمُ ناحيتي إحدى المدرعات المُحمَّلة بالجنود، سأموت حتمًا بلا شك ولكني أنقذتُ (جوادًا) أتمنى أن تكون أمي قد نجت لتعثر عليه، أتمنى أن...»

أوقف القراءة فجأة مُعقِّبًا بنبرة وقورة:

- هذه الأوراق كَتبتُ فيها الأحاديث التي دارت بيننا، ولم أكتبها بدافع الكتابة فقط وإنما أردتُ تدوين كل ما حدثَ تخليدًا للحكاية من بِدئها، قد أقرأ عليك بعضها وقد أترك البعض الآخر لما دار في ذلك الوقت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(2)

«دعني أوصله لك؛ الشيء من كثرة الكيِّ عليه يتحجر وهذا تمامًا ما فعلته بقلبي!»

**

الضفة الغربية / 2017م

قطعت (ريتا) غرفتها ذهابًا وإيابًا، تنم خطواتها العشوائية المضطربة عن غضب جامح يكاد يشبه العاصفة في عتوه وقسوته، هي ليست تلك السيدة القاسية ذات العينين الجامدتين والنظرات الحادة الثابتة ولكنه فعل بها هذا، لم تتخيل أن يكون هو هزيمتها الوحيدة في الحياة، أن يأتي عليها ذلك اليوم الذي تُحصي فيه خيباتها، وأن تنحصر كلها فيه؛ فهو لم يؤذِ قلبها فقط بل انتعله في قدميه وخطا عليها وعليه..

تذكُر أنها حين غادرت أرضها وفارقت أهلها لم يختلجها هذا الشعور العميق بالندم؛ لأنها وجدته، لجأت إليه، واكتفت به ثم اتخذت من صدره موطنًا ظنًا منها أن الأوطان لا تُضني أبناءها لمجرد عشقهم لها، على كلٍ لم يكن ما بينهما مجرد خلافٍ في الرأي حتى لا يُكدِّر صفو وِدّهُما بل كان اختلافًا في القضايا فقطع وصال الودِّ بينهما، فبعدَ كلِّ هذا العمر الذي قضته معه بقيَ عاجزًا عن تقبُّلها كما عرفها من الوهلة الأولى، أو بمعنى أدق لم يكن بالوعي الكافي الذي يُمَكِّنه من فهمها مثلما تعمقت هي في روحه حتى لامست قلبه واستحوذت عليه..

توقفت بعد أن عصفت بها أفكارها وهي تغمض عينيها آخذة نفسًا عميقًا، ثم فتحتهما لتقع أنظارها مباشرة على صورته المعلَّقة أمامها على الحائط، كان الإطار الذي يضُم صورته مائلًا جهة اليسار قليلًا فتقدمت بخطواتها إليه وهي تمد يديها معيدة له اتزانه الذي اختلَّ، وبينما تفعل ذلك سقطت من خلفه ورقة مطوية صغيرة حتى استقرت أرضًا، فانحنت كي تمسك بها ثم تفتحها فتجده ترك لها رسالة قبل خروجه، لم تندهش من فعلته وإنما ساورها الفضول حول فحواها؛ فقد اعتنقا منذ زواجها تبادل الرسائل فيما بينهما وكلما صادفهما حدث عظيم يستدعي الوقوف عليه أو الإشادة به كتب كلاهما للآخر مِرسالًا، واتخذا من هذا الإطار الذي يضُم صورته ساعٍ للبريد يوصل ما تركه كلاهما للآخر، وجدته كتب فيها:

«عزيزتي (ريتا):

صدقًا أغار أن تضُمّي إلى صدرك ابن رجل غيري وليس ابني الذي من صلبي ولحمي ودمي، لستُ أنانيًّا فقد أصبح صغيرك شابًا، بينما شاب قلبي وأنا أحاول طيلة أعوام تقبل وجوده بيننا؛ لذلك اعذري قلبي الذي يريدكِ وحدكِ دونه فقد حان الوقت لتختاري أحدنا إما أنا أو هو، سأتلقى منكِ ردًّا حينما أعود، وكيفما كان اختيارك فأنا راضٍ به حتى لو لم يكن أنا، أُحِبُّك كثيرًا، وأخيرًا أعتذر إن آلمتكِ صراحتي؛ فقط أردتُ أن أكون صادقًا معكِ ومع نفسي.

المُخلِص لكِ دائمًا: (عزيز)»

أغلقت الرسالة وهي تشعر بالأسى على ما وصلوا إليه، كيف لها أن تودِّع صغيرها الذي وإن صار شابًا فستبقى تنظرُ إليه بعين الأم التي لا يكبر أبناؤها مهما بلغوا مِن العُمر، لكَم تمنت من داخلها لو اختلف الواقع قليلًا كأن يُحِبّ عزيزها صغيرها، أو أن يرى نفسه أبًا له، تذكُر ذلك اليوم الذي جالستُ فيه ابنها ليحكي كل منهما أسراره للآخر، كان حينها في سنواته الأولى في المدرسة الابتدائية، أمسكَ بيدها وهو ينظر إلى عينيها مخبرًا إياها بنبرته الطفولية البريئة:

- أنا لا أعرف كيف يشعر الأولاد الذين يحظون بعناقٍ طويلٍ من أبيهم؟! ولكني أظنُّه شعورًا جيدًا، هذا ما أخبرني به صديقي حينما سألتُه كيف شعر عندما احتضنه والده بالأمس!

سكت قليلًا وهو يعبث بأناملها مطرقًا ببصره للأسفل ثم أخبرها وصوته مختنق بالبكاء:

- أتعلمين يا أمي، أتمنى أن يعانقني أبي مثله.

هي أيضًا تمنت ذلك حتى ولو لمرة واحدة، تمنت لو سمح لنفسه ولابنها بفرصة في قلبه عساها كانت تُغيِّر ولو قليلًا مما وصلوا إليه، على كلٍ ما الفائدة من حلول الذكريات الآن ومن ثم الندم عليها؟! فقد فات أوان كل شيء ويجب التعامل مع الواقع بمرارته دون مراوغة مع الوقت.

اتجهت إلى حقيبتها وفتحتها مخرجة منها دفترًا صغيرًا وقلم حبرٍ أسود اللون، لتكتب إلى (عزيز) رسالة ترد بها عليه، فتحت الدفتر وبقيت جالسة أمامه، لا تعرف ماذا تكتب تحديدًا، أعليها أن تشرح من جديد ما حاولت طيلة أعوام إيصاله له؟! لا تعرف ماذا تفعل؟! وكيف لقلبها أن يختار بينهما، هي الآن في المنتصف بين البقاء مع أحدهما أو الرحيل عنهما، لا تمتلك خيارًا ثالثًا أو حلًا متوسطًا يُعيدها إلى نقطة البدء أو يأخذ بيدها إلى آخر الطريق حيث نهاية كل شيء، أمسكت القلم وبدأت تكتب:

« إلى: (عزيز قلبي)

كان كافيًا للغاية أن تفهمني، أن تؤمن بقضيتي وأرضي مثلما عَنى لي الأمر، على كلٍّ لا أستطيع أن أتفاوض مع قلبي عليكما فكلاكما منه وإليه وكلاكما أنتمي بوُجودي له، لذا سأرحل ولا أعلم تحديدًا إلى أين، أو أي طريق أسلكه دونكما؟! ولكني أخبرك قبل أن تفكر في البحث عني أنك لن تجدني، لا تقتفي أثري لأنه سينقطع عند عتبة منزلك الذي كان قديمًا ملجئي، لطالما اتخذتُه وطنًا لي في بلد غريب كل أهلي فيه أنتَ، سأترككما لبعضكما عسى أن يكون الوقت كفيلًا لإذابةِ الجليد في قلبك، عسى أن ترى ابني يستحق كل هذا الحُبّ الذي منَحتُه له كأم، لا أعلم إذا ما كنتُ أعاقب نفسي ببعدي عنكما، أم أعاقبكما بهجري لكما، ولكني أعلم يقينًا أنك لا تُحِبُّ الوحدة، ولن يؤنسك في وحدتك سوى ابني، سامحني؛ فهذه هي المرة الأولى التي أتخذ قراراتي بمفردي دون أن أشاركك الرأي، أُحِبُّكَ وسأبقى حتى مماتي على عهدي وحُبّي الأزلي لكَ.

المخلصة لكَ دائمًا: (ريتا)»

ختمت الرسالة وهي تنظر لساعتها، أوشك (عزيز) على العودة، لذا يجب أن ترحل قبل مجيئه وإلا سيفشل كل ما خططت من أجله، سحبت الورقة من الدفتر وطوتها متجهة بها للإطار ثم أودعتها خلفه مثلما فعل حينما ترك رسالته لها، وقفت أمام صورته وهي تملي عينيها من ملامحه، لتلاحظ أن الزجاج الذي يغطي الصورة يعكس ملامحها عليه لتبدو وكأنها مقسمة بين وجهه ووجهها، عينيه السوداوين القاتمتين وعينيها الزرقاوين، شفتيه الغليظتين وشفتيها الرفيعتين، بشرته القمحية وبشرتها البيضاء، تنهدت وكأنها تعرف يقينًا أنها وإن رحلت لن تفارقه كما لم يفارق انعكاسها صورته، ربما ستهرب من منزله، لكنها لن تُجليه عن قلبها فهو دائمًا له.

أخذت معطفها الصوفي وارتدته تاركةً غرفتها متجهة إلى غرفة ابنها، جلست إلى جواره على السرير وهي تراقبه أثناء نومه تتأمل ملامحه الملائكية الهادئة، لم تشأ أن تنزع راحته وتوقظه لكنها أرادت أن تُودِّعه قبل ذهابها؛ لذا قررت أن تترك له هو الآخر رسالة تشرح له فيها أسبابها ودوافعها لما تقدم عليه، ثم طوتها وهي تضعها على الكومود المجاور لسريره وطبعَتْ قبلةً على رأسه وذهبت وتركته إلى (عزيز)، أو بمعنى أدق تركت عزيزها ليرى جانبًا لم يره قط من صغيرها!

«تساءلتُ كثيرًا كيف يقطعُ المرء طريقًا جديدًا وهو خائر القوى بعد أن خسر كلَّ شيءٍ، هل نستطيع حقًّا ردمَ كل ما حدثَ والمُضِي قدمًا وكأنّه لم يأخذ روحنا في المقابل؟! وكأنَّ الثمن كلّه وقع عبؤه علينا ودفعناه وحدنا فضلًا عن

جراحنا.» كانت (ريتا) تُسائلُ نفسها تديرُ حديثًا داخليًّا مع عقلها دون أن تعي إلى أين ستقودها أفكارها بعد؟! لكنها بددت حيرتها بسؤال جديد وهي تتمتم مردفة بصوتٍ مسموع يكسوه الرهبة والحيرة في آنٍ:

- أبإمكاننا حقًّا أن نصنع ميلادًا جديدًا من الصِّفر؟! ها، يا للسخرية، وهل يولد المرء مرتين؟! لا شيء يعوِّض انكسارنا، لا شيء!

سارت بين الزحام بعينين ساهمتين ضائعتين وحزنٍ زاد جمالها الأربعينيّ وقارًا، هذه هي المرة الأولى التي تسلك فيها هذا الطريق دون (عزيز) أو بمعنى أوفَى لحبها له، لم تسلك (ريتا) مسارًا واحدًا دون رفقته، لم تختر شيئًا دون أن يكون شريكها فيه؛ ولكنها الحياة تغيِّر كل شيء، تقدِّم وتؤخِّر الأشخاص في قلوبنا وربما تتقن زرعهم فينا أو تُحكِم نزعهم منَّا، فالأمرُ راجعٌ لأفعالهم...

رنّ هاتفها بشكل فجائي مما جعلها تجفل قبل أن تنظر إلى شاشته وتجد المتصل هو (عزيز)، ربما شعر أن شيئًا امتد بينهما حدَّ إقصائها عنه، ربما عاد حدسه وخوفه بأنه حتمًا سيفقدها ذات يوم، وربما هو قلبه المضطرب رغم سعادته أنبأه عن حدَثٍ مقيت على وشك الوقوع، أيًّا كان أراد أن يتدثر بصوتها لينجده مما هو فيه، نظرتْ مطولًا للهاتف لا تعرف أتسمح لنفسها بسماع صوته للمرة الأخيرة حتى تمتلِئ نفسها منه، أم تعفي قلبها من الانصهار أمامه بمجرد الإنصات إليه، تخاف أن تقبل الاتصال فتخونها عيناها وتبكي، تعلم أنها لن تصمد طويلًا، وأنه لن ينظر لضعفها أمامه على أنه أقوى ما أظهرته طوال حياتها له، على كلٍ انتهى الاتصال وهي لا زالت تأكلها الحيرة، تصارع بين رغبتين كلتيهما تستحوذ بداخلها على شيء؛ تنصهر نفسها بين حبها له، ونأيها عنه، ولما انتهى الاتصال لاح على وجهها طيفُ ابتسامةٍ واهنةٍ، ثم رفعت عينيها ناظرة للإشارة على الرصيف الآخر منتظرة أن تضيء باللون الأحمر حتى تقطع الشارع عبورًا إليه لكنها في أثناء ذلك وجدت عزيزها يعاود الاتصال من جديد، أخذ قلبها يخفق مضطربًا إلا أنها لم تستطع أن تفلت من يدها فرصتها الأخيرة لسماع صوته والاحتفاظ به، قبلت الاتصال وهي تضغط على زِر تسجيل المكالمات، مقرِّرة الاحتفاظ بهذه المكالمة والإنصات إليه دون أن تنبس بحرف، يكفيها صوته ويكفيه صمتها، لطالما عُدَّ الصمتُ عقابًا جيدًا تفوقت به وعدوًّا لدودًا له لم يستطع مغالبته أو الانتصار عليه، أتاها صوته على الطرف الآخر تكسوه سعادة جليَّة وفرحة صادقة وهو يخبرها:

- (ريتا) استعدي سنقيم احتفالًا كبيرًا اليوم.

- ...

- حصلت (بيسان) على الإجازة العليا أخيرًا، أصبحت بشكل رسمي طبيبة جديرة بالثقة.

سكتَ لهنيهة ثم عاود حديثه بنبرة أقل صخبًا لكنها مليئة بالدفء، مُردِفًا:

- أتعرفين، لم يرزقنا الله أولادًا لكني منذ اليوم الأول لتدريسي لهذه الفتاة وأنا أراها ابنتي، أرى فيها شيئًا من عنادك وتصميمي، كنت أؤمن أنها ستحقق حُلمَها، أنا فخورٌ للغاية بها يا (ريتا)!

لم تُجِب واحتفظت بالصمت، لكنَّ أوَّل ما جال بخاطرها عقب حديثه أنها منحته ابنًا كان من أبسط حقوقه أن يفتخر به لكنه قَطّ لم يَقبله ولدًا له، هي سعيدة لأجله ولأجل طالبته (بيسان) لكنها تحمل بقلبها عتبًا عظيمًا عليه، وها هي بالأخير آثرت كتمانه على التفوه به.

- (ريتا)!

نادها (عزيز) بعد أن طالَ صمتُها وكأنه فهمَ ما تفكر فيه، هو -فقط- تحدَّث بعفوية ناسيًا مشاداتهما العنيفة في الصباح لكنه على كلِّ حالٍ لم يعِ أنه قد يحزنها من جديد وهو يحكي لها، عاود مناداتها بنبرة ليّنة أكثر لطفًا لتنصت إليه بعينين مغمضتين وهو ينطق اسمها، حاولت ألا تفكر بأي شيء عدا صوته والسَّكِينة التي يشيعها سماعه في قلبها، لم تشعر بنفسها وهي تسير، تتقدم بخطواتها الهائمة قاطعة الطريق قبل أن تصبح الإشارة حمراء، لكنها وبشكل فجائي أُجفلت شاهقة راجعة بوعيها إلى أرض الواقع حيث تجاوزتها شاحنة ضخمة كادت أن تصدمها وتطيح بها فتقتلها. مرت بسرعة هائلة، تطايرت معها خصلات شعرها ومعطفها الرمادي الصوفي، امتقع وجهها وبدأت أنفاسها تتلاحق متلفتة حولها ناظرة إلى الطريق الذي أصبحتْ في منتصفه والسيارات التي تتابع من كل اتجاه إليها، ثم إلى الرصيف الذي تراه الآن بعيدًا للغاية، أبعد من أن تصل إليه، أو تدركه بخطواتها..

أتاها صوتُ (عزيز) الذي انتظرها طويلًا على الهاتف منصتًا لأنفاسها المضطربة متخوفًا، فيزيده خوفه اضطرابًا وقلقًا، حاول جمع كلماته كي يطمئن عليها، فسألها بقلق:

- (ريتا) عزيزتي أتسمعينني؟! اهدئي، أنا هنا، أخبريني ما الذي حدث، هل أنتِ بخير؟!

انتبهت مرة أخرى إلى هاتفها فأمسكته بكلتا يديها وكأنها تحتضنه، ثم ازدردت ريقها قبل أن ترد:

- (عزيز) أنا...

قبل أن تكمل صدمتها سيارة بشكل فجائي قطعت حديثهما قبل تمامه وطرحت الهاتف من يدها مسافة بعيدة حتى ارتطم بالأرض!

توقف الطريق واحتشد الناس مُلتَفين حولها لا أحد يعلم ما الذي حدث لها؟! أو كيف حالتها؟! منظر مهيب حيثُ لا يجرؤ أحدٌ على الاقتراب، بينما (عزيز) على الهاتف ينادي باسِمها، وقلبه مرتاع لا يعرف ما الذي أصابها ولا أين هي حتى يلتحم بها ويأخذها إليه؟! يشعر بالندم الشديد على كل كلمةٍ تفوَّه بها وأحزنتها، يشعر بالضياع لأنهما تشاجرا ولأن شجارهما هذه المرة آذاها وهذا ما تيقن منه، هل رحلت وتركته حقًا؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(3)

«أن تعيش حياتك في محاولة لإصلاح ماضيك ليس كافيًا لتنسى أنك مَن قمت بإفساده، قد تمنحك المحاولة بصيصَ أملٍ وقد تخفِّف من شعورك بالذنب لكنها لن تمحو إثمَ خطيئتك، وهذا أسوأ ما يتعلق بأخطاء الماضي؛ ستبقى وصمة عارٍ ملازمةً لقلبك دون أن تنعم بالمغفرة ولو من نفسك لنفسك».

**

فقدَتْ (ريتا) شعورها بكلِّ ما يدور حولها، وكأنها مجرد جثة تشغل حيزًا من العالم أصغر من أن يكون نقطة يتوقف المرءُ عندها، رغم الحشد الهائل حولها ورغم ضجيج الطريق وأبواق السيارات لم تستمع أو بمعنى أدق لم تدرك أيَّ شيءٍ، وإنما فقط مغيَّبة في عالمها الخاص حيث تلوح أمام عينيها هالةٌ نورانية وكأنها بابٌ من أبواب الجنة، ومضى كل شيء من بعدها سريعًا كومضة البرق..

طفلة صغيرة تحمل بعض الأزهار في يدها وتضعها بعناية وحُبٍّ على قبر والديها، يقف خالُها مطرق الرأس يتأمل براءتها بعينين منكسرتين؛ تظن أنها ما إن تعود معه للبيت ستجد أمها بانتظارها، وبعد قليل يعود والدها من عمله ومعه حلواها المفضلة، (قدير) ابن خالها الذي تربت معه وعاشت أمه على حُلم زواجهما رغم أنه يصغرها سِنًّا، ومن ثم سخريتهما من عبثية الأمر، وأخيرًا أهم شيء فقدته، ومن بعده ابنها و(عزيز) قلبها...

بدأت تحرِّك أناملها بصعوبة حركات عشوائية مضطربة وكأنها تبحث عن يده لتتشبث به، كانت تناديه تنصتُ إلى صوتها فقط وهي تنطق حروف اسمه بحثًا عنه، تذكُر جيدًا تلك المراسيل التي نمت بينهما وتفرعت حتى صارت سمةً من سمات عشقهما وشيئًا تفرَّدَ الاثنان به، آخر مكتوب بينهما، وانهزامها باختيارات قلبها، ثم رحيلها، وها هو (عزيز) يحاورها على الهاتف، السيارة! لقد صدمتها سيارة حقًا، لم لا تشعر بأي شيءٍ هل فقدت حياتها أخيرًا؟! على الأقل سمعت صوته وحققت آخر أمانيها وإن لم تكن قد حققتها كلها بعد!

بدأت تئن بوهن، تتأوه بخفوت لتدرك أنها لم تمُتْ على الأقل حتى لحظتها تلك لكن قلبها بدا وكأنه يُودِّع نبضَه، تفر منه ضرباته بشكل تدريجي، وصارت رغم الألم الذي تمكَّن منها تشعر بخدرٍ وثقل في جسدها وتُودِّع رغمًا عنها آخِر نوبات عنادها ومقاومتها وتستلم للوضع، شعرت بعدها بأنامل رقيقة تتحسس وجهها لم تكن واعية كفاية حتى تفتح عينيها ولكن مع وجود شخص ما بجانبها يشعرُ بها ويحاول استجداءها كي تبقى بخير اختلجها شعور بالأمان ومن ثم لا شيء...

اقتربت فتاة عشرينية منها لا تدري كيف استطاعت الانسلال بين الزحام وصولًا إليها، ولكن المهم أنها فعلت، بدأت تحاول مساعدتها كي تبقيها واعيةً لأطول وقتٍ، تعلم من حركات جسدها المضطرب ورجفة أناملها أنها لم تفقد وعيها كليًّا؛ ما زالت في مرحلة الصدمة وربما قد تكون تجاوزتها، لا يُهم، المهم الآن أن تنقذ حياتها، رفعت رأسها قليلًا واضعةً شالها أسفل منه وأراحته عليه بلطف، ثم وجَّهت أنظارها إلى الأشخاص المحيطين بها وأخذت تطلب منهم المساعدة بعد تأكُّدها من اتصالهم بالإسعاف، حاولت إنقاذها بأقل الإمكانيات المتاحة لها واستجاب العديد من الواقفين لطلباتها الكثير منهم أمدَّها بما تحتاج إليه، بعضهم كان يترك مكانه باحثًا عن صيدليات قريبة ثم يعود ومعه بعض المسكنات وأدوات للإسعافات الأولية، وإن لم تطلبها منهم على وجه التحديد، كان موقفها من الحادث كافيًّا لإيقاظ الإنسانية مرةً أخرى في قلوب الجميع حتى أصبح كل الموجودين يتمنون الحياة لـ (ريتا).

أصرت الفتاة ألا تسمح لهذه المرأة بالذهاب، لقد سمعتها وهي تنادي أحدَهم وعليها أن تمنحها فرصة الالتقاء به، لا تعلم كيف استطاعتْ أن تحوِّل الوضع من خطيرٍ إلى آمن لكنها ابتسمت وهي تمسك يد (ريتا) فقد رأت أن نبضها استقر أخيرًا، وأن التالي لن يصعب على الأطباء القيام به، ستكون بخير..

وأخيرًا وبعد أن اطمأنت عليها تركتها سالكة طريقها بين الحشود بينما لاحقتها نظرات الامتنان والشكر وهي تمر من بينهم وكأن (ريتا) أصبحت تعنيهم كلهم، وحياتها كحياتهم سيان في القيمة والأهمية، ثم اتجهت إلى إحدى السيارات وصعدت إليها، بدأت السيارة تعود ببطء إلى الخلف وتسلك طريقها إلى أحد الشوارع الجانبية، ومن ثم تصل سيارة الإسعاف بمجرد اختفاء السيارة التي صعدت بها الفتاة.

***

- نصف مرآة ونصف وجه، لا شيء كامل في الحياة، الحديث مع كل ما هو جماديّ يفيد، بإمكانك أن تقول كل ما سولت لك نفسك بلا استثناء. أي شيءٍ مهما بلغ لطفه أو قبحه تستطيع ببساطة طرحه عن صدرك دون تفكير أو خوف، دون انتظار لأحكام مسبقة، ودون خذلان أو ندمٍ يعقبُ البوح وهذا في الحقيقة هو الأهم في الأمر؛ لن تجد في الحياة من يستَطيع فهمك مثل قلادة صغيرة، أو نجمة بعيدة، أو صورة غالية قديمة، أو حتى مرآة مكسورة كهذه، لن تجد أقرب من الجمادات إلى قلبك. لولاها في حياتي لأصبتُ بالجنون!

انحنت (بيسان) وهي تمسكُ ما تبقى من مرآتها الصغيرة بعد أن سقطت أرضًا فنجا نصفها، وهلك النصف الآخر مُتهشِّمًا، بَيدَ أنّ الباقي رغم نجاته لم

يكن مُعافًا تمامًا وإنما ظل مُحتفِظًا بصدئه وخدوشه كما احتفظت هي بجراحها.

أمسكتها بحذر وهي تتمتم بهذه الكلمات طالما اعتادت أن تُحدِّث نفسها، أن تشي بأسرار قلبها لأشيائها، علَّمتها الحياة كيف تصنع فلسفة خاصة لكل شيء، ثم كيف تنجو وحدها من كل شيء وأي شيء تمر به، رُبما قوية، ورُبما هي أرق من أن تمنحها الحياة يومًا بعد يوم ضربة جديدة دون إنذار مسبق بالحرب، ربما لو باستطاعتها لانهارت، ولكن لا وقت لها لهذا، عليها أن تحقق ما عانت طيلة سنواتٍ ماضية للوصول إليه، تعلم أنها تستطيع ذلك، وستفعل.

وضعت المرآة على مكتبها بعد أن نظفت الأرضية من الزجاج المكسور، ثم جمعت شعرها البُنيّ قاتم اللون خلف ظهرها وارتدت معطفها من فوقه ليواريه دون قصد، وقبل أن تغادر شقتها اجتذب أذنيها ضجيج الأطفال في الحيّ ومن بعده صوت بوق السيارة المُعتاد؛ إنه (مجد) وصل بسيارته الفاخرة والأطفال يركضون من خلفها مُهللين بحلوله عليهم، استطاع أن يعقد صداقة ودّية مع هؤلاء المشاكسين الصغار ربما وقاية من شرهم، وربما لأن البراءة تجعل المرء عاجزًا عن المرور أمامها دون الامتلاء منها واحتضانها، كان يجلب لهم في كل مرة بعض الهدايا البسيطة والحلوى، يعرفهم بالاسم، يسمع منهم ويحكي لهم ويشاركهم تفاصيلهم الممتعة...

اتجهت إلى النافذة ومالت بخصرها وهي تنظر إليهم، ثم شرعت تتأملهم بعينين يعكس بريقهما مكنون ما في قلبها من السعادة والحب؛ ما إن نزل (مجد) من سيارته حتى اجتمع الأولاد حوله وتعالت أصواتهم وهم يحكون له عن مغامراتهم في الأيام السابقة، استدار ناظرًا إلى نافذتها ليلمحها أمامه فتلتقي أعينهما دون عمدٍ ويغيبان عن كل ما يحيطهما، ولما أطالت عيناه التشبث بعينيها ارتبكت نظراتها فرفعت أناملها إلى شعرها المتدلي على وجنتيها فأزاحته للخلف مبتسمةً ابتسامةً خجلة هادئة، ابتسم هو الآخر من خجلها الذي أذاب قلبه أكثر وبقي مستغرقًا في ملامحها، منشغلًا بها حتى جذبه أحد الأولاد من يده مناديًا عليه فالتفت إليه شاعرًا بالخجل محاولًا التملص من الموقف بفتح أي طرف جديد للحديث حتى ينشغل الأولاد به ويغفروا له شروده بها عنهم!

ابتسمت وهي تغلق النافذة آخذةً حقيبتها وشالها لتَهِمّ بالمغادرة، كانت شقتها بسيطة للغاية لا هي بالمكتظة بالأثاث ولا بالمفتقرة إليه، وإنما تحتوي على اللازم دون مبالغة؛ سرير صغير مرتب، دولاب يضم عددًا لا بأس به من الثياب، صندوق خشبي يحوي بعض التفاصيل التي تأخذها إلى الماضي حيث كان كلُّ شيءٍ أقل تعقيدًا وأكثر نقاءً، يوجد كذلك مكتب للدراسة، وصالون في حال مجيء ضيف، هذا إن حدث وزارها أحد؛ فهي تعيش بمفردها، لا أهل

لها في هذا البلد ولا أصدقاء مقربون سوى (مجد) وأخيرًا وأهمُّ ما يُميّز شقتها؛ مكتبة هي تُعتبر كل ممتلكاتها وأثمنها، حوَتْ بين رفوفها العديد من الكتب الطبية، وبعض كتب الأدب العربي، والروايات، وقلة قليلة من الدواوين الشعرية لشعراء مثل: محمود درويش، ونزار قباني. كان اللون الأزرق هو الغالب والمهيمن على تفاصيل شقتها، وكأنها تعيش في سماء ليلية قاحلة نجومها توشك أن تغيب، ولكنها لا تفعل!

ما هي إلا دقائق وغدت (بيسان) أمام (مجد) ما إن رآها الأولاد حتى التفوا حولها كي يأخذوا من الكعك الذي تُعدّه لهم، بدأوا يمدون أيديهم إليه يختطفونه سريعًا و(مجد) يشاركهم فعلتهم بينما أخذت تطالعهم وهي تضحك بعذوبة، حوّلت نظراتها إلى (مجد) وهي لا زالت محتفظة بابتسامها، وسألته:

- أنذهب الآن؟!

ابتسم مودعًا الأطفال واعِدًا إياهم أن يجلب لهم في المرة القادمة المزيد من الحلوى والهدايا، ثم فتح لها باب السيارة لتصعد ومن بعدها هو، ليقود سيارته ويغادرا الحي...

مكانٌ بسيط، أغلب قاطنيه من الطبقة الوسطى بينما أقليتهم القليلة من الطبقة الدنيا، يوجد به أيضًا الكثير من العرب الذين يعيشون فيه، وهذا ما أشعرها بنوع من الانتماء إليه.

***

قاد (مجد) سيارته، يتطلع أغلب الوقت إلى الطريق، ومن حين إلى آخر يسترق النظر إلى المرآة التي تعكس له وجهها، يعشق عينيها الرماديتين حتى إنه حين يتأملهما يبقى عالِقًا في حدودهما ولا يعرف كيف يتجاوز هذا الجمال رجوعًا للواقع، وعلى الرغم من عشقه لهما لم يكُن عاجزًا عن قراءة الحزن فيهما، سألها دون مقدمات وهو يتابع نظراتها:

- كيف يمكن للحزن أن يكون قريبًا إلى هذا الحد من الأشياء الجميلة؟!

نظرت بعينيها بعيدًا ثم أغمضتهما متنهدة قبل أن تلتفت له وتجيب:

- لا يكونُ قريبًا منها وإنما ضِمنها؛ الحزنُ من وجهة نظري جزء من الجمال، لا نستطيع أن نرى الأشياء جميلة إذا لم تحتوِ على لمسة من الحزن..

سكتت لهنيهة، ثم أردفت متابعة:

- أتعلم؛ نحن البشر بفطرتنا يقودنا الفضول لهذا الجمال الحزين على وجه الخصوص دون غيره، مثلًا نستطيع أن نرى كل يوم أشياءَ لا حصر لها تحمل قدرًا هائلًا من الجمال، لكن سرعان ما ننساها لأنها لم تترك بنا هذا الأثر الذي

يفعله الحزن، الحزن يمنح الجمال لمسة الخلود، وهو ما يبقي على الجمال فينا!

ابتسم بوهن ناظرًا لعينيها ثم ردَّ:

- ولكن هذا ليس عدلًا يا (بيسان).

- ربما لأننا نتألم نفكر بهذه الطريقة، ولكني أظنُّ أن الحزن يُولَد مع الجمال ليختبر مدى صدقه، الجمال الذي يطمسه الحزن ويخفيه ليس جمالًا حقيقيًّا يا (مجد)!

سادت بينهما ثوانٍ من الصمت، لكنها انعكست شديدة الصخب على قلبيهما، نظرت (بيسان) إلى (مجد) وسألته:

- ماذا بك أخبرني؟!

أجابها محاولًا تغيير دفة الحوار:

- عندي لكِ مفاجأة، هل أنتِ مستعدة؟!

أمالت رأسها وهي ترمقه بعينين ضيقتين، مجيبة إياه:

- كُفَّ عن التهرب كالأولاد، أخبرني ماذا بك؟!

ضحك وهو يرد:

- فقط جال هذا بخاطري، وشعرتُ أنّي أود أن تشاركيني فيه، لطالما شغلتني هذه المسألة كثيرًا، لكن أتظنين أننا قد نتخلى ذات يوم عن أحزاننا!

هزت رأسها نافية، ثم تحدَّثَت مبينة ما أرادته:

- لا نستطيع التخلي عن أحزاننا مهما نظرنا لها بعين العتب، ستبقى رغمًا عنَّا هي الجزء الأعظم الذي يُشكِّل أرواحنا، ستبقى مصدر جاذبيتنا يا (مجد).

- شكرًا لكِ يا (بيسان)، شكرًا لأنكِ هنا.

نطق كلمته الأخيرة مشيرًا بيده إلى قلبه، لتصطنع عدم الفهم وتحول مسار الحديث إلى المزاح قائلة:

- يبدو أن حصتك من الكعكِ اليوم لم تكن كافية، انظر لكل هذه الدموع المتلألئة في عينيك يا صغيري!

قالتها وهي تضحك رافعة سبابتها مشيرة لعينيه، ليسايرها مغطيًا عينيه بباطن كفيه مصطنعًا البكاء، قائلًا:

- لم أحصل إلا على قطعة واحدة، لقد أخذ الأولاد حصتي؛ أنتِ لستِ عادلة أيتها الطبيبة.

ضحكا حتى علت ضحكاتهما، ثم سألته بفضول:

- أخبرني، ما الذي تُحضِّرهُ لي؟!

- إنها مفاجأة، ستعرفين كل شيء عندما نصل، أعدك بهذا.

وبينما يجتذبان أطراف الحديث فيما بينهما، بدأ الطريق يزدحم، حتى توقفت حركة المرور تمامًا، أخذا يراقبان الطريق، يحاولان معرفة السبب وراء هذا التكدس المروري، حتى شعرا بالضجر، فنظر إليها (مجد) وهو يقول:

- سأذهب لأرى ما الأمر؟! لن أتأخر.

بقيت تراقبه من داخل السيارة، حتى اختفى عن ناظريها، وبعد بضع دقائق عاد وملامحه باهتة يعلوها الحزن، ليخبرها بأسف:

- تعرضت إحدى السيدات لحادث، صدمتها سيارة ضخمة، لم أستطع المرور بين الزحام لأرى حالتها، ولكن على ما يبدو الوضع خطيرًا.

أجابته مسرعة:

- والإسعاف؟

- لا أظنها أتت، ألا ترين الزحام!

- علينا أن نفعل شيئًا.

- (بيسان) هذا ليس وقتك، أنتِ لستِ في الدوام، وتعرفين أنكِ لا تستطيعين القيام بهذا دون موافقة من المشفى.

لم تُجِبْهُ وبقيت صامتة دون رد، ليُردِف متابعًا:

- أنا أفهمك، ولكني فقط قلق عليك، لا أريدك أن تقحمي نفسكِ في شيء يعرضك للخطر.

- إنها حياة إنسان يا (مجد)، كان من الممكن أن تكون هذه السيدة أي شخص قريب منّا، كان من الممكن أن تكون أنا...

قاطعها قبل أن تكمل:

- حسنًا، لا تقولي هذا أرجوكِ، كلُّ ما في الأمر أنّي لا أريدك أن تصابي بأذى.

ابتسمت بهدوء، وأجابته محاولة طمأنته:

- أعدكَ بهذا، سأذهب الآن وأساعدها.

- لا أستطيع أن أترك السيارة وسط الطريق، سأحاول تدبُّر الأمر قدر الإمكان ربما أستطيع التحرك إلى أحد الشوارع الجانبية لأصُفّها ثم ألحق بكِ لمساعدتكِ.

- لا تقلق، سأبذل ما بوسعي لإنقاذها.

- أثق بكِ.

فتحت السيارة ونزلت راكضة باتجاه ذلك الحشد الملتف من الناس حتى وصلت وأخذت تحاول النفاذ من بينهم مرورًا إلى هذه السيدة التي صدمتها السيارة، بالكاد وصلت إليها وبدأت تراقبها تراقب طريقة تنفُّسها، حركة عينيها المغمضتين، ردود أفعالها ومدى استجابتها لها، وبينما هي تساعدها سمعتها تهمس بصوتها المتهدج المتعب باسم شخص ما، نظرت إليها وهي تعدها بين نفسها أن تنقذها وألا تدع للموت سبيلًا ليَحُول بينها وبين من نادته وهي في هذه الحالة، لا تعلم كيف استطاعتْ أن تحوِّل الوضع من خطير لآمن لكنها ابتسمت وهي تمسك يدها لترى أن نبضها استقر أخيرًا، وأن التالي لن يصعب على الأطباء القيام به، ستكون بخير..

وأخيرًا وبعد أن اطمأنت عليها تركتها سالكة طريقها بين الحشود بينما لاحقتها نظرات الامتنان والشكر وهي تمر من بينهم وكأن هذه السيدة أصبحت تعنيهم كلهم، وحياتها كحياتهم سيان في القيمة والأهمية، ثم اتجهت إلى سيارة (مجد) وصعدت إليها، لتبدأ السيارة تعود ببطء إلى الخلف وتسلك طريقها إلى أحد الشوارع الجانبية، ومن ثم تصل سيارة الإسعاف بمجرد اختفاء سيارتهم من الطريق العمومي، نظر لها (مجد) مستفسرًا عما حدث، لتخبره وعلى شفتيها ابتسامة راضية:

- حمدًا لله، ستكون بخير.

- أنتِ عظيمة حقًّا أيتها الطبيبة.

- انظر.

قالتها وهي تمد له بطاقة صغيرة مُدوَّن عليها رقمٌ هاتفي مكتوب بخط اليد، تطلع إليها وهو يسألها عن هذه البطاقة لتخبره أنها تخص السيدة التي أنقذتها منذ قليل مضيفة:

- أظن أن علينا الاتصال بهذا الرقم، لقد وجدته على الأرض ضمن المقتنيات التي سقطت من حقيبتها إثر الاصطدام، ربما هو عائد لأحد أقاربها. ما رأيكَ؟!

- جيدٌ للغاية، لكن ماذا إن لم يكن الأمر كذلك؟!

أمسكت هاتفها وهي تنقل الأرقام من البطاقة إليه، مجيبة إياه:

- سنعرف عندما نتصل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

***

(4)

« ولم أدرِ وقتها أيُّنا كان يتكئ على الآخر، كُل ما عرفته أنّ جزءًا مُهمًّا تحجر في قلبي، وأنّي غدوتُ من تلك اللحظة أقسى من أن أتداعى دونه.»

**

قام (بدر) من سريره متجهًا بخطى وئيدة ناعسة إلى غرفة والديه، طرق الباب طرقتين ثم فتحه مُجِيلًا عينيه في أرجاءِ الغرفة إلا أنه وجدها فارغة لا أحد فيها. نظر إلى ساعته فوجد الوقت ما زال باكرًا؛ من الطبيعي ألّا يكون والده بالبيت، لكن ماذا عن والدته؟! تُرى أين هي الآن؟!

جذب الباب ناحيته مرة أخرى مغلقًا إياه، ثم بدأ ينادي عليها باحِثًا عنها في أرجاء البيت ربما لم تذهب إلى أيِّ مكانٍ، ربما هي في المطبخ تُعِدُّ من أجله الفطور؛ ذهب إلى هناك حتى يتأكد لكنه اكتشف أنها ليست موجودة، ثم نظر إلى طاولة الطعام ليجدها أعدَّت له فطوره المفضَّل، غطَّته بشكل مثاليٍّ مضيفةً لمستها الخاصة التي تمنح كل شيء تفعله جمالًا فريدًا، تركت له جوار الطعام بطاقةً صغيرةً دوَّنت عليها:

«أعددت لكَ طعامك المفضل يا صغيري، كن بخير واعتنِ بنفسك جيدًا من أجلي.» وفي طرف البطاقة وقعت له باسمها راسمة بجواره ابتسامة وقلب صغير.

ابتسم وهو يقرأ البطاقة متأملًا تفاصيلها؛ كم هي جميلة! تفكر به حتى في غيابها عنه، إنها حقًّا أمٌ عظيمة، أزاح الغطاء من فوق الطعام ثم سحب الكرسي وجلس أمام الطاولة وبدأ يتناوله بعينين مغمضتين مستمتعًا بمذاقه الشهي، لكنه امتعض فجأة هو يتذكر ذلك الكابوس الذي أيقظه في الليل فَزِعًا، ورغم أنه عاد بعدها للنوم إلا أنه ترك بداخله نوعًا من الرهبة المجهولة، بدأ يمضغ طعامه على مهلٍ وهو يمعن ذاكرته في تفاصيله..

يذكر أنه رأى بيتًا قديمًا وربما متداعيًّا ليس متأكدًا تمامًا؛ فحالته لم تُنبِّئ عن تفاصيل واضحة يُمكِن التدقيق في وصفها بسببِ النيران المنبعثة منه.

كانت نيرانًا عاتية مخيفة حدَّ أنَّها أَخْفَت ملامح البيتِ تمامًا فبدا من بعيدٍ وكأنه كُتلة جَهنَميّة سقطت مِن الجحيم على هذه البقعة مِن الأرض لتخسِفَها إلى الأبد، تُرى أيّ نوعٍ من الفزع آساه أهل هذا البيت وقت احتراقه؟! ازدرد (بدر) ريقه بصعوبة وهو يبحث في عقله عن جوابٍ لهذا السؤال، ثم قام من المطبخ عائِدًا لغرفته وهو يسترجع في ذاكرته بقية حلمه الحالِك؛ رأى على بُعدٍ يسير من هذا البيت طفلًا صغيرًا يعلو صراخه، تَعكِسُ صفحة عينيه فزعًا

قابِضًا ينفطرُ له أيُّ قلبٍ ولو كان متحجرًا، كان الطفلُ على يد والدته التي تلاحقت أنفاسها واختلج الرعب قلبها فطفقت تضمُّه إلى صدرها بقوة وتُحكِمُ تخبئته بكلتا ذِراعيها حتى لا يتعرض لأذى، المهم أن تحميَه..

رغبَ (بدر) لو أنَّ هذه هي النهاية لكن ذاكرته أَبَتْ إلا أن تعترف بالمزيد وبدأ يخامره اختناقٌ مُضْنٍ وكأنَّ أحدًا يُطوِّق عنقه بغلٍ مُنتزِعًا روحَهُ منه؛ كان هذا هو الجزءُ الأكثر فزعًا في منامه حيثُ اقتربَ شخص ثالثٌ من الأمِ وطفلها ثم نزع الصغير من صدرها...

شعر في تلك اللحظة بطنينٍ اجتاحَ رأسه فضم جفنيه بقوة عابِسًا، تختلط بقية تفاصيلِ الحُلمِ في ذاكرتِه ومع ذلك هناك نتيجة وحيدة مُتَيَقّنٌ منها وهي أن تدخل ذلك الشخص بين الأم وصغيرها دمّر كلّ شيء؛ فقد ركض بالطفل بعيدًا عنها، لتخور قواها تمامًا بعدما فقدته؛ توقفت في مكانها متسمرة عاجزة تلاحقه بعينيها المنهمرتين بالدمع وما هي إلا لحظات حتى رأى شاحنة ضخمة مُحَملةً بالجنود يُسدِّدون الطلقات إليها، اقتربت الشاحنة أكثر ودهستها مساوية جسدها بالأرض، ماتت الأم منكسرة مهيضة بعد أن فقدت ابنها وحياتها!

فرت دمعة من عيني (بدر) ليزيحها بأنامله ثم جلس على سريره مريحًا ظهره قليلًا إلى الخلف متكئًا على ذراعيه ناظرًا لسقف حجرته، وهو يسأل نفسه: لماذا يراوده هذا الكابوس منذ طفولته؟! ولماذا لا تتبين له ملامح كاملة، حتى الأشخاص فيه مجهولون بالنسبة إليه، لا يعرفهم، وإن كان لا يعرفهم فلماذا يحلم بهم من الأساس؟! ربما هو ذلك الصغير الذي فقدَ أُمّه، لكنَّ أُمّه بخير، أُمّه ما زالت معه لم يلحقها أذى، لم يأخذه أحد منها، ولم تتخلَّ عنه!

تنهد لتقع عيناه على الإطارات الكثيرة المعلَّقة أمامه على الحائط، كُلّها صوره مع والدتهِ في مراحل مختلفة من حياته، لكن لماذا لا توجد له صورة وهو رضيع مثلًا؟! لا يعرف كيف بدا وقتها، هل كان يشبه ذاك الفتى الذي رآه في حُلُمِه؟! أم أنه هو نفسه! كُلّها تساؤلات بلا أجوبة شافية بالنسبةِ له..

رنّ هاتفه ليقطع هذا الصخب الذي أثاره عقله، ورُبما ليبدده بما هو أَمَرَّ منه...

***

أخذ (عزيز) يعاودُ الاتصال على (ريتا) مراتٍ ومراتٍ حتى يئس مِن أنْ يأتيه منها رد، ظلَّ بمكتبه يفكر في كلِّ ما حدث معهما بِدءًا من الصباح..

غادر المنزل وهو على أملِ أن يعود فيجد كل شيء قد تَغيَّر؛ كأن تختار (ريتا) وجوده، أو أن تُخبِرَ (بدر) حقيقة الأمر، لماذا لا تفهم أنه يَحُوْل بين قلبيهما لأنه ليس ابنه ولم يكن ذات يوم منتميًا إليه؟! ألهذه الدرجة أولته قلبها وحبها

دونه؟! ظنَّ أنه سيعود فيجدها بانتظاره تأخذ بيده وتَعِده أن يبقى هو كل اختياراتها من الآن وإلى الأبد، ظنّ أنّها لن تتخلى عنه ولا تقوى على ذلك، ظلَّ يُقنِعُ نفسه بأنّه يعرفُ جيدًا قلبها، يعرفُ أنّها لا تستطيع قضاء يومٍ من دونه، لكن ماذا إن استطاعت؟! لماذا تركت المنزل وغادرت هكذا دونَ أن تقول كلمة واحدة؟!

كانت خائفة استطاع تمييز ذلك من صوتها، هل تصرَّفَت معه بهذا الشكل لأنها قررت تركه؟! يتآكل من الداخل ثم يهدأ شيئًا فشيئًا وهو يتذكر أنه دائمًا كان خيارها الأوحد، لقد ضحت كثيرًا من أجله، هي تُحِبُّه بصدق لا يمكنه تجاهل ذلك، إنها تركت وطنها لأجله، ليتزوجا ويعيشا معًا بالطريقة التي اختارها هو وتمناها من قلبه، لا يمكن أن تتغير عليه، أن تنأى بقلبها عنهُ أو تبحثَ عن ملجأ دون ضلوعه، هذا كُلّه مستحيل!

كَرّست (ريتا) نفسها وحياتها لأجله فقط، هل كان قاسيًا معها في الصباح؟! بالطبع، لقد قسا عليها؛ إنها أرقُّ من أن يُحمِّلها كُلَّ هذا العبء ويدعها لتختار وحدها بين شيئين مستحيلين، كيف يطلب منها أن تترك ابنها من أجله، هذا تصرف أنانيٌّ للغاية، لقد حُرِما من الذُّرية في الحين الذي وهبهما الله فيه هذا الولد، لماذا لم ينظر إليه بعين الحب، ما ذنبها أنَّه يغار؟! إنها بالأخير أُمٌّ تحملُ بداخلها هذه الغريزة منذ نعومة أظافرها؛ لطالما منحتْ حُبًّا خالصًا لكل ما تعلقتْ به، هذه هي (ريتا) التي أحبَّها فكيف يجبرها أن تعتنق شيئًا غريبًا عنها لا يَمتُّ لشخصها بِصِلة، وكأنه يطلب منها بعد هذا العمر أن تُولَد من جديد بلا هوية، لماذا لم يفكر في كلِّ هذا قبل أن يبلغ الأمر بينهما مبلغه من الندم، لقد أعمته غِيرَته كثيرًا، أو بمعنى أوفى لشخصية (عزيز) أعماه شعوره بأنها ملك له، إنه حُبّ التملك الذي سيطر عليه تجاهها، هي من الأساس وهبت له عُمرَها فلماذا يحاصرها بمزيد من القيود؟! لقد أخطأ كثيرًا في حقِّها هذه المرة..

بدا مُشتتًا مذعِنًا لتأنيب نفسه له حتى إنّ قلبه لم يجد صعوبة في طرح المزيد من التساؤلاتِ حَول آخر حديث دار بينهما، يسألُ من جديد: هل كانت خائفة لأنها رحلت دون مكانٍ تقصِده؟! أم أنّ مكروهًا أصابها؟! لقد ناداها بخوف لو كانت بخير لأجابته من فورها لِتُطَمئِنه، كيف بقي في مكانه كل هذا الوقت دون تصرُّف فعليٍّ، دون البحث عنها أو الهرولة إليها؟ ما الذي يفعله هنا بعد؟!

أمسك رأسه مغمضًا عينيه وهو يوشك أن يُجَن من شدة خوفه عليها، فكَّر في (بدر) ربما إذا تحدَّث إليه يهدأ قليلًا ويعرف منه ما حدث بالفعل..

خرج من المكتب وهو يتصل به ليخبره الأخير أنه في طريقه للمشفى، لم تكن حالة (بدر) مُطمَئِنة ليجيب على أسئلة (عزيز) أو يُوَضِّح له شيئًا، بالكادِ

أخبره أن والدته مريضة وهو في طريقه إليها، ثم أنهى معه الاتصال سريعًا تاركًا إياه ممزقًا، جامدًا، غائبًا عن العالم، يحاول استيعاب الأمر تدريجيًّا؛ يرتبُ الأمور مرارًا في عقله، أولًا نبرتها المهتزة الخائفة، ثم انقطاع الاتصال بينهما هكذا فجأة دون مقدمات، يوجد كذلك الضجيج الثائر للسيارات حولها، فضلًا عن اتصالاته المتكررة عليها دون أن يحظى بأيّ ردٍّ، وبعدها حديثه إلى (بدر).

ما الذي أصابها؟! وما مدى خطورة الوضع؟! هل حقًّا فقد (ريتا) الخاصة به، لن يسامح نفسه إذا كان هذا حقيقيًّا!

***

ما زلتُ رغم إيماني بالمعجزات أعلم أنها قد لا تكون في كثير من الأحيان مُجدية، لكني أتمنى من قلبي هذه المرة أن يكون الحب مُجديًا ليُنقِذ ما بين (ريتا) و(عزيز)، بالنظر إلى (عزيز) فهو ليس أنانيًّا بالفعل، وإنما فعلت به (ريتا) هذا، لقد شغفها حبًّا فَدلَّلَته حتى صار أمامها طفلًا؛ هو أيضًا يرى نفسه ابنها، له حقٌّ في أمومتها التي قدَّمتها كلها إلى (بدر)، صعبٌ للغاية أن يتأرجح بين كونه دفئها وبين احتياجه لاستمداد الدفء منها، أن تكون شمسًا لكنك في الآنِ ذاتِه مفُتَقِدًا لمصدرٍ آخر تستمد الضوء منه، هي كالقمر بالنسبة إليه؛ وما ضوء الشمس إلا انعكاسًا لما يجود به القمر!

أضف إلى ذلك أنه عاش طوال عمره يتمنى لو يهبها طفلًا من صلبه فيتشاركان سويًّا تربيته مع (بدر) هو لا يُضمِر له سوءًا حقيقيًّا، ولكنه يغار فقط أنَّه لم يمنحها ابنًا مثله، في الحقيقة هو يحبه كثيرًا لكنه يخاف أن يتعلق قلبه به ثم لا يجده، الحقيقة دائمًا تُكبِّله، فهو يعلم أنه سيأتي حتمًا ذلك اليوم الذي يرحل فيه هذا الولد عنهما، يخشى أن تجتاح عاطفة الأبوَّة أوصاله ثم يفقد ضناه، لقد رأى هذا الرعب في أعين الكثير من الآباء، يعلم أنه لن يتحمله أبدًا!

وصل (بدر) المشفى قبل (عزيز)، دخل مُهَروِّلًا يلفظ أنفاسه وهو يسأل موظفة الاستقبال عن والدته، لتدله على مكانها لم يتمهل وتوجه سريعًا إليها ليجدها في الغرفة نائمة تغُطُّ في سباتٍ عميقٍ يعلو جسدها بعض الخدوش، ورأسها محاط بلفُافة طبية، مُعلَّقٌ لها بعض المحاليل، تُرى ما حجم الألم الذي تشعر به الآن؟!

ظلَّ واقفًا يلهثُ أنفاسه وعيناه لم تفارقا مُحيَّاها بل تعلقت نظراته بها، وبقي متسمرًا وسط الغرفة يتأملها بخوف وقلق شديدين، دخل الطبيب المشرف على حالتها ليجده غارقًا في قلقه عليها، نظر إليه مَليًّا بعد أن أعطى والدته بعض الأدوية، ثم سأله:

- هل أنت قريبها؟!

أومأ إليه (بدر) دون ردٍّ، فتابع الطبيب وهو يدنو منه:

- لا تقلق، إنها فاقدة للوعي بفعل الدواء الذي أخذته، ستستفيق قريبًا.

أنهى الطبيب حديثه رابتًا على ظهره تاركًا الغرفة ليقترب (بدر) من والدته ويجلس بجوار سريرها وهو يمسك كفها بكلتا يديه ويقبِّله، أخذ يعتذر منها وكأنه هو مَن فعل بها كل هذا، كانت حالته مزرية يُمَزِّقه خوفه عليها، لأول مرة يرى أُمَّه مريضة، لأول مرة يهتز من داخله بهذا الشكل المُروِّع.

أتى (عزيز) لكنه بقي واقفًا أمام باب الغرفة مُتحجِرًا من القلق، ثابتًا في مكانه ينظر إلى الداخل برهبة وحزن، يراقبُ (بدرًا) وهو يمسك يد (ريتا) ويبكي مُردِّدًا:

- أنا آسفٌ يا أمي، أنا آسفٌ للغاية.

دلف بخُطى مترددة ثقيلة لا يجرؤ على الاقتراب أكثر لا يُصدّق أن كلّ ما حدثَ لها هو مَنْ تسبب فيه، إنها تتألمُ الآن بسببه، هو مَنْ عليه الاعتذار وليس (بدر).

ظلّ ينظر إلى وجهها، عيناها المغمضتان، ملامحها المُتعَبة، ثم اقترب من (بدر) وجلس إلى جواره واضعًا يديه فوق يده التي تضم كفّ زوجته، نظر له (بدر) وكأنه لا يُصدِّق أن هذا هو (عزيز) الذي يدنو منه! لا، ليس هذا فحسب وإنما يحيط كفيه بيديه، تنهد (عزيز) مُغمِضًا عينيه فهو للمرة الأولى يشعرُ أن (بدر) ابنه، ثم نظر إليه وهو يعتذرُ منه قائلًا بنبرة نادمة:

- أنا آسفٌ يا بني.

أنهى جملته ثم أجهش بالبكاء ليضمه (بدر) وهو يبكي هو الآخر، احتضنه (عزيز) بقوة، وبقي مُحتَفِظًا بولده بين ضلوعه..

فتحت (ريتا) عينيها ببطء وهي تهمس باسم (عزيز) منادية عليه، رأته وهو يحتضن ابنها، كان (بدر) حقًّا بين ذِراعَي والده للمرة الأولى، التفت (عزيز) إليها واقترب منها ممسكًا يدها مُقبِّلًا إياها وهو يقول:

- أنا هنا حبيبتي، سامحيني أرجوكِ.

ابتسمت بوهن شديد وغفت من جديد، ليقترب (بدر) من (عزيز) رابِتًا على كتفه قائلًا:

- لا تقلق، ستستفيق قريبًا لقد أخبرني الطبيب قبل مجيئك أنها نائمة بفعل الأدوية التي أعطَوها لها.

أومأ إليه (عزيز) مبتسمًا ابتسامة خافتة قلقة، وبقي جوار زوجته ممسكًا يدها، وكذلك فعل (بدر) وبقي إلى جوارها شاكرًا الله كثيرًا أن أُمه نجت من الموت

لأجلهما!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(5)

«لا يُمكِنك أبدًا تَوقُّع الحياة وما تُخبِّئه في طريقها لك، لكن إذا ما كُنتَ تتحلى بالشجاعةِ الكافية ستتعلم كيف تخوضُ الطريقَ وحدك، دون أن تتعثر في المُنتَصف، ودون أن تفقِد ذاتك في أوجِ انشغالك بالوصول».

**

بعد عدة ساعات..

- إذًا هل أنتِ مستعدة؟!

قالها (مجد) متأملًا (بيسان) وهو يمسك يدها محتويًا إياها وكأنه يضمها بأنامله لتتطلع إليه بارتباك؛ فهذه هي المرة الأولى التي يأخذ كفها الصغير ويسكنه بين يديه، سَرَت بقلبها رجفة خفيفة وسألته بنبرة خافتة وكأنّها تُعلِن استلامها له:

- لأي شيء؟!

ابتسم مُتَمَليًا صفحة عينيها وأجابها وهما يلجان من الباب الرئيسي للمشفى:

- حسنًا أيتها الطبيبة الجميلة، نستطيع من الآن أن نقول أصبحتِ طبيبةً بشكلٍ رسميٍّ.

أحكمت قبضتها على كفه وهي تضحك مُمِيلة رأسها مخبئة عينيها بباطن كفها، لا تكاد تصدق أن ما يقوله حقيقي، تشعر وكأنها في حلم؛ أزاحت كفها قليلًا ثم نظرت إليه متحققة منه وسألته:

- هل هذا حقيقي؟! أخبرني أنه حقيقي أرجوك!

ضحك بشدة وأجابها:

- لقد اتصل بي الدكتور (عزيز) في الصباح وأخبرني بذلك.

عاودت النظر إليه لكن بعينين ضيقتين، ليرفع حاجبيه ويسألها:

- ماذا؟! لا تنظري هكذا أنا لم أفعل شيئًا.

حركت رأسها لأعلى وأسفل وهي تجيبه:

- بلى فعلت الكثير؛ لماذا لم تخبرني منذ الصباح؟!

أجابها وهو يضم يدها بأنامله أكثر:

- أردتُ أن يكون اليوم مميزًا بالنسبة إليكِ، في الواقع هناك شيء آخر عليَّ إخبارك به، لكني لا أعلم بعد كيف ستكون ردة فعلك إزاءه؟!

سكتَ قليلًا مُراقِبًا عينيها، كلاهما على علمٍ بالقادم الذي سيقال؛ هي تشعر به، بمشاعره تجاهها، تجيد قراءة عينيه بسهولة ولا يصعب عليها التنبؤ بما سيبوح به، هو كذلك انتظر كثيرًا حتى يتحين الوقت المناسب فيخبرها أنه يعشقها، بل أنها شغفته حُبًّا ويريدُ أن يكمل حياته معها، يريد أن يحيى لها ولأجلها وأن يشاركها مسرَّاتها وأحزانها ويكون لها دفئًا وضيًّا، إنَّه على استعداد تام ليهبها كل شيء بما في ذلك روحه، بداخله الكثير والكثير الذي يودُّ إخبارها به، تطلعت إلى عينيه وهي تحدثه:

- لماذا سكتَّ؟! أكمل، أريد أن أسمعك.

أغمَض عينيه متنهدًا مع ابتسامة حالمة، ثم فتحهما وهو يقول:

- (بيسان) أنا...

لم يَكَد يُكمِلُ جُملَته حتى وجدها تُقَاطِعه ساحبة يدها منه مُلتَفِتة إلى الممر، وهي تسأله بنبرة مهتزة منطفئة:

- هل سمعت هذا؟!

كانا وقتها واقفين على مشارف أحد الممرات داخل المشفى، رفع حاجبيه مندهشًا؛ فهو لم يستمع إلا إلى تلفاز ربما ظهر صوته قريبًا منهم لانبعاثه من إحدى هذه الغرف الواقعة في أول الممر، لم يكن صوته عاليًا للغاية حتى يزعجهما، لكنها (بيسان) بالتأكيد تفكر في المرضى تخشى أن يؤذِيَهم الصوت، حرَّك رأسه في يأسٍ وأخذ يفكر فيما قصدته تحديدًا من سؤالها، هل يستحق الأمر أن تُفسِد عليهما لحظتهما الفريدة تلك وتقطع اعترافه لها بالحب؟!

وقف شاردًا مشدوهًا محاولًا التدقيق أكثر في الصوت، لم يُجِبها من فورِه ولم تتمهل حتى يأتيها ردٌّ منه، أخذته وهي تلفُّ كفها حول معصمه وتسير معه في الممر متقدمةً عنه خطوتين، أخذت تتلفت حولها باحثة عن مصدر الصوت، سألها (مجد) محاولًا الاستيعاب:

- (بيسان)، ما الأمر؟!

لم ترد واستمرت في السير بخُطى مضطربة وكأنها ليست حاضرة هنا؛ لا تسمعه أو تسمعه وتخشى أن تجيب، وكأنها لا تريد حتى الاعتراف بينها وبين نفسها بما أصابها.

وصلا إلى الغرفة التي جذبتهم كَرهًا إليها فوجدا بابها مُوارِبًا بحيث يسمح لهما برؤية ما بالداخل، وقفت معه وهي ما زالت تحيط معصمه بكفها متشبثة به، فقدت تمامًا السيطرة على قلبها فتبعثرت نبضاته وتفاوتت وتحول جسدها بين لحظة وأخرى لما يشبه الجليد برودةً وصلابةً، شعر (مجد) بهذا الاضطراب الذي أَلَمَّ بها وبدَّل حالها من انتشاء السعادة إلى تجرُّع الحزن فوضعَ يده فوق يدها المتشبثة به محاولًا تهدئتها وهو يسألُها:

- ما الذي حدث؟!

أشارت إلى التلفاز، ليقرأ بخفوت الخبرَ المعروض على شاشته والذي كان نَصُّه كالآتي:

«شابة تتطوع كأمٍ بديلة لرضيع من (الضفة الشرقية) المُحتَلَّة، كان يعالج وحيدًا في إحدى مستشفيات (الضفة الغربية)، بعد منعِ سُلطات الاحتلال والديهِ من مُرافقَتِه في رحلة العلاج».

أنهى قراءة الخبر وهو يتطلع إليها ليجد دموعها تنهال على وجنتيها بصمتٍ، شعر بغصة في قلبه وكأنَّ حزنها انتقل منها إليه، لم يتحمل رؤية دموعها ولم يتحمل أكثر عجزه أمام أنينها الصلب، جذبها إلى صدره ليضمها إليه وطفقَ يمسِّد على شعرها طالبًا منها أن تهدأ، استكانت بين ضلوعه، ثم ابتعدت عنه راجعة إلى الخلف خطوتين، وكأنها للحظتها غرقت في حساب المسافات بينهما فبدأت تعيدها لما كانت عليه وكأنها تريد أن تُبقِي عليها أكثر للاحتفاظ بها بدلًا من التفكير في إذابتها ومحوها، ثم أخبرته وهي تكفكف دموعها:

- لستُ بخير يا (مجد)، آسفةٌ، عليَّ الذهاب الآن!

وقبل أن تتركه وترحل انفتح باب الغرفة من الداخل ليخرج (عزيز) منها فيراهما أمامه، في البداية اندهش مُحدِّقًا إليهما ثم تذكَّر أن المشفى مكانهما الطبيعي فهما أطباء فيه بل الأحرى أن يندهشا هما من وجوده هنا، كانت (ريتا) مُستَرخية على السرير تنظرُ تجاه الباب حيثُ يقف زوجها مع (مجد) و(بيسان)، نظرت إليها (بيسان) مكتشفة أنها نفس المرأة التي أنقذت حياتها قبل قليل، ورغم تفاجُئها لم تكن حالتها جيدة كي تعرف المزيد عنها، أو كيف تطورت حالتها وما العلاقة التي تربطها بأستاذها الجامعي الدكتور(عزيز)؟! كل ما أرادته هو الرحيل الآن، أما (ريتا) فعلى الرغم من وهنِها أطالت التحديق إليها فقد خالجها شعور غريب تجاهها، لم تكن تعرف أنها هي من أنقذت حياتها ولم يكن هذا هو منبع شعورها الفضولي تجاهها، شعرت (بيسان) وهي تُطالِع نظراتها بغصة في قلبها فَحوَّلت أنظارها من (ريتا) إلى الدكتور (عزيز) مستأذنة منه أن تذهب، لم يدُر بينهم أي حديث، هو أيضًا كان متعبًا ليس

بالحال الجيدة التي تمكنه من التكلم أو الشرح؛ فأومأ إليها سامِحًا لها بالانصراف..

ولَّت الجميع ظهرها وسارت متجهة إلى استراحة الأطباء في المشفى بينما بقي (مجد) واقفًا أمام (عزيز) وهو يراقبها شاعرًا باضطراب وحزن شديدين، ربت (عزيز) على ظهره ليلتفت إليه، ويسأله عمَّا يفعله هنا؟! بينما بقيت (ريتا) ساهمةً تفكر في (بيسان) التي رأت في عينيها انهزامًا ذكَّرها بخسائرها الماضية، تُرى من هذه الفتاة؟!

***

دفعت (بيسان) الباب بوهن تشعر أن رأسها على وشك الانفجار، ما زالت عيناها محتفظتين أمامها بصورة هذا الصغير الذي رأته في نشرة الأخبار على التلفاز، تنهدت وعلى شفتيها ابتسامة مريرة محدثة نفسها:

- يا لها من معادلة قاسية أن تمنحك الحرب فرصة جديدة للحياة مقابل الحرمان! حرمان من الطفولة مع مصاحبة الشَيب، حرمان من الاستقرار والأرض، والأقسى حرمان من دفء الأهل، لماذا يفقد المسكين أمانه ليحظى بحياة واهية؟! حتى وإن نجا سينجو مع تجاعيده وهزائمه مع مخاوفه وانكساراته، وربما لن تمنحه الحياة فرصة أخرى ليلتقي والديه!

عَلَا صوتُها تدريجيًّا وهي تحدِّث نفسها، لم تنظر داخل الغرفة وإنما ولجت مُطرَقة الرأس، عيناها منكسرتان تتوجه نظراتها إلى الأرض، لتستمع إلى إحدى زميلاتها تجهش في البكاء إثر حديثها، ظنَّت حين دلفت استراحة الأطباء أنها ستجدها خاليةً كعادتها في هذا الوقت لكنها ما إن رفعت عينيها حتى فوجئت بها مكتظة تحوي العديد من الأطباء الذين التفتوا إليها وأخذهم حديثها، اقتربت (بيسان) من زميلتها التي تبكي وجلست بجوارها وهي تمسح على ظهرها برفق محاولة تهدئتها ليعلو نحيبها وكأنها انهارت أكثر مع المحاولة للتخفيف عنها، أطبق الصمت على الجميع حتى غدت الغرفة خالية من أي صوت إلا انتحاب هذه الطبيبة، حدقت (بيسان) إلى وجوههم وهي تشعر أن كارثة حلَّت عليهم، هذه الحالة ليست فقط من كلامها، هذا مؤكد، سألتهم مُدّعِية ثباتًا تُواري تحته خوفها:

- ما الأمر؟! أخبروني ما حالتكم تلك؟!

تبادلوا النظرات فيما بينهم ولم يأتِها ردٌ على الفور، فحاولت أن تطرح السؤال من جديد بطريقة أخرى ربما يجيبونها، ربما تفهم بهذه الطريقة ما الذي حدث؟ فقالت:

- أنتم هنا بسبب الطفل الذي انتقل...

قاطعها أحد الأطباء قبل أن تستأنف مُبددًا حديثها، وهو يقول:

- فقدنا طاقمنا الطبي في (الضفة الشرقية)، لم يتبقَّ أحدٌ أيتها الطبيبة، جميعهم استشهدوا وماتوا!

نطق جملته الأخيرة بشفتين مرتجفتين وعينين باكيتين، مغادرًا الغرفة بخطواتٍ متسعة سريعة قريبة من العَدْو وكأنه يتمنى لو باستطاعته الفرار من الواقع الذي لا ولن يتوقف ذات يوم عن ملاحقة الكلِّ!

انتفضت (بيسان) واقفةً قبل أن يكمل جملته ثم أخذت تتابعه بنظراتها وهو يهرب مغادرًا الغرفة، التفتت بعدها إلى زملائها باحثةً في أعينهم عمّا يُكذِّب ما سمعته الآن، ما زالت لم تستوعب بعد! لترى طبيبًا مِن بينهم يتقدم إلى وسط الغرفة حاملًا بيده كشفًا خاليًا من الأسماء، ثم قال دون أن يواجه بنظراته أحدًا منهم، محاولًا الحفاظ على قوته وإن كانت مصطنعة حتى لا ينهار وينهاروا أكثر:

- تعرفون أنَّ ما حصل اليوم لا يعني إلا تكوين طاقم طبيٍّ جديدٍ، (الضفة الشرقية) بحاجة إلى أبطال جُدد، من منكم سينضم؟!

أنهى جملته مُدوِّنًا اسمه أعلى القائمة، متابعًا بنبرة خافتة منكسرة:

- أفهم أنكم الآن لا تفكرون في أنفسكم فقط، لكن لا تنسوا أن أدوارنا لا تنقص شيء عن هؤلاء الجنود الذين يحاربون يوميًّا الموت؛ نحن كذلك نشاركهم الحرب تمجيدًا للحياة. على هذه الضفة المُحتَلة أطفال يموتون وأمهات يقهرهن الضنى، عليها عجائز يقتلهن المرض قبل الحرب، ومسنون كل أمانيهم أن يقاوموا ليحظوا بموت طبيعي على أسِرَّتِهم، لا بالقذائف ولا تحت الأنقاض، مَن منكم يريد أن يتطوع للخدمة في (الضفة الشرقية)؟

تقدمت (بيسان) ودَوَّنت اسمها معه في الكشف، وغادرت بعدها الغرفة دون أن تعرف نتيجة محتَّمة لما أقدمت عليه هي لم تفكر حتى، مجرد توقيع بسيط خَطَّته بيدها لكنه سيغير حياتها كليًّا!

لم تكن بخير تمامًا؛ فقد جالَ بعقلها الكثير من الأشياء؛ الماضي والحاضر، وعودها، وحُبّ حياتها، لن يجمع المرء كل شيء في جعبته، ومتى استطاع أحد ذلك؟!

شعرت وهي تسير بطنين في رأسها فأغمضت عينيها مغطيةً إياهما بكفها، عدة خطوات أخرى واصطدمت دون قصدٍ بعابر مرَّ جوارها، أزاحت يدها إلى الأعلى فاتحة عينيها لترى أوراقًا طبية مبعثرة؛ بعض الإشاعات والتحاليل وما إلى ذلك، استنتجت فورَ رؤيتها أنها مَن تسببت بهذه الفوضى فانحنت كي تجمعهم سريعًا معه، ثم مدت إليه الأوراق معتذرة دون أن تنظر إليه، أخذها

الآخر منها على عجلة ومضى دون ردٍّ، عكست ردود أفعاله السريعة حركاتِ يديه وهو يجمع الأوراق وطريقة تلقيه البقية منها مدى انزعاجه من الموقف مما جعلها تشعر بالحرج الشديد، استقامت واقفة حتى تكمل طريقها بعد رحيله وهي لا زالت تفكر فيما تسببت به ثم توقفت فجأة ملتفتة إليه وكأنها بالكاد انتبهت إلى الشامة في يمناه ما بين السبابة والإبهام، نظرت إلى يديه مُدقِقة النظر ثم لحقت به وهي تسرع في الخطى لكنه سبقها بضع خطوات وبمجرد وصوله إلى المصعد فقدته، ولم تحاول من جديد..

لم تتمكن حينها من رؤية وجهه لتتعرف عليه فقط رأت ظهره من الخلف وعرفت من قامته ومشيه أنه شاب في مقتبل العمر

بدت مشوَّشة وشعرت بتأنيب الضمير، ثم طفقت تطرح على نفسها تساؤلات دون أن تحظى عقبها بِردٍّ شافٍ؛ كيف لم تنتبه لمرورها بجانبه؟! لكن إن لم تكن هي بكامل تركيزها فماذا عنه؟! هل سار هو الآخر مغمض العينين؟! ربما هو مثلها؛ سَرَق تفكيره ما هو أكبر من اجتيازِ مَمرٍّ، لكن ما الذي جعلها تلحق به؟! بالتأكيد ما لا حظته لا يعني تمامًا أنه هو، إنها لا تفهم نفسها حقًّا كيف لها أن تفكر بهذه الطريقة؟!

زفرت بنفاد صبرٍ مستندةً إلى أحد الجدران بالمشفى، ثم أخذت تحاول أن تتنفس بهدوء لتستكين قليلًا وتتمكن من مواصلة اليوم؛ لم تتعرض (بيسان) منذ وقتٍ طويلٍ لكل هذه الضغوط دفعةً واحدةً، اجتمع أمامها كل ما تمنته وكل ما فرَّت منه في آنٍ واحدٍ وأصبح عليها أن تختار ما بين الإمساك بأمانيها أو مواصلة الهرب! عفوًا لقد اختارت بالفعل قبل دقائق، ستترك كل شيء من أجل أراضي الحرب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(6)

«كورقةٍ خرِيفيّة صفراء تتهاوى بعيدًا عن غُصنِها الذي نَمَتْ عليه وآوت إليه، كيف له أن يطرحها بمنأى منه وكيف لها أن تنجو من بَعدِه؟! لا ذنب لكليهما فهذه دورة الحياة».

**

بعد ثلاثة أيام...

نظرت (بيسان) إلى حقيبةِ السفرِ المفتوحة أمامها على السرير والتي ملأتها بمُقتَنيَاتِها الضرورية؛ فلم تأخذ إلّا ما عرفت أنها حقًّا ستحتاج إليه، وضعت فوق ثيابها المطوية ذلك البالطو الأبيض الخاص بالأطباء ثم اتجهت إلى الصندوق الخشبي في خزانتها وفتحته لتخرج منه قلادة ذهبية تُزيِّنها حبة لؤلؤ وحيدة تَغيَّر لونها إلى الأصفر قليلًا لقِدَمها إلا أنها مع ذلك لم تَفقِد قيمتها أو جمالها العتيق، أمسكتها وهي تثنيها على أناملِها ثم ترفعها متأملة إياها فتنعكس بذاكرتها صورة والدها حينما أهدى والدتِها هذه القلادة؛ اقترب منها مُنَحِيًّا برفق خصلات شعرها البُنّي قاتم اللونِ وجمعها إلى جانب عنقها ليتدلى منه إلى كتفها ومن كتفها مُلامِسًا خصرها ثم وضع القلادة حول جيدها فأمسكتها بأناملها وهي تضمها، ثم رفعت عينيها ناظرة إليه. ما زالت تذكر البريق الساكن في عين والدتها ونشوة النصر التي أحسّ بها أبوها إثر بريق الحبِّ والفرح في عينيها آنذاكٍ.

ابتسمت ابتسامةً هادئةً مُغمِضة عينيها مُتنَهِّدة تنهيدة عميقة ثم فتحتهما متجهةً إلى مكتبها لتأخذ من عليه ذلك الإطار الذي يضُم صورة (مجد) تأملته بعينٍ منكسرةٍ حزينةٍ؛ يا لغصة قلبها العاشق الذي سيُودِّع على مرأى منه معشُوقه! وأيُّ وداعٍ؟! وداعَ مُكرَهٍ لا أمل له في لقاء جديد..

كيف ستتحمل الحياة من دونه؟! هل سيسامحها ذات يوم لأنها رحلت وتركته؟! إنها حتى لا تمتلك الشجاعة الكافية من أجلِ توديعه؛ لن تستطيعَ مواجهة نظرات الخذلان التي ستتملك عينيه وهي تخبره، لن تتحمل الوقوف أمامه وهي تعلم أنها آذت قلبه بهذا الشكل، الحب والموت سيان في جراحهما؛ لا شفاء لمحب طعن في عُقر قلبه، ولا عزاء لفاقد يتفاقم شوقه مع مرور الوقت، وَجَعان أبديان لا خلاص منهما!

كان ما يُهوِّن عليها قليلًا أنها لن تخلفه وحيدًا فهو لديه والديه، لديه عائلة ستُعينه على تجاوزها دون الوقوف طويلًا على ذكراها، ستبحث أُمُّه بلا شك عن امرأة جميلة تصلح زوجة له، وسيُحدِّثه أبوه أن كثيرًا من قصص الحُبِّ لا تعدو أن تكون مجرد وَهمٍ حلوٍ سرعان ما يتبدد!

لديه كذلك أصدقاء كُثُر سيُهوِّنون عليه غيابها، سيشغلونه بتفاصيل كثيرة لن تكون هي ضمنها وسينساها ذاتَ يوم، رُبما سيلتقي فتاة أخرى أكثر جمالًا وأقدر على تكريس حياتها له، فتاة لاَ تعبأ بالحرب أو الإنسانية مثلها، ليس لعيبٍ فيها أو لقُصورٍ منها وإنما لأن قضيتها التي تعيش من أجلها مختلفة بعض الشيء عنها، رُبما ستخوض هذه الأخرى حربًا من نوعٍ آخر وهي المحافظة على حُبِّ حياتها وتكوين عائلة صغيرة سعيدة معه؛ فهي تعلم أنه ليس ذلك الرجل الذي يَهِب قلبه لامرأة فارغة من الداخل لا تؤمن بشيء ولا تسعى لتحقيق ذاتها، سيختار حبيبها امرأة مثالية لتصبح شريكة له، ستلتمع عينيه وهو ينظر إليها ويخفق قلبه وهو يشابك أنامله بأناملها، سيتأمل تفاصيلها ويقضي أوقاتًا أكثر بجوارها، سيشيب وهو يتكئ عليها وعلى حبها له، وسيبقى فخورًا بامرأته الأخرى ورُبما لو تذكر (بيسان) سيتذكرها كطيفٍ عابر، رُبما سيروي قصتهما لأحفاده دون التصريح بأنّه ذلك العاشق الذي هُجِر غدرًا، ثم سيُكلِّل لهم القصة بأن بعد كل حُبٍّ زائفٍ آخر حقيقي كذاك الذي عاشه مع جدتهم!

ضمت الإطار بكلتا يديها إلى صدرها لتتدفق دموعها على وجنتيها دون أن تشعر حتى رنّ جرس الباب فانتبهت لبكائها فكفكفته..

تكرر صوت الجرس مرة ثانية فالتفتت تجاهه ثم أخذت القلادة والإطار ووضعتهما فوق مُقتَنيَاتها في الحقيبة ناسية أن تغلقها واتجهت بعدها مسرعة إلى الباب لتفتحه، ما إن جذبت الباب إليها حتى رأت (مجد) واقفًا أمامها تمتلئ عيناه بنظرات الغضب..

توقعت كلّ شيء إلا أن يأتيها في هذا الوقت نطقت اسمه بخفوت وكأنها تحاول أن تصدق مجيئه، وقبل أن تسمح له بالدخول وجدته يتجاوزها إلى الداخل، أغلقت الباب من خلفه وبقيت واقفةً مكانها مستندة إليه وهي تراقبه؛ خطواته المضطربة، تَحرُّكه جيئة وذهابًا مع أنفاسه المتلاحقة، تمتمته بعبارات غير واضحة دون مطالعتها أو توجيهها مباشرة إليها، بعدها توقف فجأة ناظرًا إليها بعينين حمراوين وهو يسألها:

- لماذا؟!

ضمت شفتيها وهي تبادله النظر لكن بنظراتٍ مختلفة؛ عيناه تُفصِح عن العتاب وعيناها تبوءان بالهرب، نظراته متعطشة للفهم، ونظراتها مرتبكة مترقبة للعاصفة الحالّة عليهما، تعرفُ ما الذي يقصده حتمًا من سؤاله، ولكنها لا تعرف بم تُجِيب، أو كيف تُقنِعه أنّ هناك أسبابًا لرحيلها عنه؟! سيبقى ينظر إليها على أنّها تركته مهما كانت أسبابها أو دوافعها ومهما كان ما قالته لتقنعه به أو تخفف عنه!

اقترب منها قليلًا ممسكًا يدها بكلتا يديه كصغير يتوسلُ لأمِّه ألا تدعه وتذهب لأيّ مكان، ثم زفر في محاولة لترتيب أنفاسه، ناظرًا لعينيها واضعًا غضبه منها جانبًا محاولًا كبح جماح قلقه من خسارتها أو فقدها، فمجرد رؤيتها وملامستها كافيان لبثِّ الطمأنينة في نفسه؛ فذلك معناه أن وجودها الآن حقيقي، وأنها ما زالت هنا معه، تمسك بيده وتلتقي أعينهما دون أن يحول بينهما شيء، قال لها بهدوء واهِن وكأنه يتناسى كل ما حصل ولكن ثمّت ما يُؤرِقه:

- تعرفين أني أُحبكِ أليس كذلك؟!

أومأت برأسها إيجابًا دون أن تنبس بحرف ليتابع:

- حسنًا، وأنا أيضًا أعرف أنكِ تُكِنين بقلبكِ نفس الشعور لي، قلبي لا يستطيع تَكذِيبي في هذا وأنا أصدقه فيما يخبرني به؛ لأنه عنكِ يا (بيسان) متعلق بكِ وحدكِ، أنتِ تفهمينني أليس كذلك؟!

سحبت يدها من بين يديه وأجابته هاربة بنظراتها بعيدًا عنه:

- لم أَكُن واثقة من حقيقة مشاعري تجاهك يا (مجد) ولكني فكرت كثيرًا فيما بيننا واتضح لي بعدها أني لا أ...

صرخ فيها قاطعًا حديثها قبل أن تكمل:

- كَفى، أنا لا أُصدِّق هذا الهراء

ابتعدت من أمامه مُتجِهة إلى غرفتها، وهي تجيبه بلامبالاة تتنافى تمامًا مع انهيارها:

- هذه الأرض أرضي، أخبرتُك مسبقًا أنه سيأتي يومٌ وأعود إليها لم أَعُد أتحملُ بقائي هنا أكثر، عليَّ العودة حيثُ أنتمي، أنا أريدُ رَجُلًا يشبهني رَجُلًا أشعر بالانتماء إليه، لا يوجد قواسم مشتركة بيننا حتى هذا الحبّ الذي تتحدث عنه؛ أنتَ من طرفِك تشعرُ وتُقَرِرُ بينما أنا لستُ هنا، ماذا عن شعوري ألم تفكر فيه؟!

سكتت لهنيهة آخذة نفسًا عميقًا وكأنها تستريح من كلامها الذي خرج كالسهام دفعة واحدة ثم ختمت كلامها بنبرة راكدة:

- عليكَ الذهاب الآن فقد تأخر الوقت كثيرًا.

أنهت ما قالته دالفة غرفتها مغلقة الباب خلفها كي يرحل ويتركها، إلا أنّه تَبِعها دافعًا الباب من خلفها مما جعلها تجفل محدقة إليه بنظراتٍ مُضطَرِبة مُتَخوِفة تقدم بخطواته حتى توسط الحجرة لتقع عيناه على حقيبة السفر المفتوحة فيرى الإطار الذي يضُمُّ صورته داخلها، اتجه إلى الحقيبة ممسكًا إياها ثم نظر

إليها عاتِبًا وكأنه يطلب منها بنظراته أن تبقى، خفضت بصرها ولم تجرؤ على مواصلة التطلع إليه، أعاد الإطار مرة أخرى حيث وجده ثم دنا منها وهو يضمها بقوة إليه وكأنّه لا يريد لها أن تُفارِق صدره بينما بقيت هي مُتسمِرة بين ذراعيه، خارت قِواها تدريجيًّا ولان كتفاها مودعة صلابتها منصهرة بمشاعرها بين ضلوعه، لم تستطع السيطرة على دموعها أكثر فانهالت على وجنتيها وصدره بلا صوت، كان بكاؤها يفطر قلبه يزعزع صلابته فضمها إليه أكثر ثم أخبرها وهو مغمض العينين محاولًا الاحتفاظ بها لأكبر قدر ممكن:

- لا تذهبي أرجوكِ، أنا حقًّا أحبكِ كثيرًا، أُحِبُّكِ فوق ما تظنين وما يُخيّل إليكِ، حتى أكثر مما قد يحب المرء نفسه، أشعر وكأنني أعيش أسوأ كابوس رأيته في حياتي، لا تفعلي هذا بي!

أجابته بنبرتها الباكية المتهدجة:

- سأرحلُ في الصباح، أنا آسفة.

أنهت جملتها ليبعدها عن صدره مطالعًا عينيها بيأسٍ، ثم يتراجع إلى الخلف مُديرًا ظهره لها مُتجِهًا إلى الخارج وهو يخبرها بنبرة متحطمة:

- ليتني لم ألتقِ بكِ ذات يوم!

***

عادت (ريتا) إلى منزلها برفقةِ (عزيز) لم تكن قد تعافت تمامًا، ولكنها أصبحت أفضل حالًا من يوم الحادث، ما إن دلفت حتى تذكرت الرسالة التي تركتها لابنها قبل ذهابها، قبضت على كفِّ (عزيز) بشيء من الرهبة وهي تخبره أنها تركت رسالة من أجل (بدر)، كتبت له فيها كل شيء عن ماضيه وحياته وكيف أتت به إلى هذه الضفة، لم تترك شيئًا لم تُوَضِّحه له..

جحظت عينا (عزيز) وهرع مسرعًا إلى غرفته ليجدها خاليةً، كان من المفترض أن يعود (بدر) قبلهما ليُعِد البيت من أجلِ استقبال والدته، هل من الممكن أنه وجد الرسالة وقرأها؟!

بعد أن تفقَّد (عزيز) الغرفة حَوَّل نظراته إلى الكومود باحثًا بعينيه عن الرسالة كما أخبرته زوجته عن مكانها، لكنه لم يجدها، ليستنتج أن ما يخشاه حدث بالفعل، لقد تأخر كثيرًا!

***

جلس (بدر) على أحد أرصفة السككِ الحديدية يراقب القطارات وهي تتابع جيئة وذهابًا، وجوه المسافرين مقفرة أو مسفرة، حزينة أو مسرورة، باهتة أو

لامعة، إما مفارقين أو باقين، بعضُهم هاربٌ والبعض وحيدٌ والآخر ينتظر.. أما هو فمُكتَفٍ بالمراقبة دون عِلمٍ منه إلى أي فئة ينتمي؟!

زاغَ ببصره حيث تمتد القضبان أمامه، كتفاه ثقيلتان ظهره معقوف، تُداعِبُ وجهه نسمات هواء باردة، يُغمِضُ عينيه مُستَنشِقًا هواء المحطة مزيجٌ من بكاء الأمهات، توسلُ الحبيبات، شقاء الآباء وهيام الأبناء، الحنين والفرار، الوحدة والالتئام، هواء مختلط بضخات القلوب وما هو مختبئ في طياتها..

دسَّ يده في جيبه مخرجًا الرسالة التي تركتها له (ريتا) في غرفته، عكف على قراءتها في البيت، في المصعد وفي سيارة الأجرة وأخيرًا ها هو من جديد يُعِيد فتحها، فكر لو يقرأ بصوتٍ مسموعٍ حتى يتسنى له التصديق، علَّ صوته إذا خالط بقية حواسه يُدرِك أن هذا حقيقي، وعلى كلٍ ضجيج المكان حوله يفي بالغرض حيثُ لن ينتبه أحد إليه أو إلى ما يبوح لنفسه به، بدأ يقرأ ما كتبته له:

«أُودِّعُك يا حبة القلب، كم هي قاسية علينا مقدمة كتلك، ولكن رحيلي من هنا قد آن أوانه يا بني، مرّ عمرٌ طويل وأنا أدافعُ عنك، أحاولُ تخبئتك من الحياة في ضمة صدري، في تشبُّثي بك، لكني قَط لم أتخلَّ عنك، ربيتُّك وأنا على عِلمٍ أن مثل هذه اللحظة ستأتي وأن لكَ حياةً قَبلي من حقِك أن تعرفها ثم تختار الطريق الذي يناديك..

وأنا في مثلِ عمرك ارتكبت أعظم فعلٍ في حياتي وأنقذتُك لتسكن بين يدي، ما زلتُ أذكر نظراتك المتأججة بالبراءة التي تطلعت بها إليَّ، كنتُ لا أزال في الضفة الأخرى، أسكنُ في بيت خالي -رحمه الله- مع زوجته وابنه (قدير).. استشهد والداي في سنٍ مبكر حيث لم أُدرِك وقتها رحيلهما عنِّي للأبد، ثم انتقلتُ إلى بيت خالي الذي لم يلبث طويلًا حتى لِحقَهما، وبعد وفاته بأعوامٍ وجيزة التحق (قدير) بالجيش وبقيتُ أنا ووالدته وحدنا دون من يعولنا فقَرّرَتْ زوجة خالي حينها أن تعمل حتى نتجاوز هذه الفترة، عمِلتْ فترة طويلة وخدمة (قدير) لم تنتهِ بعد وهي تتقدمُ في السن وتزادُ وَهنًا على وَهن، لذا ألححتُ كثيرًا عليها أن أعمل بدلًا منها وبالفعل استجابت قطعًا لإلحاحي المُستَمِر، فالتحقتُ بإحدى المؤسسات الخاضعة للمراقبة حيثُ لم أجدُ وقتها أيَّ عملٍ تابعًا للحُماةِ حتى التحق به، كنتُ أذهب كلَّ يوم باكرًا وأعود كذلك إلى بيتنا باكرًا حتى حدثت هجمة مباغتة بعد فترة طويلة من الهُدنة، كان الأمر في الخارج أقربُ إلى كابوس، ما جعلني أنجو وقتها هو المكان الذي تواجدتُ فيه، والذي لم يتعرض للهجماتِ بسبب خضوعه لمراقبة الغُزاة وانتشارِ جنودهم من المراقبين داخل أرجائه، كُنّا سبعَ فتياتٍ نعملُ في نفس الغرفة في الطابق الأرضي حيث نستطيع أن نرى بدقة ووضوح ما يحدث بالخارج، نشتم رائحة الدماء، رائحة البارود، النيران والانفجارات ولا تجرؤ إحدانا على

التفوه بحرف أو الاقتراب من الزجاج القابع خلف السياج لمعرفة إلى أي قدرٍ من الذبول وصلت بلادنا..

في خضم مواصلتنا العمل وتَحسُّرنا وغرقِنا في الهَمّ قُذِفت حصاة من الخارج هشمت الزجاج المُغبَر فبات المنظر أوضح مما كان عليه من قبل، لم ينتبه أحدٌ من المراقبين للصوت ولم تتحرك إحدانا أو تفارق مكانها الذي تعملُ فيه حتى اقتربت فتاة من السياج الحديدي، تلفُّ وجهها بشالٍ، عيناها رماديتان، تحملُ بين يديها طفلًا ربما لم يتجاوز عامه الثاني بعد، أخذت تُنادينا في الداخل تتوسل إلينا كي نرد، كي تأخذ إحدانا الطفل منها حتى ينتهي القصف، لم تكن خائفة من الموت بقدر خوفها على هذا الصغير، راقبتُها وأنا أخشى أن أقترب فيرانا أحد المراقبين فيعاقبنا الكُلّ ثم تُقتلُ الفتاة مع الصغير. أصيبت المسكينة باليأس ونظرت إلى الولد بين ذراعيها وهمت بأخذه لكني لم أشعر بنفسي إلا وأنا أمدُّ يدي من بين السياج إليها وأحمله منها بحذرٍ مُتجَنِبةً الزجاج المُهَشَم قدر المستطاع!

خبأتُك يومها حتى رحلتُ بكَ عائدة إلى منزلي، الفتاة التي أعطتك لي لم أكُن واثقةً من نجاتها لأنِّي رأيت أحدَ الجنود يلحقُ بها، تمنيت كثيرًا من داخلي أن تكون نجت!

انتهت خدمة (قدير) العسكرية ولكنه ترقَّى ليعمل في الجيش ويصبح فردًا من الحُماة، تَعرَّف في تلك الأثناء على (عزيز) و(يونس) كانوا من أقرب الأصدقاء وكثيرًا ما يجتمعون في بيتنا، أحدث ما فعلتُه حينما أنقذتُك بعض الجلبة في منطقتنا البعضُ كان يتهمني، وآخرون يتلمزون من أين لفتاة لم تتزوج بطفل؟! ولماذا تتمسك به إلى هذا الحد إن لم يكن ابنها؟! رفضتُ تسليمك للحماة وتوليهم مسؤوليتك الكاملة من حيث البحث عن أهلك أو نشأتك في المعسكرات، ولم أكن واثقة من نجاة هذه الفتاة، أكثر الاحتمالات لدي حتى الآن أنها استشهدت بعد أن أنقذتك من الموت، ربما هي شقيقتك لكن أتعلم لم أرَ مثلها حُبًّا لطفل وتفانيًا من أجل حمايته..

كان (قدير) و(يونس) يعاوناننني في البحث عنها، وكنتُ أنتظر بعد دوامي لأوقاتٍ طويلة عساها تكونُ نجت وعادت كي تَستَرِدك، رغم تعلقي الشديد بك تمنيتُ أن نجدها، أن تكبر مع عائلتك وإن كانت مجرد شخص!

بعد مدة ليست باليسيرة ازداد الوضع ضيقًا وبدأت زوجة خالي تنزعج من أحاديث النساء وتمتماتهن حولي، فطلبت مني أن أتزوج (قدير) إذا أردت الاحتفاظ بك، لم أكن أراه أكثر من أخي الذي كبرت معه في ذات البيت، وكنتُ واقعة وقتها في العشق أو بمعنى أدق في عشق رجل آخر وهو (عزيز) الكُلّ يعلمُ أنَّنا نُحبُّ بعضنا لكنه من أبناء الضفة الغربية، حتمًا سيعود إلى

أرضه بعد انتهاء خدمته الطبية هُنا، ترددت كثيرًا وقتها في مسار علاقتنا وماذا أفعل مع زوجة خالي؟!

طمأنني -فقط- أن (قدير) ليس ذلك الرجل الذي يقضي عمره مع امرأة لا تعشقه لا تُكِن له في قلبها شيئًا، وثقتُ فيه ووعدني أن يساعدني وألا يبعدَك عني، طلب (عزيز) مني الزواج، هل أترك أرضي وأتركك؟! هل أفارق أهلي للأبد؟! لكن لا بُدَّ أن أتزوج ذات يوم وأرحلَ من البيت، لن أتخلى عنك، لا أستطيع فأنتَ قضيتي وأنتَ ما أحاربُ حفاظًا عليه، الآن أُدرِكُ أنّي لن أجد أهلك فلماذا لا أعوِّضُك عن ذلك وأكون لكَ أُمًّا؟! كنت مشتتة هائمة بين تساؤلاتي وخوفي!

طلبتُ من (عزيز) أن نتزوج هناك حيث ولدتُ وكبرتُ وحيثُ عثرتُ عليك لكنه لم يكن بمقدوره البقاء فقد أوشكت إقامته على الانتهاء، بدأ الجميع يساندونني لأرحل من أرضي معه حتى زوجة خالي رغم حلمها أن أتزوج ابنها طلبت منّي أن أصنع حياتي هُناكَ معه؛ رُبما مع بداية جديدة يحفها الحب تتغير الحياة للأفضل، حتى اهتديت بالأخير إلى قبول عرضه مع شرط وحيد وهو أن ترحل أنتَ أيضًا معي ونعتني بكَ كأول ابنٍ لنا.. عانيت كثيرًا وعانى أهلي أكثر من تمتمات الناس حولي وعدم قبولهم فتاة تتجول بصغيرٍ بلا أب، أحببتك كثيرًا ولم أستطع تركك، تعلقت روحي بوجودك برؤيتك كَل صباح وسماع صوتك وهرولتك إليَّ..

من كان يظن أنه قد يطلع علينا نهار ويدانا أبعد من أن تتلامس؟! هذا صعبٌ للغاية عليَّ، أصعبٍ من أن يتحمله قلب أم، يطمئنني فقط أني ربيتك كي تصبح رجلًا مسؤولًا كفئًا للحملِ الذي تحملته وحدي كثيرًا في انتظار تَحيُّن الوقت الذي أراك فيه مُستَعِدًا لتشاركني به.

والدتك: ريتا.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(7)

«أسوأ ما قد يهبه المرء للغير هو الثقة، لا أحدَ يستحق ثقتك، لا أحد على الإطلاق؛ كل القريبين يعرفون أين تحديدًا يسددون الضربة التي ستقسم ظهرك، لا تجعل أحدًا بهذا القرب».

**

بعد انقطاع دام لأيام، قرر العودة إلى أوراقه التي لم يتوقف عن التفكير فيها طيلة فترة غيابه السابقة، حرك أصابعه على السطور حتى أدرك آخِر ما وصل إليه، انحنى إلى الأمام قليلًا مستندًا بذراعه إلى المكتب، وبدأ يقرأ..

«أول جريمةُ قتلٍ ارتكبتها وأول دماءٍ تشبعت روحي بهدرها، ما زلت أذكرُ أدق التفاصيل..

رجل ذو بشرة سوداء نظراته قاسية خبيثة أقرب أن يكون شيطانًا من كونه إنسانًا، لحقني بعد أن أصبته بجرح عميقٍ في عنقِه مُحاوِلًا كتم الدماء كي يصمُد لأكبرِ قدرٍ ممكن، ساعدَ على بثِّ المقاومة في صدره أن شاحنة محمَّلة بجنود جيشه تقدمت ناحيتنا فأصبحتُ في حصارٍ بينهما وطفقَ يسدد طلقاته العشوائية نحوي مُتَمنِيًا أن يظفر بي قبل أن ينالوا منِّي وعلى الرغم من يقيني بهلاكي المُحتَم إلا أنّي حاولت الحفاظ على رابطة جأشي وتذكرت وقتها أبي -رحمه الله- وهو يقول: أن تموت شامخًا خير لكَ من أن تَنكسِر لعدوك أو تُوقِع في قلبه الشماتة بك!

كانت مقولته تلك كافية لبثّ الصمود من جديد إلى قلبي فتنهدتُ تنهيدة مطمئنة، ثم رفعتُ رأسي وأنا أتطلع أمامِي بثباتٍ أراقبُ الشاحنة المتقدمة نحوي، عدد الجنود بها كثيرٌ أكثر من أن أحصِيه بمجرد النظرِ السريع، ولكن لماذا لا يطلقون هُم أيضًا عليَّ؟! شعرتُ بانقباضة في صدري وظننت أن الجندي الذي لحقني من الخلف قريبٌ مني، قريبٌ للحدِّ الذي جعلَ هؤلاءِ يراقبون دون الإقدام على قتلي!

توقفت مكاني واستدرت بحذرٍ لأجده حقًّا كما توقعتُ؛ قريبٌ للغاية بيني وبينه خطوتين وربما أضيَق، ابتسم وهو يدنو أكثر وأنا أتراجع للخلف أكثر وصوت الشاحنة يمتد بوضوحٍ أكبر.

أغمضت عيوني وأنا أنطق الشهادتين ثم استودعت الله أخي (جواد) فهو كفيلٌ برعايته وحفظه، أما أنا فقدري نهايته هنا، نظرت إلى الجندي في عينيه بثباتٍ دون أن أعبئ لسلاحه، وبعنادٍ يفوق قدرتي وكبرياء لا يتماشى مع الموقف، لأستمع بعدها إلى طلقة رصاص مُدوِية ثم لا شيء..

مرت ثانيتان وأنا في مكاني تحسست جبيني لأتأكد أني حقًّا على قيد الحياة، ما حدثَ رغم مُضي الوقت بدا كحلم بطيء لا يمكن تصديقه، تطلعتُ إلى الجندي لأجد يديه خاليتين من السلاح أُصيبَ هو بدلًا منِّي، حاول الانحناء ليأخذ سلاحه، ولكني كنت لا زلت أحمل بيدي قطعة من الزجاج، انقضضت عليه وطعنته عدة طعنات، ومع كل طعنة أرى وجه شخص أخذوه مني، مرة أرى وجه أبي ومرة أمي، مرة صغيري (جواد) وهو يصرخ، ومرة معلمي ومنزله المستعر، استمررت في طعنه وأنا أصرخ وصوت نشيجي يعلو مع صراخي حتى لم أجد أي مقاومة منه، وقبل أن أظفر بنصري رفعني جنديان من الشاحنة وحملاني من ذراعَيَّ حتى أصبحتُ بينهم.

عددٌ كبير من الجنود جميعهم يحمل سلاحًا وجميعهم يرمقني بنظرات غير مفهومة، نظرت إلى يدي الملطخة بالدم، لم أتحمل التفكير في أني قتلت إنسانًا وسقطتُ بعدها مغشيًا عليَّ».

أغمض عينيه متنهدًا وهو يرجع بظهره إلى الخلف تاركًا الأوراق غارقًا فيما قرأ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(الفصل الثاني)

بعد مرور عامين..

(1)

«لم أَعُد أعلم أهو شحوب المدينة أم الرماد في قلبي؛ كُلّ شيءٍ صارَ باهِتًا بعدك، وحده حضوركَ يُضفِي على الأشياءِ بريقها».

**

الضفة الغربية، أغسطس2019م

تغيرت العديد من التفاصيل، شعرها بات أقصر، مزيج من الأسود والرمادي، خصلات شابة وأخرى شابت من الحزن، عيناها تائهتان تبحث باستمرار عنه، لم تتخطَّ رحيله بعد، اتجهت ناحية الباب لتفتحه، وقف ساعي البريد حاملًا الطرد أجرى أسألته الروتينية ثم أخذ توقيعها لتأكيد الاستلام ورحلَ. أغلقت الباب من خلفه وسارت وهي تتفحصه من الخارج، الطرد مبعوث من (بيسان) إلى (عزيز) مرَّ وقتٌ طويل منذ أرسلت الفتاة شيئًا، سيُسَر زوجها كثيرًا.

طَرقت (ريتا) طرقتين على باب الغرفة وفتحتها، كان (عزيز) يعملُ في مكتبه لكنه ما إن رآها حتى ترك القلم من يده ورفع وجهه مواجهًا إياها بابتسامة، بادلته هي الأخرى ابتسامة دافئة، ثم مدت يدها أمامها وهي تخبره أن (بيسان) أرسلته، ليردّ عليها متحمسًا وهو يقوم مقتربًا منها:

- لِمَ لا تقومين بفتحه لنرى ما بداخله؟!

أزاحت الغطاء بلطف وجلست ليجلس بجوارها، شالٌ للضفة، زهور ياسمين مجففة، بطاقة مدوَّن عليها «اشتقتُ إليكم كثيرًا، الشال والياسمين من أجل السيدة (ريتا) أعلمُ كم تحب المكان هنا لذا اخترتُ لها أكثر شيء مميز بأرضها، كما أرسلتُ لكما بعض الصور التي التقطت حديثًا لي ستجدانها في الظرف، يوجد أيضًا مكتوب تحدثتُ كثيرًا فيه عن الأحوال في الضفة، أتمنى أن تكونا بخيرٍ، أعتذرُ لك معلمي إن تأخر الطرد في الوصول، تعرف كيف تسير الأمور عندي».

أمسكت (ريتا) بالياسمين وهي تشتم رائحته وعيناها مغمضتان بسكون تام، ثم علت وجهها ابتسامة هادئة، يعيد إليها هذا الياسمين ذكريات كثيرة، ثم فتحت عينيها ناظرة إلى الصندوق ممسكة بالشال متحسسة ملمسه، بينما أمسك (عزيز) الظرف مخرجًا الصور والمكتوب، بعضها صور (بيسان) وحدها، والبعض الآخر لأماكن من الضفة والأطفال هناك والمعسكر الطبيّ الذي تقيم فيه، مرَّر الصور إلى (ريتا) لتتأملها في البداية كانت تُقلِّبهم وهي تبتسم، تفاصيل كثيرة مبهجة أعادتها إلى عُمرٍ مَرَّ، حتى وصلت إلى صورة كانت (بيسان) تلف فيها شالًا على وجهها كعادة أبناء الضفة هناك ولا يتبين منه

سوى عينيها الرماديتين، توقفت عن تبديل الصور، اكفهر وجهها واكتسى بالوجوم، ثم ازدردت ريقها وتركت الأريكة واقفة وهي تمعن التحديق في الصورة، تبِعَها (عزيز) تاركًا مكانه هو الآخر واقفًا جوارها وهو ينظر إلى الصورة ثم ينقل عينيه منها إلى وجهها، عبس مستغربًا ردة فعلها فسألها:

- ما الأمر حبيبتي؟!

نظرت إلى عينيه بعدم استيعاب ثم إلى الصورة من جديد، وبعدها نطقت بكلمتين متفرقتين:

- إنها.. هي.

- لا أفهمكِ عزيزتي، من هي؟! أتقصدين (بيسان)!

أرخت يدها التي تحمل الصورة، ثم رفعت وجهها إليه وأجابته دفعة واحدة بهدوء راكد لا حياة فيه:

- الفتاة التي أخذتُ منها (بدر) في الماضي وأنقذته، هي (بيسان)!

أمسك يديها محاولًا تهدئتها، وهو يدور بخاطره أنها ربما تتوهم، ربما اختلط الأمر عليها فقد مَرّ وقت طويل للغاية على تلك الحادثة، حاول الإفصاح عما خالجه دون أن يكسر خاطرها أو يشعرها أنه غير مقتنع بما أخبرته، قائلًا:

- مرَّ وقت طويل حبيبتي، انظري مرة أخرى..

- أنا متأكدة يا (عزيز).

سكتت لهنيهة مفكرة ثم واصلت حديثها محاولة إثبات حقيقة ما استنتجته:

- ألم تخبرنا (بيسان) في خطاباتها السابقة، أنها قطعت وعدًا على نفسها، ولن تعود إلى هنا حتى تفي به، ما الذي يجعلها تترك حبيبها ونجاحها الذي حققته هنا إن لم يكن للسفر أهمية أكبر عندها، متأكدة أنها هي، الفتاة التي أعطتني (بدرًا) في ذاك اليوم كانت تحمل نفس الإصرار، الإصرار على إنقاذه ثم العودة إليه، يا إلهي لقد بقي الاثنان هنا لأعوام ولم يلتقيا، كيف فعلتُ هذا بهما كيف لم أنتبه من قبل إلى ملامحها، الفتاة أنقذتني من الموت يا (عزيز) ولم أتعرف عليها! كان من الممكن أن أتدارك كل شيء لو انتبهت يومها!

- اهدئي حبيبتي، أنتِ لم تفعلي شيئًا خاطئًا، لم نكن نعرف مثلهما.

- (بدر) لم يرسل أي شيء منذ رحيله، وكذلك لا نعرف عنوان (قدير) حتى نصل إليه.

سكت (عزيز) قليلًا وعيناه شاردتان، تأخر في رده عليها، ثم اتجه إلى مكتبه فاتحًا أحد الأدراج مخرجًا ألبومًا يحتوي صورًا كلها راجعة إلى (بدر) في أعمار متفاوتة، عاد به إلى (ريتا) قائلًا:

- اسمعي، سنرسل بعض هذه الصور إلى (بيسان) سنخبرها بما تفكرين فيه، من الأساس نعلم أنَّ ابننا هناك، وأنَّه بخير، سنتحدث بما نعرفه والباقي دورها، واثق أنها ستجده لو كان الأمرُ حقًّا كما نعتقد.

- لكن سيستغرق الأمر وقتًا طويلًا بسبب البريد.

- تعرفين عزيزتي أن هذه الطريقة الوحيدة للتواصل معها، لا توجد شبكات اتصالات في الضفة الشرقية، الأمر معقد بسبب الحرب.

- معكَ حق، أتستطيع التواصل مع (يونس)؟!

أغمض عينيه ملتقطًا ما تفكر فيه ثم فتحهما مجيبًا إياها:

- أعرف عنوانه، سأبعث إليه هو الآخر صورًا لـ (بيسان) وعنوان المعسكر، سأجعله يجدُ (بدرًا) بأي شكل ثم يدله عليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

«لم نكن ذات يوم مؤهلين لهذا الخراب، لكننا وعلى الرغم من حلوله لم نتخلَّ عن الجمال الكامن فينا، فمنْ يرانا يُقسِم إن حزننا جميل، وذبولنا رغم شحوبه واصفراره جميل، ومن يعرفنا يبصر النور في قلوبنا ولا يخفى على أحد تتبُّع الضَيّ في سماءٍ حالكة؛ ما زلنا رغم كل شيء محتفظين بنقاءِ أرواحنا، وربما هذا هو أعظم انتصار تلقيناه من الحياة!»

**

الضفة الشرقية، فجر أكتوبر/ 2019

«انقضى عامان ونصف العام الثالث وسبعة عشر يومًا مذ رحلتُ عنك، ما زلت أفكر فيك، أشتاق إليك ويحملني حنيني على الكتابة لكَ، آسفة للغاية، آسفة لأني حمَّلتُك كل هذا ولم أُخبِرك، لأني سمحت للحب أن ينمو بيننا مع علمي المسبق أني سأجتثه منك، آسفة لأني لم أحمِ قلبك من التفكير في كأولى خيباته وأعظمها، يؤلمني أن تراني بهذا الشكلَ لأني ببساطة لم أتخلَّ عنك بالمعنى الذي تفكر فيه، هذه ليست أنا صدقني؛ فأنا إلى الآن أحبك ولم أتخطَّ حُبَّك في يومٍ، لا أعرف إن كنت ستفهمني ولكني بذلتُ ما بوسعي لمُفاداتك من اللحاقَ بي، كان عليَّ المجيء إلى هنا وكنت مُطالَبةً بإنقاذك في ذات الوقت، لم أكن لأجازف بحياتك مقابل بقائك معي، لم أكن لأتحمل أن أفقدك أنتَ أيضًا يا (مجد)!

ربما ما سأقوله الآن يبدو قاسيًا؛ لكني أفضل أن تمضي في حياتك من دوني على أن يلحقك الأذى وأنتَ معي. لن أطلب منك مسامحتي ولا أمتلك من الجرأة ما يعينني على طلب العفو منك فأنا آلمتك وهذه هي الحقيقة الوحيدة في نهاية الأمر، ولكن كحُلمٍ بَعيدٍ أتمنى لكَ أن تغفر لي، أن تطلق سراحي من بين ضلوعك وتكمل حياتكَ سعيدًا -وإن كنتُ أتألم كثيرًا من دونك، أبحثُ في كثير من لياليَّ عنك، أردد أسمك حتى أغفو وأغط في النوم- أريدك رغم احتياجي الشديد لكَ مُعافى من أذاي فإن تحقق لك ما أردته فأعلم أنه سيخفف الكثير عني، على الأقل ليكن أحدنا بخير!

أكتب لك كثيرًا منذ مجيئي إلى هنا حتى أصبحت لا أُميِّز كم خطابًا كتبته إليك ولم أرسله، أكتبُ وأنا أتخيَّلُ أنَّك تقرأ رسائلي فأسترسل في البوح وكأنك تنصتُ إليَّ، لا زلت كعادتي أجهل كم ستمنحني الحياة من الوقت! لكن إن كان هذا هو آخر خطاب بيننا فأريدك أن تعرف أني أتفقدك من حينٍ إلى حينٍ، وأني على صلة دائمة بالدكتور (عزيز) أستقصي أخبارك منه وأعرف الكثير عنك، أشاركك نجاحاتك ومسراتك الصغيرة ولو لم أعُد معك، وأصلّي كثيرًا

من أجلك، وأدعو الله أن يبقيك بخير كي أطمئن، وأخيرًا أحبك مهما اشتدَّ البعد أو أهلكتني الحرب».

أنهت (بيسان) خطابها ثم طوته منحنية لتأخذ الصندوق الذي تحتفظ فيه ببقية خطاباتها إلى (مجد)، وقبل أن تُودِعهُ بداخله أتاها صوت (ثُريا) رفيقتها في الغرفة سائلة إياها:

- ألم تيأسي من الكتابة له؟!

تركت الخطاب جانبًا مريحة ظهرها إلى الخلف، مفكرة قليلًا قبل أن تجيبها، إلا أنّ (ثُريا) استأنفت حديثها متجهة إلى الصندوق وهي تقول:

- إن كانت هذه الرسائل لن تصل إليه، فما الفائدة من كتابتها؟!

تطلعت إليها (بيسان) وعلى شفتيها ابتسامة واهنة وأجابتها:

- إن كانت الحرب لن تتوقف عن حصد المزيد من القتلى، فما الفائدة من وجودنا هنا؟!

حركت (ثُريا) رأسها في يأسٍ، وردت:

- الأمر مختلف يا (بيسان) نحنُ هنا لننقذ ما يمكن إنقاذه.

- أنا أيضًا بحاجة لتلافي خسائري، يمكنكِ أن تقولي أنّي أكتب إليه لأنقذ ما يمكن إنقاذه مني.

- لا شيء يعوض ما تفعله الحرب!

- والحب أيضًا حرب من نوع آخر يا (ثُريا).

نكست (ثُريا) رأسها متنهدة لتستكمل حديثها مع (بيسان) لكن هذه المرة خرجت نبرتها مهيضة خالية من القوة:

- لا أفهمك، حقًّا كيف تخليت عن حب حياتك من أجل ملاحقة أملٍ واهٍ، ربما أنتِ على عِلمٍ مسبق أنّكِ لن تجدي ضالتكِ هنا!

قاطعتها (بيسان) بحسم:

- ولكني أثق بهذا الأمل!

- ليس لديَّ ما أخسره ولهذا السبب تحديدًا عمِلتُ هنا، لأنّي لم أستطع المواصلة بعد موت الرجل الذي أحببتُ، لا آبهُ كثيرًا إن كنت سأموت اليوم أو غدًا فلم يعد لحياتي معنى من دونه، أما أنتِ فهناك مَنْ ينتظركِ والأهم أنَّ

مشاعرك تجاهه صادقةٌ لم تتغير كل هذا الوقت، اسمعي أنا لا أريد لكِ أن تندمي طيلة حياتكِ، هذا كل ما في الأمر!

- ربما أسبابي ليست كافية بالنسبة لكِ يا (ثُريا) ولكني قطعتُ على نفسي وعدًا، وعليَّ أن أفي به.

ما إن أنهت جملتها حتى انطلق صوتُ صافرة الإنذار داخل المعسكر لتضع (بيسان) الصندوق أرضًا وتخبئه وهي تنظر إلى (ثُريا) قائلة:

- انتبهي إلى نفسك.

أمسكتها (ثُريا) من ذراعِها، مجيبة إياها:

- وأنتِ أيضًا من أجل (مجد)!

حدقت إليها (بيسان) ثم تركتها وخرجت مسرعة لتنضم إلى بقية أطباء المعسكر.

انطلق صوت صافرة الإنذار داخل المعسكر الطبيّ (أ) ليخرج الأطباء سريعًا مغادرين غرفَهُم متجهينٍ إلى سيارات الإسعاف التي أخذت هي الأخرى مواضعها مُصطفةً في خطٍّ مستقيم أمام البوابات، بدأ عساكر الأمن يفتحونها جميعًا على مصراعيها بينما تأهَّب الأطباء في مواضعهم مستعدين للمهمة.

يقع المعسكر في المنطقة الشمالية الجبلية مغطيًا مساحةً واسعةً ليضم على أرضه أكثر من عشرة مبانٍ موزعة بين الأطباء -على اختلاف تخصُّصاتهم- وعساكر الضفة المعروفين باسم (الحُماة) ومهمتهم هنا تأمين المعسكر وحماية الأطباء فيه..

يعاني قاطنو المعسكر جميعًا من ضغط شديد طيلة الوقت نتيجة وقوعه قُرب أكثر المناطق اكتظاظًا بالسكان وهذا يجعل الجميع في خطر دائب، اعتادوا كذلك صوت صافرة الإنذار ومجافاة مضاجعهم والاستيقاظ في أي وقتٍ من الليل هذا إن حدث وتمكنوا من النوم؛ فهم يقضون معظم الليالي خارج المعسكر وربما تمر عليهم أيام دون أن ينالوا قسطًا من الراحة حتى إنهم في بعض الأحيان يلجؤون إلى تناوُل بعض العقاقير المنبهة كي يُبقوا على تركيزهم لأطول وقتٍ ممكن؛ فالخطر قريب جدًّا والوضع أصعب من أن يجد المرء وقتًا ليفكر في نفسه أو في قسط من الراحة ينعم به!

صعدت (بيسان) مع فريقها الطبي إحدى هذه السيارات وبدأت تُملي عليهم التعليمات كما تفعل في كل مرة وإن كانت لا تعلم مسبقًا ماهية ما يقدمون عليه؟! تتابعت السيارات منحدرة إلى الأسفل سالكة طريقها إلى مكان

الهجوم، بمجرد مفارقة هؤلاء سياج المعسكر تصبح حياتهم مهددة بالخطر، فهذا ما نصَّت عليه المعاهدات منذ القدم.

«تبقى معسكرات الطرفين آمنةً لمن فيها دون التعرض لهم بأي شكل من أشكال الأذى، أما ما كان خارجًا عن هذه الحدود فلا سُلطة لأحدٍ على الآخر فيها، وأن مَن يصاب أو يفقد حياته لا دِيَة له ولا مساءلات فيه، وإن حدث ما ينافي نَص المعاهدة فلكل الطرفين حق التصرف حسبما يتراءى له».

قطعت سيارات الإسعاف في الطريق قُرابة النصف ساعة دون الوصول ولما كان الظلام مُخيمًا ولم يطلع الضوء بعد انعكست ملامح الطريق كالظلال السوداء وصار التعرُّف عليها بوضوح مطلبًا شاقًّا، وبدأ الأطباء يضيقون ذرعًا ويخالجهم القلق؛ الطريق أطول من المعتاد والوقت يمضي والوضع يزداد سوءًا كلما تأخروا، دقيقة واحدة قد تنقذ حياة شخص، أو تجعلنا نفقده للأبد!

شعرت (بيسان) بانقباضة في صدرها فأغمضت عينيها متمنية ألا تكون وجهتهم إلى المكان الذي تفكر فيه!

***

نزع السيد (يونس) خوذته الواقية وهو يجتاز الباب الرئيسي للمصنع الحربيّ التابع للضفة، قطع قرابة المائة متر سيرًا إلى الداخل حتى وصل إلى وجهته؛ مبنى قديم موصد، مكوَّنٌ من طابقٍ أرضيٍّ وحيدٍ، مسقوف بالصاج الذي لحقه الصدأ وأتلفته أشعة الشمس فأصبح باليًّا بالكاد يؤدي غرضه.

أمسك شاربه مفكرًا لهنيهة قبل أن يدلف إلى الداخل، خصمه ليس بهذه السهولة حتى يتمّ القبض عليه، يعلم أنّه أتى إليه مُتَعمِّدًا لكن ما المقابل هذه المرة؟! أخذ نفسًا عميقًا ثم زفره مشيرًا إلى أحد الجنود كي يفتح له الباب وأمره بعدها بالانصراف، دخل منفردًا متقدمًا بخطى صارمة قوية حيث يجلس أسيره مُقيدًا بأصفاد حديدية، وجهه مغطى بغطاء أسود غليظ أخفى كامل ملامحه، وساقاه مشدودتان مع أقدام الكرسي بحبل سميك جعله عاجزًا عن الحركة، أزاح (يونس) الغطاء عن رأسه بعنفٍ ليشيح بوجهه مغمضًا عينيه نتيجة اصطدام الضوء بهما بشكل فُجائي، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة جانبية تُنبِئ عن النصر.

- أخبرتُك أننا سنلتقي مرة أخرى.

قالها (بدر) ناظرًا بتحدٍ إلى عيني (يونس) الذي أجابه بنبرة واثقة:

- أنتَ هنا لأنكَ تحتاجني.

- سيكون الهجوم هذه المرة أقوى من المعتاد، قواكَ أيها القائد لن تكون كافية لصدِّه.

نزع (يونس) مسدسه وثبته في رأس (بدر) هامسًا قريبًا من أذنه:

- يمكنني إنهاء حياتك في لحظة.

- أعرف، ولكنك لن تفعل.

كانت أنفاسه منتظمة، نبرته هادئة توحي بالطمأنينة أكثر من القلق مما جعل (يونس) ينزل سلاحه متراجعًا إلى الخلف وهو يفكر مليًّا فيما يعرفه (بدر) حتى يجعله واثقًا كل هذه الثقة أنه لن يقتله، ثم سأله في محاولة لأخذ القدر الأكبر من المعلومات منه:

- ما الذي يؤكد لكَ هذا؟! أنتَ لا تساوي شيئًا بالنسبة لي.

ضحك (بدر) بسخرية محاولًا استفزازه أكثر، وأجابه:

- أُعدِم رجالك قبل ثلاثة أيام لأنهم أغبياء؛ تمَّ كشفهم بسهولة، لا أحد غيري يعرف تفاصيل العملية المقبلة

ثم سكت لثانيتين مضيفًا بعدهما:

- أنتَ تعرف ما يعنيه ذلك أيها القائد؟!

كظم (يونس) غيظه، وردَّ محاولًا تمالك نفسه:

- يعني أنّك الوحيد القادر على جلب المعلومات من جيش الغزاة ليّ.

- يعجبني ذكاءك..

- أخبرني ماذا تريد في المقابل؟!

- ماذا الذي حصل لعائلتي، أنتَ الوحيد الذي تعرف كل ما دار في الماضي.

***

المصنع الحربي/ 1995م

دفع السيد (يونس) الباب بعنف ليدلف إلى ذات المبنى الذي التقى (بدرًا) فيه، كان وقتها شابًا أشد بطشًا وأكثر قوة مما هو عليه الآن، مشى بخطواته الصارمة المعتادة متابعًا بعينيه الأطفال الذين اصطفوا في صفين عن يمينه ويساره، قُيِّدت أيديهم الناعمة الصغيرة بحبال وجُمِعتْ وراء ظهورهم كمتهمين كل جرائمهم في الحياة أنهم لم يتخلوا عن طفولتهم بعد، وقفوا منكسي الرؤوس، ثيابهم رثة، بعضها ممزق والبعض الآخر مسته نيران الحرب

فأحرقته، وجوههم مغطاة حتى لا تتحصل لديهم أي معلومات حول المكان الذي أُحضِروا إليه، تملكهم الخوف ولكنه ليس ذلك الخوف النابع عن مصائرهم المجهولة، ولا حتى الخوف من الحرب، وإنما الخوف من مواصلة الحياة بعد كل ما رأوه، كل هؤلاء لم يغدوا أطفالًا من لحظتهم وإنما صيَّرتهم الدنيا شيوخًا وعجائز كل ما يحلمون به مجرد موتٍ رحيمٍ ينتهي من بعده كل شيء!

مرَّ من بينهم جيئة وذهابًا مُتأمِلًا هيئاتهم الواهنة وأجسادهم المرتجفة النحيلة، يقف من حينٍ إلى آخر أمام أحد الأطفال ثم ينزع عن رأسه الغطاء ويرفع وجهَهُ في مقابلة وجهِهِ ويحدق إلى عينيه، بعضهم كان يبادله نفس النظرات الحادة الثابتة، والبعض الآخر لا يجرؤ على رفع عينيه أو النظر إليه.

ظنَّ هؤلاء الصغار أنهم اختطفوا من قبل الغزاة بسبب بنية الجنود الذين أحضروهم إلى هنا وثيابهم التي كانت تحمل نفس التفاصيل التي تحملها ثياب الأعداء من حيث اللون والهيئة، لم يتخيلوا أن ما حدثَ معهم مجرد خدعة خطط لها عساكر الضفة من الحماة كي يتم إنقاذهم من الموت؛ فمع كل هجوم يخرج عددٌ من الجنود متنكرين في ثياب الغزاة حتى يجمعوا الأطفال من الشوارع وينقذوهم قبل أن ينالهم أذى أو يقتلهم الأعداء، وبعدها يتحدد مصير كل منهم.

وقف (يونس) أمام إحدى الفتيات بعد أن نزع الغطاء عن وجهها، بقيت تنظر إليه بعينين ثابتتين ورأس مرفوعة، ليقترب من وجهها ويسألها:

- ألا تشعرين بالخوف أيتها الصغيرة؟!

لم يغير سؤاله من نظراتها له مما جعله يشعر بالاضطراب في داخله دون أن يُبدِه لها، ثم تحرَّك من أمامها خطوتين ليتابع بقية الأطفال، رفعت صوتها، مُنادية عليه:

- أنتَ، تمهل لحظة.

ضحك بسخرية ملتفتًا إليها، ثم واصل تقدمه لتتابع:

- أسمع أيها الجندي أنا أعلمُ كل شيء.

حدق إليها متراجعًا بخطواته حتى اقترب ثانية منها، فأضافت:

- أعرف مَن أنتم!

رفع حاجبيه ضاحكًا بسخرية من جديد بسبب جرأتها، ثم دنا قريبًا من أذنيها، قائلًا:

- أشجع، وأذكى من اللازم.

همست هي الأخرى:

- يجب أن أخرج من هنا، عليَّ استعادة أخي الصغير.

استقام واقفًا وهو ما زال ينظر إلى عينيها، ثم نادى أحد الجنود، قائلًا:

- خُذ هذه الفتاة من هنا، احتجزها في أي مكان حالما أُنهي عملي.

اقترب الجندي من الفتاة، ثم دفعها بسلاحه في كتفها لتسير أمامه، ناداه (يونس) مضيفًا:

- راقبها جيدًا، إنها فتاة ذكية!

***

بقي (يونس) شاردًا مسترجعًا ما حصل في الماضي دون أن يرد على (بدر) أو يمنحه جوابًا شافيًّا، حتى انتشله من شروده صراخ (بدر) عليه:

- أنتَ تعرف كل شيء، لا تبقَ صامتًا هكذا، أريد أن أفهم ما الذي حدث لعائلتي؟!

التفتُّ ناظرًا إليه مقهقهًا بصوت عالٍ، ثم ولاه ظهره متجهًا إلى الباب، وقبل أن يرحل توقف مكانه قائلًا بنبرة متهكمة:

- أخبرتك أنك هنا لأنكَ تحتاجني.

أنهى جملته متجاوزًا الباب إلى الخارج آمِرًا الجنود بإغلاقه وتشديد المراقبة على المكان، بينما بقي (بدر) في الداخل، يدور في عقله آخر حديث دار بينه وبين (ريتا) قبل أن يتركهم ويأتي إلى هنا، يذكر أنها أخبرته أن مَن أنقذته وأودعته معها فتاة صغيرة ربما تكون شقيقته وإن لم تكن كذلك فهي الوحيدة التي تمتلك الأجوبة عن كل شيء.

وحده (يونس) القادر على إفادته؛ فهو يمتلك سجلات الوافدين والخارجين من الضفة وكذلك لديه سجلات الوفيات وتعداد الشهداء وحالات التهجير القسري من بدء الحرب حتى يومنا هذا، (يونس) يعرف كل شيء عنها، تُرى ما الذي حصل لها، هل هي على قيد الحياة؟! وماذا عن والديه أيمكن أنهم قد نجوا في ذلك اليوم ولكنهم لم يعثروا عليه أبدًا؟! كل شيء متوقف على هذه الفتاة لو وجدها سيتغير كل شيء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(3)

«لم تُخلَق الأوقات كلها جميلة، بل الحق أن الأوقات خلقت كلها عصيبة والجمال وُجِد كاستراحة يسيرة نلقفُ فيها أنفاسنا ونستجمع ذواتنا، ثم نواجهُ من جديد باحثين عن الأملِ والشغف الذي يعيننا على المواصلة».

**

الضفة الغربية، أكتوبر/ 2019م

وقف (عزيز) على المنصة ليُلقي خطبته على الحضور بصفته عميدًا لكليةِ الطب وأكثر الشخصيات تأثيرًا في الضفة خلال السنتين الماضيتين، دار بعينيه في قاعة المؤتمرات الشاسعة متأملًا عدد الحضور الهائل، المُقسَّم ما بين أساتذةٍ جامعيين، ومعيدين، وأطباء، وطلاب من فرقٍ مختلفة وتخصصاتٍ متعددة، ابتسم ابتسامته الوقورة الهادئة ثم ألقى التحية على الجميع، وبدأ بعدها حديثه:

- فكرتُ كثيرًا قبل أن آتي إلى هنا وأقف أمامكم جميعًا في الشيء المميز الذي سأخبركم به، حتى اهتديتُ نهاية إلى قصة طريفة وواقعية فقررت أن أقصها عليكم، أسمعكم وأنتم تفكرون باندهاش، أجل كما سمعتم -مجرد قصة- فأنا لم آتِ إلى هنا لأستعرض لكم الخطوات العشر كي تصبح عميدًا لكلية الطب...

ضحك الحضور إزاء دعابته ثم واصل مردفًا:

- أُجزِم أنّي لو فعلت ستنسون هذه القواعد بمجرد خروجكم من هنا، أما ما سأخبركم به سيبقى محفورًا في ذاكرتكم ولن تنسوه أبدًا، لن أطيل عليكم وسأبدأ بالقصة مباشرة..

حدثت هذه الحكاية قديمًا قبل ما يقارب الخمسين سنة حيث كان هناك أبٌ وابنه يعيشان وحيدين بمنأى عن زحامِ العالم، عاشا سعيدين رغم خلو البيت من سيدة ترعاهما وتمدهما بالدفء؛ ماتت زوجة الرجل شابة بعد أن أنجبت له ولدًا ليحاول هو من بعدها ممارسة دور الأبِّ والأُم دون أن يُشعِر ولده بفقدان أمه أو رحيلها عنه، والحق أنه لم يفشل في بثّ الدفء والطمأنينة لروحه، أحبّ الولد أباه وتعلق للغاية به لكن لا تسير الحياة على وتيرة واحدة؛ فقد التحق والد الصبي بجيش الدفاع وعمل لفترة ليست باليسيرة كجندي من جنود الضفة وفي ذات ليلة قبل أن يغلبهما النعاس ويغطَّان في النوم أتاهُ اتصال يستدعونه فيه من العمل، أخبر الأب صغيره أنه سيعود سريعًا ولن

يتأخر عليه، ثم رحل وبقي ابنه رغم مرور الساعات مُنتَظِرًا أباه بشغف، امتدت الساعات لأيام والأيام لشهور والشهور لأعوام ولم يعُد الأب قط!

لم تنتهِ القصة هُنا كما ظننتم؛ فقد انتقل الولد للعيشِ مع جدته المُسِنة التي لم تتوقف بدورها عن حُبِّه وحكاياتها له عن الحرب التي أخذَت والده وقَسمت العالم أجمع إلى قِسمين: مُعافون، ومُستَضعَفون، قسم يعيش في سلمٍ، وآخرٌ يحلم به أو يلوحُ في خيالاته كمجردِ طيف لا وجود له حقيقة!

كانت حكايات الجدة كافيةً حتى يكره حفيدها الحرب لكنه لم يفكر أنه قد يخوضها ذات يوم، كل أحلامه منذ طفولته ارتكزت حول الأسرة، أراد أن يتزوج امرأة جميلة يحيا معها حياة سعيدة وينجبان أولادًا، لا يُهِمُ عددهم المُهِم أن يروه قُدوة تلتمع بها عيونهم وألّا يفقِدوا الأمان الذي يُجسِّده الأب، لذا عزم في قرارةِ نفسه أن يختار وظيفتُه بدقةٍ كي لا يعيشَ أولاده غصته التي أصابته في صغره!

مرَّت السنون وأصبح الصبيّ الصغير طبيبًا شابًا يُنقِذ أكبر قدرٍ من الآباءِ حتى يعودوا مُعافين إلى أبنائهم حيثُ لم يتمكن أحدٌ من تحقيق هذا الحُلم له في طفولته، لم يستطع أحدٌ مُفاداة والديه كي يعودا إليه، بمعنى أدق مارس هذه المِهنة محاولًا منع خسائِره الماضية من التسلُلِ إلى غيره من الأطفال، لكن من جديد لا تسير الحياة على وتيرة واحدة وتوفيت جدته ليُزامِن وفاتها تأجج الحرب مرة أخرى بشكلٍ مأساوي..

تَزايُد عدد الضحايا والشهداء والقتلى، وعجزٌ عامٌ في الفريق الطبي الخاص بالضفة الأخرى ليتمّ استدعاء عدد من الأطباء للخدمة هناك والمشاركة في إنقاذ ضحايا الحرب، لم يُفكِر الولد طويلًا وطلب التطوع والالتحاق بهذا الفريق الطبيّ، كانت دوافعه للسفر وقتها أنانية أكثر من كونها إنسانية، فقد دارَ في خُلْده أنه لم يبقَ له من أهله أحد، تمنى لو تأكله الحرب ويلحق هو الآخر بهم، فلا يوجد مِن بعدهم من سيشتاق إليه أو يأسف على رحيله، أما إذا انتهت خدمته وعاد سالمًا دون أن تأخذه الحرب فلأن انتصارًا عظيمًا ينتظره وسيمحو عن قلبه كل مآسيه -فقط- يدبره الله له وما هي إلّا مسألة وقتٍ ويتعافى!

أخذ نفسًا عميقًا مُشبِكًا يديه أمام صدره ناظرًا للحضور مراقبًا الفضول في أعينهم، ثم سألهم:

- أتريدون أن أكمل؟!

أجابوه بنبرة موحدة طالبين منه المتابعة ليستأنف قصته وهو يسير على المنصة:

- كما تأخذ الحرب تُعطي إلا أننا كثيرًا ما نُسيء تقدير العطايا، هذا بالضبط ما اكتشفه بطلنا في وقتٍ لاحق وبِصَرفِ النظرِ عن المُعاناة التي رآها وعاشها هناك ادّخر الله له امرأة عظيمة مسحَت عن قلبه كل الحزن وحولت مسارَ حياته كُليًّا نحو الأفضل، أجل وقع الطبيب في الحُبّ، ولم يُنقِذه سوى الحب، قد يدعو هذا للسخرية من قِبلِ البعض لكن من موقعي هذا أخبركم أن الحُبّ أصدقُ ما قد تَهِبه الحياة لشخص، وقليلون هُم من يُحالِفهم الحظ ويَعثُر عليهم الحُبّ أو يتعثروا به، كانت امرأة فاتنة بالغة الحسن من بنات الضفة المُحتَلة ومع ذلك امتلكت من الحرية ما يجعلك تظُن أن الحرب أكذوبة والبشر كلهم أحرار، غيَّرت بفِطنتِها وحنانِها نظرتُه لكُلِّ شيء، ومن هُنا وقعَ على عاتقِه عبءٌ جديدٌ، وهو إنقاذها، فقد بقي شاغِله الأكبر ألّا يسمح للحربِ أن تَسترِقها هي الأخرى منه، حاول بشتى الطرق انتشالها من هذه الأرض ولكن حال بينهما في بادئ الأمر تشبثها بانتمائها لأرضها حيثُ كان من الصعبِ عليها أن تُودِّع أهلها، زهور بلادها، ضواحيها وطرقاتها فقط من أجل الزواج منه، وفي ذات يوم حدث ما لم يتوقعه أحدٌ؛ تجاوز الأمر قُدُسِية الحُبّ إلى ما تُحتِّمه الإنسانية، أتعلمون ما الذي حدث؟!

أَنقذَت حبيبته أحدَ الأولادِ الصغار خلال واحدة من أعتى الهجمات التي تعرضت لها الضفة الشرقية، وبعد ركود الخطر وانطفاء الحرب حاولت العثور على أهلهِ لكنها لم تجِد، والحال أنها لم تيأس ولم تُفرِط أيضًا به وإنما استمرت في بحثها لوقت طويل، وتحملت الكثير من الاتهاماَت على شاكلة من أين لفتاة عزباء بطفل؟! مَن أبوه؟! ولماذا تُصِرُّ على تربيته والاعتناء به؟! ولما طال الوقت ولم يحدُث جديد سوى المزيدِ من المتاعبِ لها ولطفلِها الذي أنقذته، قررت التشبث به كأمٍ وبفطرتها الحانية خافت كثيرًا عليه فأرادت إخراجه من هذه الأرض، ورعايته والاعتناء به حتى يُصبِح شابًا، وتشيبُ وعيناها تنظرُان إليه!

لم يتوقع بطلنا أن تعودَ إليه حبيبته ولم يتوقع أكثر أن يكون شرطها الوحيد كي تقبل عرض الزواج أن يقبل هو الآخر بالطفل ابنًا له، في البداية أحبَّ بطلنا فكرة أن تكون حبيبته له ولم يُعارِضها في شيء؛ تزوجا ولبى طلبها وكَبر الولد بينهما، ولحكمة لا يعلمها إلا اللَه يشاءُ أن تمرّ السنوات بينهما دون أن يُرزقا بالذُّرية!

علمَ الطبيب أنه لن ينجب أولادًا مما جعله تدريجيًّا يُنَحِّي أبوته للصغير جانبًا ويغبطه على حبها العظيم له، بل ويشعر أحيانًا بالغيرة لأنّه لم يستطع أن يهبها ولدًا من صُلبِه ترعاه وتؤنسُ قلبها به، أساء طبيبنا كثيرًا إلى هذا الولد بجفائه، وخشي أكثر ما خشي أن يُحِبّه كأب ثم ينسلُ منه ويفقده، لم يُقدِّر العطيّة حقَّ التقدير؛ فلم يجمعه بحبيبته سوى هذا الولد الصغير ومن دون أمومتها له

ما كانت لتخشى عليه من الحرب وتأتي إليه به، ومن سوءِ تقديره أيضًا أنه لم يشكر الله الذي أخذ منه نعمة الإنجاب ووهبه قبل أن يأخذها منه طفل يَمدّ له يديه كي يصبح أبًا له، لكن إن أردتم الحقيقة كان جفاء الطبيب وقسوته نابعًا من خوفه أكثر من أي دوافع أخرى، الخوف من أن يتركهما الولد في أيِّ لحظة، ويومًا بعدَ يوم يكبرُ الولدُ بينهما وتزدادُ المشاجرات بينه وبين زوجته بسببه حتى صار شابًّا ووصل ما بين الطبيب وزوجته إلى نهايته، فكاد أن يفقدها مع ولدهما الذي لم يقبل به، ولأن الله أحبَّ طبيبنا منحه فُرصةً أخيرة حتى يُصلِح كُلّ ما أفسده بسبب سوء تقديره وخوفه، نَجَت زوجته بأعجوبةٍ من الموت وعادت له، ثم قَبِل أخيرًا من أعماق قلبه باحتضان الولد الشاب في أبوته، لكن لم يلبث أن تتشبع روحه منه حتى فقدَه وكان هذا أعظم ما خَسِره بطلنا بعد أهله، عاد الولدُ إلى أرضه ولم يتمهل ليحظى بِحُبِّ الأبّ الذي مُنِع عنه، وبقي الأبُّ من بعده ينادي بإيقاف الحرب، بانتهاز الفرص، بتقدير عطايا الإله، والأهم الرضا بما تأخذه الحياة لأنها حتمًا تخبئ لنا أفضل مما نفقده.

وصلنا إلى نهاية قصتنا لكنّي أريدُ أن أُخِبرَكم شيئًا أخيرًا؛ لا تتخلوا عن إنسانيتكم مُقابِل الحصول على أيّ شيء وظيفة أو منصب أو حتى شخص، لا تتوقفوا أبدًا عن مدِّ يدِ العون للمُستَضعفين في الأرض، ولو كان بإمكانكم تقديم شيء تعلمون مُسبَقًا أنّه سيصنع فرق فإياكم والتأخر عنه، مُهِمّتكم كأطباء إنقاذ حياة البشر وهذه من أعظم المسؤوليات التي قد تقع على كاهل المرء، لكن الأصعب من هذه المُهمة أن تحافظوا على إنسانيتكم. بالمناسبة لن تنتهي الحروب أبدًا مهما حلمنا بهذا ولكن في المقابل لن تنتهي الرحمة، ولن ينفد الخير من قلوب البشر!

أنهى قصته ليتبعها تصفيق حار من الجمهور، ثم انصرف مستأذنًا الجميع وهو يُتَمتِم بينه وبين نفسه:

- اشتقت لكَ كثيرًا يا (بدر)، أتمنى لو يصلح هذا شيئًا مما أفسدته، سامحني يا بنيّ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(4)

«نذبُل وكأننا لم نُروَ قط، نُعتِم وكأننا لم تطلُع علينا شمس»

**

أصبح دائمًا على هذه الحال يوقف القراءة ويعود فيكمل، ثم ينقطع لأيام يفكر كيف لشخصٍ أن يتحمل كل هذه المعاناة! ينتابه شعور بالظلم، يشعر بالسخط على الواقع وبالأخير يمسك بأوراقه ويقرأ وكأنه لم يعرف مسبقًا ما حدث...

«اختل توازن الشاحنة وكثرت تعثراتها، الطريق المُعبَّد الذي سرنا قبل قليل فيه وَدّعناه مُنتَقلين إلى آخرٍ وَعرٍ يعلو ويهبط مع التقدُّم فيه، كُلّ مَن بالشاحنة يتصادمون ويتدافعون إثر صعوبته.

فتحتُ عيني ببطء لألمح الجنود واقفين أسلحتهم مُرتَخِية، يراقبون فقط الطريق، ولا يلقون لي بالًا، حركتُ رأسي بهدوء وحذرٍ شديدين حتى لا يشعُر أحد منهم أنّي استفقت، لأرى الشاحنة مُحَملة بعددٍ كبيرٍ من الأطفال، بأعمارٍ مُتَفاوِتة، أغلبهم يصغرني سِنًا، وقِلّة قليلة منهم تُقاربني في السِنِّ أو تَكبُرُني بقليل، لم يكونوا أفضل حالًا مني؛ ملامحهم مهيضة عيونهم فزعة أو خاوية، جالسين باستسلام تام، رؤوسهم مُطرَقة، لا يتبادلون النظر ولا يشع من أعينهم الفضول حولَ ما يساقون للحظتهم إليه، رُبما لأن شاغلهم وقتها كان أهاليهم وما حلَّ بهم، هل سيَرَونَهم من جديدٍ أم أن الحرب فعلت فعلتها وفرَّقتهم دون إذنٍ؟!

عاودتُ النظر للجنود مُتأمِلة ملامحهم وهيئاتهم الضخمة، مُتَسائِلة بيني وبين نفسي عمّا سيفعلونه بكل هؤلاء الصغار؟! لم تكن ملامحهم قاسية أو على الأقل لم تحمل نفس قسوة الجندي الذي لحق بي وأراد قتلي، رفعت يدي ورمقتُهما بحزن شديد، وكأنّي الآن فقط تذكرتُ أني قتلتُ إنسانًا، قتلتُ وأنا في العاشرة من عمري تُرى كيف سأصبح بعد عدةِ أعوام؟! هل سأقتل المزيد لأُنقِذ نفسي، هل سأقتُل لأنّي لو لم أفعل سأُقتَل دون أن يعبأ أحدٌ لي؟! بعد أعوام لن أكون طفلة سأغدو امرأة شابة كل أحلامها حماية صغيرها (جواد) يا الله، كم أتمنى ألا تَمسّه الحرب فتأخُذهُ مِنّي اجمعني به سالِمًا يا الله..

هذه كانت من يومها أمنياتي ولم تختلف كثيرًا مع تقادم الأعوام، أخذتُ أُقلِّبُ عيني بين الوجوهِ حولي وكُلّ شاغلي هو كيف سأفِرُّ مِن هؤلاء، ولكن حتى لو تمكنتُ من الفرار فكيف سأعود إلى مدينتي وأنا التي لم تُفارِق بيتها سوى للمدرسة أو منزلِ الشيخ، لحُسنِ حظّي أنّي أحفظُ أسامي بعض المُدن

القريبة، حاولت الاستناد والوقوف وكأنّي بالكاد استفقت، وما إن وقفت ووقعت عيني على الطريق لم أجد سوى صحراء خالية تحفها جبال وجبال من كل صوب وحدب، اقترب مني أحد الجنود مُشِيرًا إليَّ بسلاحه كي أجلس جوار البقية دون أن ينبس بحرف، فجلستُ مُحدِثة نفسي: لن أستطيع الهرب، لو فعلت سأموت في هذه الصحراء دون أن أصل لأخي.

فجأةً توقفت العربة، واجتمع الجنود بأسلحتهم حولنا، ليقول أحدهم: أعطوهم الأقنعة الآن.

فغرت فاهي بذهول، إنه يتحدث العربية بطلاقة لا يتلعثم ولا يجد صعوبة في كلامه بل ينطق بسلاسة وكأنها لغته الأم، أعلم أن الغزاة لا يتكلمون لغتنا فيما بينهم ولو تكلموها فإنما هي بضع كلمات يسيرة فضلًا عن أنهم لا ينطقوها بشكل جيد، هل هو من أصل عربيٍّ، وإن كان كذلك فلمَ انضم إليَّ هؤلاء؟! رمقني جُنديٌّ آخر بنظرات حادة قاطعًا تساؤلاتي وهو يَمُدُّ لي قناعًا أسودًا، قائلًا: هيَّا، ارتدِ هذا.

أخذته منه مراقبة الأطفال وهم يرتدونه ثم فعلت مثلهم ليخفي كامل ملامحي لكني ابتسمت بشيء من الراحة فقد تأكدت من داخلي أن هؤلاء الجنود يستحيل أن يكونوا من الغزاة؛ جميعهم يتحدثون العربية ويتبادلون الكلام بسلاسة ويُسرٍ، كذلك هُم رغمَ قوَّتهم فإن ملامحهم لا تعكس كُرهًا أوغِلًا هم فقط صارِمون، رُبما لأن هذه هي طبيعة عملهم!

بدأ الجنودُ يقتربون منَّا يُقيدون أيدينا بعد تأكدهم أن عيوننا جميعًا مُغَطاة لن يُبصِر أيٌّ مِنّا طريقه أو وجهته، ثم بدأوا يُملون أوامِرهم الصارمة علينا حتى توقفت الشاحنة تمامًا، ظننتُ أن هنا نهاية طريقنا لكن بعد مدة أنصتُّ إلى صريرِ إحدى البواباتِ الحديدية الضخمة وبعدها مرت الشاحنة متجاوزة إياها ثم عاد صوت البوابة من جديد لينم عن إغلاقها مرة أخرى، سارت الشاحنة مسافة يسيرة ثم توقفت بنا ليبدأ الجنود بدفعنا بأسلحتهم وأخذنا إلى مكان آخر..

بقيت واقفة في مكاني محاولة الإنصات لكل ما أسمعه ويدور حولي حتى أصبح المكان هادئًا للغاية...»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(الفصل الثالث)

(1)

«كم كُنّا مُغفَلين عندما ظنّنا أنَّا ذوي أثرٍ لا يزول بينما نحنُ في الأصلِ مُجردَ عابرين، لاجئين في قلوبٍ لم تُرحِب بأن تكون ذات يومٍ أوطانًا لنا!»

**

المصنع الحربيّ، الواحدة بعد منتصف الليل..

مضت سويعاتٌ قليلة حتى عاد (يونس) إلى (بدر) لم تتغير خطواته الصارمة التي تُمَيِّز مجيئه أينما حَلَّ، ومع ذلك لم يُعِرهُ (بدر) أيَّ اهتمام كأنه لم يشعر بمجيئه، كأنّه لا يحمل تلك الأهمية التي يشي بها منصبه وإنّما بقي مُستَندًا بظهره إلى الكرسي مريحًا رأسه للخلف قليلًا مُحدِقًا تجاه السقف البالي فوقه، حتى أصبح القائد خلفه فرمقه باستخفاف ثم أشاح بنظره بعيدًا، دون أن يقول شيئًا.

أزال (يونس) الأصفاد عن يده ثم أمره بالانحناء وفكِّ قيود قدميه بنفسه مضيفًا بعدها بنبرة هادئة:

- لن أقتلك من أجل (عزيز)، أنا مدين لهذا الرجل بالكثير!

حملق إليه (بدر) مُندهِشًا فهو لم يتوقع أن تكون هناك علاقة رابطة بينهما، ثم تابع الإنصات له ليجده يكمل بنبرة أكثر جدية وصرامة من سابِقَتها:

- اسمع أيّها الولد، ليست لدي أيّ معلومات حولَ عائلتك، أو من هُم؟! كُلّ ما أذكره أنّي أسديتُ إلى (عزيزٍ) معروفًا حينما ساعدتهم على إخراجك مِن هنا، أما ما قبل هذا لا يُوجد أيُّ شيء بخصوصك، الأمر يفوق قُدرتي.

- أخبرتني (ريتا) أنه ثمة فتاة صغيرة ساعدتني.

- لكنها لم تجِدها في ذلك الوقت، ولهذا السبب تحديدًا رحلت بك من هُنا!

- إذًا لديكَ كُلّ ما حدث في الماضي.

- مُنذُ أخذتك السيدة (ريتا) لا أكثر ولا أقل.

زفر (بدر) بنفاد صبر، ثم سأله بحدة:

- ستساعدني، أم لا؟!

- حسنًا، هاتِ ما لديك أولًا..

ابتسم ابتسامة ظافرة، وأجابه:

- غدًا سأنتظرك في المنطقة الشمالية في تمام العاشرة، كُن هُناك واعثر لي على شيء مؤكد بخصوص هذه الفتاة، عندها سأخُبِرك بما عليك فعله لتحمي جنودك أيها القائد.

- يا لكَ من وغد.

ضحك (بدر) عاليًا، ثم ردَّ عليه بلامبالاة:

- هذه إحدى الصفات المشتركة بيننا، هيَّا أَخبِر جنودك أن يوصلوني للمنطقة الشمالية ، لقد تأخرتُ كثيرًا.

- وأين سأجدك فيها؟!

- كُن فقط هُناك، وأنا سأعثرُ عليك..

سكت لهنيهة ثم نظر له بحدة، مردفًا:

- لن أتعاون معك ما لم تُنفِذ لي ما طلبته منك، كن واثقًا من هذا.

- لا أمتلك أيّ شك حول ما تستطيع فعله.

نهض (بدر) واقفًا رابتًا على كتف (يونس) باستخفاف، خاتمًا حديثه معه وهو يقول:

- الآن سأترُكُك. فَكِر مَلِيًّا في جنودِك وشعبِكَ، واسمع أيُّها القائد لا تحاول خداعي لأنك ستندم بشدة لو فكرت في هذا صدِّقني.

أدار ظهره مُتَقدِمًا بخطواته للأمام منتظرًا مجيء جنود (يونس) الذين سيقلونه إلى المنطقة الشمالية بينما بقي الأخير يتابعه بعينيه، مُتَمتِمًا بخفوت:

- تُشبِهان بعضكما كثيرًا!

***

المُعسكَر الطِبيّ، الرابعة عصرًا..

تجاوزتْ سيارات الإسعاف البوابة الرئيسية للمعسكر، مُنذُ صعودهم السيارة ومغادرتهم المنطقة التي كانوا بها و(بيسان) واجمة لا تُحرِك ساكِنًا ولا تتفوهُ بشيءٍ، تَلُوح أمام عينيها ذكريات الماضي وتُكَبِلها بكلِّ قسوةٍ؛ إنه نفس المكان الذي فقدت والدتها فيه وهو ذاته الذي نقضت فيه عهدها وتخلت عنه، لقد كانت حقًّا هناك، حيث بدأ كل شيء وانتهت هي!

توقفت السيارة مُصطَفة خلف البقية، ليترك الأطباء أماكنهم مُتَّجِهين إلى غُرَفِهم مُحاوِلين مَحو تفاصيل هذا اليوم من ذاكرتهم، فما رَأوه فوق طاقتهم

بكثير؛ الجثث والدماء، النيران والانقاض، الفزع والاستسلام كلها أشياء أقل من الواقع الذي واجهوه جميعًا قبل قليل، هذا فضلًا عمن فقدوهم من زملائهم الأطباء.

لم تلحظ (بيسان) وصولهم وبقيت مكانها تَسترجِعُ كُلَّ ما حدث بأدقِ تفاصيله حتى الأصوات عادت كما هي، أمّها تحثها على المواصلة، صغيرها وصراخه وأخيرًا نظراته حين تركته، أما (ثريا) فما إن وطأت قدماها أرض المعسكر وهي تبحث كالمجنونة عن (بيسان) خشية أن يكون أصابها شيء، كانت تصطدم بزملائها تسألُ كل من تعرفهم عنها حتى وصلت إلى سيارة الإسعاف التي تجلس صديقتها فيها، وقفت مستندة إلى بابها وهي تلقف أنفاسها شاكرة الله أنها عادت سالمة ثم قطَبت حاجبيها في قلق وهي تتطلع إلى ملامحها الشاحبة وشفتيها الزرقاوين، صعدت سريعًا إليها ممسكة كتفيها وهي تهزهما برفق سائلة إياها:

- (بيسان) هل أنتِ بخير؟!

نظرت إليها بعينين منطفئتين خاويتين دون أن تنبس بشيءٍ، فعاودت (ثريا) سؤالها من جديد ولما لم تجد أيَّ ردة فعلٍ منها أمسكت يدها مساعدة إياها على النهوض، وأسندتها مصطحبة إياها إلى الغرفة محاولة قدر الإمكان أن تبعدها عن المكان قبل أن تلحظ صديقتها ما رأته، بدت مرتبكة بشكلٍ زائد وأطالت التحديق أمامها وكأن هناك ما تحاول إبعاده أو إخفاءه عنها أما (بيسان) فتحركت معها كالدُّمية دون إلمام بما يدور حولها؛ لم تكن تسمعها أو تدرك أين ستقودهما خطواتهما بعد، وكأنها أصبحت لا تنتمي إلى كل ما حولها، كأنها رحلت إلى مكان آخر لا يوجد به سواها هي وماضيها ومعاناتها فيه، ما إن وصلتا الغرفة حتى وجدتا رجلًا مُسِنًا يرتدي زِيًّا عسكريًا تابعًا لقوات الضفة واقفًا أمامها، لم تنتبه (بيسان) في البداية لوجوده خلافًا لـ (ثريا) التي رمقته بفضولٍ واضحٍ دون أن تقول شيئًا، اقترب الرجل منهما ناقِلًا ناظريه من (ثُريا) إلى (بيسان) ثم سألها موجهًا حديثه لها:

- هل أنتِ بخير أيتها الطبيبة؟!

تسمرت (بيسان) مكانها وجحظت عيناها، ذلك الصوت إنها تعرفه جيدًا، لا يمكن أن تُخطِئ في تمييزه مهما مَرّ، تمتمت بخفوت وهي لم تستوعب بعد:

- هذا أيضًا وهم، لا يمكن أن يكون هو!

قطع هذيانها مجيبًا إياها وهو يتقدم واقفًا بمواجهتها:

- مَرّ وقت طويل أليس كذلك؟! لكنه أنا حقًّا.

رفعت (بيسان) عينيها حتى تواجه عينيه، تأملته قليلًا ثم انفجرت ضاحكة حتى تحول صوت ضحكاتها إلى نشيجٍ مُتَهدِج، لم تستطع الصمود أكثر وفقدت ما بقي لها من قوتها وسقطت مغشيًّا عليها!

***

«خطأ صغير قد يُفسِد كل شيء، عليَّ أن أكون أكثر حذرًا يجب ألا يراني أحد هُنا».

قالها (مجد) وهو يسير خفية متلفتًا حوله، ثم نظر إلى ساعته متمتمًا:

« أمامي بضع ساعات، عليَّ إيجاد (ثُريا) قبل أن ينتهي سائق الشاحنة من إفراغ الأدوية في المخزن».

لم يكد يُنهي جملته، حتى رأى (ثُريا) أمامه وبجوارها (بيسان) لكنها ليست (بيسان) التي يعرفها وإنما أخرى ذابلة مُتداعية، أضعف من أن تحملها قدماها على المسير، أسندتها (ثريا) برفق وسارت هي بجوارها خائرة القوى عيناها مثبتتان في الأرض لا تشعر بما يجري حولها، لم يتخيل أن يراها الآن بعد مُضي هذا الوقت، أتى من أجلِ (ثُريا) لكن ما إن رأى (بيسان) حتى نَسِيَ كُلَّ شيء ولم يَعُد يُبصِر سواها، بقي متسمرًا مكانه لثوانٍ محاولًا الاستيعاب عيناه حائرتان بين الشوق والعتاب، قلبه مضطرب نبضه يتراوح بين الشدة والانعدام، لا يُميِّز كم شعورًا اختلجه وكم ذكرى عصفت به، ظلَّ يتأملها من بعيد دون أن يجرؤ على المضي خطوة في طريقها، متى أصبح عاجزًا إلى هذا الحدّ؟! خطوات يسيرة تفصله عنها لكنه أضعف من أن يتجاوزها، أبعد من أن يقترب منها أو يلامسها، لا يستطيع أن يفعل شيئًا تجاه حزنها سوى النظر إليه من بعيد بقلب ممزق ويدين خاويتين، أغمض عينيه متخيلًا أنه يضمها وهي مستندة برأسها على صدره متشبثة بأناملها في ظهره سائلة إياه ألا يبعدها ثانية عنه وهو يخبأها أكثر وأكثر بين ضلوعه حتى لا يصلها من سوء العالم شيء!

عاود فتح عينيه مستفيقًا من وَهمٍ أنها معه مواصلًا تأمُّله لها من بعيد ليلاحظ أنفاسها المثقلة البطيئة عن حدِّ الطبيعي، عبس في قلق سائلًا نفسه: «ما الذي مرت به حتى أوصلها لهذه هذه الحالة؟! هل يمكن أن تكون أصيبت في هجوم الأمس؟!»

رفع يديه إلى رأسه آخذًا نفسًا عميقًا محاولًا إسكات هذا القلق عن قلبه كي يفكر بهدوء، رؤيتها جعلته مشوشًا إلى حدٍّ لم يتصوره، ما زالت تسرق قلبه وما زال قلبه يخفق لمرورها عليه..

نظرَ إلى (ثُريا) بيأس مفكرًا فيها هي الأخرى مُحاوِلَا إقناع نفسه أن كل هذا لا يعنيه لكنه قبل أن يبتعد بعينيه عنهما ويبحث عن مكان ينتظر فيه (ثُريا) رأى بقعة كبيرة من الدماء تغطي ثياب (بيسان) البيضاء، فغر فاه في فزع ولم يشعر بنفسه إلا وهو يهرول إليها، رأته (ثريا) وهو يقترب منهما فرمقته بعينين جاحظتين؛ لقد وعدها ألا تعرف (بيسان) شيئًا حتى يتحين الوقت المناسب كما وعدته هي الأخرى أنها لن تتفوه بشيء، بدت مرتبكة بشكلٍ زائد وأطالت تحديقها إليه محاولة إيقافه ليستجيب بالأخير لها ويتراجع في منتصف الطريق مُتذَكِرًا الوعد الذي بينهما!

***

- فقدت عينيكِ بريقهما!

لم ترد (بيسان)، وإنما شردت مفكرة فيما سمعته منه، هل حقًّا انطفأ بريق عينيها، أم أن هذا الرماد منبعث من روحها.

نظر إليها القائد (يونس) منتظرًا أن تقول شيئًا لكنها لم تفعل -فقط- بادلته بنظرات واهنة مكابرة، هي بالكاد استفاقت ولكنها تفضِّل أن تبدو أمامه قوية على أن تُورث بقلبه الشماتة في ضعفها، مدَّ يده إليها ليساعدها على الجلوس، قائلًا:

- سأساعدكِ هذه المرة، ثقي بي.

استندت على يديها محاولة الجلوس بمفردها، وهي تجيبه:

- أنتَ آخر مَن قد أحتاج مساعدته.

- ما زلتِ تحظين بالجرأة ذاتها.

رمقته بنظرات حادة ليحوِّل عينيه إلى (ثُريا) ويسألها مكملًا حديثه معها بدلًا من (بيسان):

- هل ستتمكن من الخروج مع هذه الإصابة؟!

أجابته وهي تتطلع إلى صديقتها:

- إصابتها ليست بتلك الخطورة، لكن الأفضل لها أن تنال قِسطًا من الراحة.

ردّ عليها بنبرة متغطرسة قاسية:

- لقد اخطأتِ أيتها الطبيبة، الأفضل لها أن تذهب الآن معي.

رفعت (بيسان) حاجبيها، وأجابته بنبرة مرتفعة:

- لن تستطيع إجباري على الرحيل هذه المرة.

ضحك مستهزئًا، ثم انحنى إلى ذراعِها وأمسكها هامسًا قريبًا من أذنها:

- عهدتُكِ أكثر ذكاءً ما الذي أصاب عقلك؟! أخبرتُكِ أنّي أتيتُ من أجلِ مساعدتك.

أبعدت يده عنها، وقالت وهي تنظر إليه نظراتٍ متحدية:

- أشك أن شخصًا مثلك يحمل بقلبه القليل من الإنسانية ليقدم المساعدة للغير.

أغمض عينيه زافرًا بنفاد صبر، ثم فتحهما مخاطبًا إياها:

- أعتقدُ أني وجدتُ أخاكِ الذي تبحثين عنه.

قالها وترك الغرفة مغادرًا، لتنتفض (بيسان) مغادرة فراشها لاحقة به، وكأنها نسيت كل الألم الذي حلّ بجسدها، وأصبح دواؤها في العثور عليه...

أما (ثريا) فبقيت متسمرة مكانها، تتابعهما بنظراتها دون أن تفهم شيئًا، أهذا هو الوعد الذي قطعته (بيسان) على نفسها؟! هل تركت كل شيء خلفها لأن لها أخًا تبحث عنه؟! أخذت نفسًا عميقًا ثم نظرت إلى ساعتها لتتذكر (مجد) تُرى هل لا يزال ينتظر؟! خرجت من الغرفة مغلقة إياها باحثة عنه في أحد الأماكن التي يلتقيان بها، كانت تسرع في خطواتها، حتى سحبها (مجد) من ذراعِها لتلتفت إليه ويتواريا سريعًا وهو يسألها:

- قلقتُ كثيرًا، لم تأخرتِ كل هذا الوقت؟!

***

المصنع الحربي/ 1995م

بقيت (بيسان) وحيدةً مُحتجَزة في غرفة مُعتمة، مرَّ يومان كاملان وفي اليوم الثالث أتى (يونس) إليها، كانت قد أُنهِكت تمامًا؛ فهي لم تهدأ منذ أن أتى بها الجندي إلى هنا، تصرخ عليهم من حين إلى آخرٍ ليخرجوها من هذه الغرفة اللعينة وحين يجتاحها اليأس تطلب منهم مساعدتها، لثلاث ليالٍ لم تذق عيناها طعم النوم ولم يعرف قلبها السكينة، وقفت أمام (يونس) وهي تدرك أنه وإن لم يقتلها فلن يقدم لها ما تحتاج إليه، هذا العقاب الذي تلقته كان لجرأتها ماذا إن توسلت إليه؟! لم تمانع أن تفعل إن كانت النتيجة هي أن تسترجع (جوادًا) الصغير، أن تبقى هي وأخوها معًا في أي مكان وتحت أي ظرف، جرت إلى يدِّ (يونس) وأمسكتها وهي تنظر إليه بعينين متوسلتين وأخذت تحكي له ما حدث، أخبرته عن أمها التي ضحت بحياتها لتنقذهما، وأخيها الصغير الذي

أودعته مع شابة مِن العمال لكي تنقذه هي بدورها، أخذت تتوسل إليه أن يساعدها كي تسترده، كي يعيده إليها، بينما بقي هو جامدًا مكانه لا يواجه بنظراته عينيها، ثم سحب يده منها بقسوة وأخبرها بثباتٍ لا رأفة فيه:

- ستغادرين هذه الأرض خلال ساعات، عليكِ أن تستعدي، جهزت لكِ كل الأوراق المطلوبة، ستعرفين فيما بعد أنكِ محظوظة لأن قلة قليلة من الأطفال يخرجون من هنا ليحصلوا على التعليم الذي ستحصلين عليه.

سألته (بيسان) والدموع تملأ عينيها:

- وماذا عن أخي؟!

انحنى (يونس) مقتربًا منها ناظرًا لعينيها، وأجابها:

- عليكِ أن تنسي أمره، من المستحيل أن تعثري عليه من جديد.

في أثناء ذلك دلف أحدُ الجنود حاملًا طعامًا ومياهًا، ومدَّهما إلى (بيسان) كي تأكل منه، فدفعته بعيدًا ليتناثر في كل مكان، ثم ركضت مسرعة متجاوزة الباب محاولة الهرب بأي شكل، جرى (يونس) وبعض جنوده خلفها محاولين الإمساك بها، ورغم أن الأمر لم يكن سهلًا إلا أن (يونس) استطاع منعها في آخر لحظة قبل أن تقفز من أحد الأسوار.

- فتاة متهورة وعنيدة.

قالها (يونس) وهو يطوِّق خصرها بيده ممسكًا بها كي يمنعها من الهرب، أخذت تضرب على يديه بقوة وهي تصرخ:

- لن أرحل من دون أخي، أتسمع؟

اجتمع الجنود حولهما بالأسلحة إلا أن أوامر القائد كانت صارمة بخصوص عدم الإطلاق أو تعريض حياة أحد الأطفال للخطر، ورأى (يونس) أن فتاة مثل (بيسان) ستحقق شيئًا ضخمًا لو منحها فرصة السفر لمواصلة تعليمها في الضفة الأخرى، رغم أن الأمر في نهاية المطاف لن يتخلى عن كونه تهجيرًا قسريًّا بلا إرادة منها أو اختيار لمصيرها.

***

أدركت (بيسان) (يونسَ) ركضًا حتى لحقت به، لفظت أنفاسها وهي تسأله متقدمة في السير معه:

- كيف عرفت أنه أخي؟!

وقف مكانه ملتفتًا إليها، وأجاب بنبرة ثابتة:

- قلتُ لكِ أعتقد، ولم أقل إني متأكد من أنه هو، لذا أتيت إليك؛ هل تستطيعين التعرف عليه لو ألتقيتِ به؟!

خفق قلبها بشدة وبقيت تتطلع إلى عينيه لبضع ثوانٍ، ثم تنهدت وهي تومئ إليه قائلة:

- نعم بالطبع.

- حسنًا، الآن سآخذكِ لتريه، لكن لدي شروط.

قاطعته قبل أن يكمل:

- موافقة، أيًّا كان ما تريده سأفعله.

أومأ برأسه مبتسمًا ابتسامة ودودة لا تتماشى مع طبيعته القاسية، ثم أجابها:

- وأنا أعدك أن أساعدكِ حتى تجتمعا دون فراق جديد.

أنهى جملته، ناظرًا لساعته، ثم عاود حديثه إليها مضيفًا:

- علينا الذهاب الآن، سأخبركِ في الطريق بِمَا يجب عليكِ القيام به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(الفصل الرابع)

(1)

«لم تُخلَق السماء على مدِّ البصر ليوضع العصفور في القفص، لم تُخلَق الأجنحة للأَسْر وإنما للتحليق، لا حدود للسماء ولا للطيور الحالمة».

**

معسكر الغزاة، يناير/ 2020م

- هناك التقيتُ أسوأ رَجُلٍ على الإطلاق.

قالتها دون أن تُضِيف شيئًا آخر، ليحرك رأسه متفهمًا؛ نبرتها تنذرك بأنه قد طفح الكيل، لن تستطيع أن تُكمِل شيئًا بعد ما قالته، وهل هناك ما يُقال بعد؟! لقد استُنزِفت في الحديث حتى ضلت الكلمات سبيلها إلى شفتيها، نكست رأسها ليقوم واقفًا وهو يجمع أوراقه ويضعها في الملف معه، وقبل أن يرحل ويتركها، انحنى ناظرًا إلى عينيها سائلًا إياها:

- تثقين بي أليس كذلك؟!

نظرت إليه مُطولًا، ثم ابتسمت نصف ابتسامة ساخرة وأجابته:

- ليس أمامي حل آخر.

تنهد مستندًا بيده على الطاولة، ثم أتبع سؤاله بآخر، قائلًا:

- لا أستطيع أن أفهمكِ حقًّا، لمَ أخبرتني كل هذا إن كنتِ لا تثقين تمامًا بي؟!

لم تواجهه هذه المرة بعينها، وإنما تحدثت وهي تشيح بوجهها متطلعة إلى اللا شيء أمامها، قائلة:

- لأنّي قد لا أمتلك الوقت الكافي لأحكي.

أمسك وجهها وأداره إليه، لترفع عينيها ناظرة إليه بحدة، ابتسم ما إن رأى نظرتها تلك وقال:

- إياكِ أن تتخلي عن هذه النظرة، كوني قوية وتحمَّلي قليلًا بعد، سأخرجكِ من هنا.

سكت لثانيتين راجِعًا للخلفِ مُضيفًا:

- أعِدُكِ بهذا.

لم تُعقِب بكلمة، ولكن نظراتها الحادة خفتت شيئًا فشيئًا، لم يتحمل تأمل نظراتها طويلًا وترك ذقنها مرخيًا يده، ثم استقام مديرًا ظهره لها ليرحل، ما

إن فُتِح الباب، حتى جمعت (بيسان) ما بقي بداخلها وألقته إليه دفعة واحدة، كانت نبرتها مرتفعة قليلًا لكنها مفعمة بالألم خاصة وهي تقول:

- إن لم أمتلك وقتًا كافيًّا، سيقع على عاتقك إخبارهم بدلًا مني، عدني بهذا.

تسمر مكانه، ثم أومأ لها إيجابًا دون أن يجرؤ على الالتفات، لتتابع هي بخفوت:

- ذات مرة بنيت آمالًا شاهقة، وحين استيقظتُ، استيقظتُ في القاع!

***

الضفة الغربية، أكتوبر2019

رغم عودة الحياة إلى هدوئها بين (ريتا) و(عزيز) لم تَسعَد (ريتا) تمامًا ولم يُدرِك (عزيز) أنها كُلَّما تقدَّمَ بها العمر تزدادُ احتياجًا له وتعلُّقًا به ولاسيما بعد أن فقدت الجزء الأعظم الذي يشكل كينونتها الأنثوية وهو أمومتها، ولما كانت طبيعة عمله تُحتِم عليه قضاء معظم أوقاته خارج البيت أو في غرفة مكتبه مشغولًا بأداء واجبه المهني بعد أن أصبح عميدًا لكلية الطب ازداد شعورها بالوحدة وتقلصت بينهما عدد الساعات التي يقضيانها سويًّا مما دفعها للتفكير في قضيتها أكثر من ذي قبل، أما عن أحاديثهم فمعظمها قصير يدورُ أثناء تناولهما للطعام أو قُبَيل الخلودِ للنوم وغالبًا ما تتطرق إما إلى (بيسان) وحبيبها (مجد) أو إلى (بدر) الذي انقطعت أخباره منذ تركهما ورحل وبقي قلب (ريتا) من بعده مُلتَاعًا قَلِقًا لا يمسه السكون أو الأمن.

تأثرتْ إلى درجة كبيرة بالأحداث الجارية حولها وخاصة شخصية (بيسان) التي رأت في حياتها شَبهًا ضخمًا بقصتها مع فارقٍ وحيدٍ وهو اختيارات كُلٍّ منهما وما نتج عنها، فقد فضلت (ريتا) تتبع قلبها على التمسك بقضيتها وأرضها، بينما آثرت (بيسان) التشبث بحلمها وترك أمرَ الحُبِّ جانبًا، ثم عادت إلى هذه الأرض لأنها قطعت وعدًا على نفسها ووجب عليها الوفاء به.

(ريتا) تدرك أن كلتيهما خاسرة من وجه؛ فهي على الرغم من حرص (عزيز) الشديد على إسعادها -وبالأخص في الآونة الأخيرة- فقدت الكثير معه حتى وصلا لما هُما عليه الآن، لم يكُن الحُبُّ بينهما كافيًّا لِمُداوة قلبها بل احتاجت طويلًا أن يفهمها، أن يستمع منها ويدعمها، تعبا كثيرًا حتى وصلا لإحياءِ الودِّ والرحمة بينهما، أما (بيسان) فكما هو واضحٌ من رسائلها وخطاباتها إلى (عزيز) تتألم للغاية لأنها عَصَت ما أملاهُ عليها قلبها، لكنها في الآنِ ذاته لم تخسر حبَّ (مجد) -على الأقل حتى وقتنا هذا- فهو ما زال مفتونًا بها يحلمُ باليوم الذي قد تعود فيه، آمِلًا أن تعود حقًّا!

أصبحت حياة (بيسان) مُلهِمة بالنسبة إلى (ريتا) على الرغم من الغموض الشديد الذي يكتنفها في بعض جوانبها، ولكن في النهاية هذه الفتاة دفعتها دفعًا لإصلاح الكثير مما أفسدته سابقًا، فقد أعادت لها شغفها وقادتها لموازنة العديد من الأمور بينها وبين (عزيز)؛ حيثُ أسست (ريتا) مُدَونة ربحية على الإنترنت هدفها الأساسي الدفاع عن ضحايا الحروب وإمدادهم بالعون إنسانيًّا وماديًّا فضلًا عن مُطالبة السلطات المسؤولة بوضع القوانين التي تحمي حقوقهم كبشر، لَاقت مُدونَتها تلك إقبالًا عظيمًا وذَاع صَيتُها بين مُختَلفِ الفئاتِ العمرية، كما لَاقت هذه الفكرة دعمًا وتأييدًا من (عزيز) الذي بذل جُهدًا مُضاعفًا هذه المرة لمساعدة زوجته على تحقيق حلمها واستيعاب رغباتها -كأب فخور بإنجازاتِ ابنته وكُلّ أمله مزيدًا من البريق لعينيها- غيرَّت مساندته لها الكثير في قلبها ومنحها تأييده ثقة مضاعفة، وإصرارًا جليًّا على المواصلة والأهم امتِنانًا صادقًا له لأنه أخيرًا شاركها حلمها وسار معها جنبًا إلى جنبٍ ولم يتخلَّ عنها، هذا جعلها تُقدِّر الكثير؛ تَعذِرُ له انشغاله وتَحرِصُ على جعل الوقت بينهما رغم قِلّته مُحَبب إليه...

ساهمت مُدونَتها في إنقاذِ آلاف اللاجئين مما جعلها تشعر بشيءٍ من الرضا عما تقوم به، وإن كانت لم تصل بعد إلى الرضا التام بسبب نظرتها إلى أعداد الناجين والتي تحتسبها قليلة نسبيًّا، تتمنى لو بمقدورها إنقاذ العالم أجمع من تنديدات الحرب.

***

معسكر الغزاة، يناير2020م

- حينما تكون وحيدًا لن تجد الأفكار صعوبة في القضاء عليك، أعلم أنكَ هنا، أستطيع تمييز حضورك بشكل ما، أخبرني كيف حالك هل تحسنت قليلًا؟!

لم يأتِها رد فبقيت صامتة دون أن تُعقِب بحرف، فقط تركت مكانها والتجأت إلى زاوية بعيدة وجلست مستندة بظهرها على الحائط، رافعة عينيها متأملة السقف، حتى استمعت إلى صوتٍ ما، فالتفتت لتجده مرَّر لها ظرفًا عبر عقب الباب، نظرت إليه ثم قامت والتقطته بيدها وبقيت واقفة قليلًا باحثة بعينيها عنه وهي تحدِّث نفسها دون التصريح بما يخالجها «لن أستطيع أن أقترب أكثر من ذلك، رؤيتي لكَ ستشكل خطرًا عليك».

زمت شفتيها متطلعة إلى الظرف مقررة العودة إلى زاويتها النائية التي برحتها قبل دقيقتين ثم فتحته لتجد بداخله رسالة مكتوبة، أخرجتها وبدأت تمرر عينيها على الكلمات لِتقرأها:

«أنا هنا يا (بيسان) لن أبتعد لثانية عنكِ، اشتقت لكِ كثيرًا أكثر مما يخال إليكِ، أعدكِ أن ينتهي هذا الكابوس -فقط- امنحيني بعض الوقت، ما زلت أذكر كيف خاطرتِ بحياتكِ من أجلي إنها المرة الثانية يا بطلتي، كم أنا فخور بك! اسمعيني سأخرجك قريبًا من هنا لن أتركك مرة أخرى، لن أتخلى عنكِ أبدًا، والآن إن كنتِ تتساءلين عن حالي فقد أصبحتُ بفضلكِ بخير، أفضل من ذي قبل ينقصني فقط قضاء المزيد من الوقت معكِ، هناك العديد من الأشياء التي أريد أن أحكيها لكِ، سيمتلئ رأسكِ قريبًا جدًّا بصخبي، في الحقيقة سيمتلئ رأسكِ بصخبنا فالجميع بانتظارك، لذا تأهبي جيدًا لهذا الضجيج..

(بيسان) أنتِ قوية للغاية، حقًّا لم أرَ فتاة بمثل قوتكِ؛ لذا أرجوكِ تحملي للمرة الأخيرة من أجلي، أنا آسف للغاية لأنّي لا أستطيع رؤيتكِ لكني دائمًا حولكِ، لا أريدكِ أن تقلقي حيال شيء، تعرفين أني لن أسمح لأحدٍ أن يؤذيك، أراكِ قريبًا.»

كانت تقرأ رسالته وكأنها تسمع صوته وهو يخبرها بما جاءت به، وكأنها أصبحت ترى وجهه من بين كلماته، وملامحه وكيف تبدَّلت بين سطرٍ وسطرٍ، ثم ابتسمت ابتسامة دافئة وبقيت تتأملها حتى تأكدت أنها لم تَعُد بحاجة للاحتفاظ بها لتتذكر فحواها، لم تُطِل التفكير ووضعت يدها في جيبها مخرجة القداحة وأشعلتها لتلتهم نيرانها أطراف الرسالة، بقيت بين يديها وهي شاردة مع كلماتها حتى وصل اللهب إلى أناملها فافلتها لتسقط أرضًا، لم يبقَ من الرسالة سوى رمادها لكنها تجاهلته ولم تعبأ كثيرًا له، ابتسمت من جديد وهي تقول:

- أراكَ قريبًا يا عزيزي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(الفصل الخامس)

(1)

«لا تأتي الأشياء الجميلة حتى ينطفئ بداخلنا شيء»

**

المنطقة الشمالية، أكتوبر/ 2019

وقفت (بيسان) على بُعدٍ كافٍ مختبئة خلف أحد الأبنية القديمة تتطلع من فنية لأخرى حيث يقف (يونس) كان الأخير مرتبكًا يدير عينيه في كل اتجاه يروح جيئة وذهابًا ثم يقف بشكل فجائي مكررًا ما بدأه من جديد..

انفصلا في بداية دخلوهما إلى المنطقة الشمالية، فسارت متأخرة قليلًا عنه بالكاد تتمكن من رؤيته وتتبع خُطاه، حتى استوقفه ولدٌ صغيرٌ من صبية المنطقة وهمس في أذنه مخبرًا إياه بضع كلمات قليلة وانطلق راكضًا قبل أن يسمح له بسؤاله عن شيء، التفت (يونس) متابعًا الصغير الذي اختفى سريعًا بين ازدحام المشاة، ثم أدار عينيه حوله باحثًا عن مَنْ أرسل هذا الصبي إليه ولما لم تدله عيناه على أحدٍ، اتجه بنظراته إلى (بيسان) دون أن يطيل النظر لتفهم ما تُمليه عيناه، ثم تبدأ من بعدها مهمتها التالية وهي البحث عن مكان أو شيء يواريها وفي الآن ذاته يمكنها من الرؤية بوضوح كي تتعرف على الشاب فور مجيئه، وأخيرًا اهتدت إلى هذا البناء القديم فاتخذته مخبئًا لتراقب منه (يونس). نفَّذت كل شيء كما طلب رغم ثقتها المعدومة فيه؛ ففي النهاية لم تكن لتصل في حياتها إلى هذه النتيجة لولاه، لم تكن لتفقد أخاها دون تدخله المُسبَق وإبعادها قسرًا عنه، وحده يحمل إثم ما وصلت إليه..

على كُلٍّ عندما وافقت على المجيء معه إلى هنا لم تفكر في شيءٍ سوى أخيها، لم تصدقه ولم تبنِ آمالًا إثر وعوده، ولكنها فضلت المحاولة مع توخي الحذر، عساها بعد سنوات الفرقة تلتقي به، عسى أن يرحلا سويًّا، أن يبدآ حياتهما بشكل ما معًا في مكانٍ آخر بعيدًا عن الحروب والحيوات الموءودة بلا ذنب..

أغمضت عينيها وهي تبتسم متنهدة براحة مفكرة كم سيكون جميلًا إذا حصل ما تمنته! حينها لن تفلت يده مرة أخرى، ستبذل ما بوسعها من أجله، لتعوضه سنواتِ البُعدِ التي لم يكن لكليهما يدٌ فيها، وفي خضم توقُّد الأحلام في قلبها حدث ما لم تتوقعه هي ولا (يونس)..

أتى (بدر) مُتسلِلًا من خلفها وطوق خصرها بذراعٍ وحاوطها بالأخرى واضعًا كفه فوق فمها؛ حتى لا يصدر لها صوت. جحظت عيناها وانحسرت أنفاسها وظنت أن (يونس) خدعها من جديد وأنَّ كل ما حدث من بدايته لم يعدُ كونه

مكيدة مدبرة منه، بدأت تفكر كيف تهرب هذه المرة دون أن يصل إليها ويمنعها من العثور على أخيها كما فعل من قبل، تسللت أنفاس (بدر) الباردة من خلفها كانت مضطربة تشي عن توتره واختلال توازنه، ثم همس قريبًا من أذنها:

- لا تلفتي انتباه القائد، أنا لن أؤذيك فقط أريد التحدث معك.

انقبض قلبها بمجرد سماع صوته لكم يشبه صوت أبيها رحمه الله، لم تتمالك دموعها، ولم تستطع كبح ذاكرتها حين رسمت أمام عينيها صورة ذلك الرضيع الذي خبأته بين ذراعيها وفرت به من القصف، سقطت دمعة على يده فأربكته، ازدرد ريقه وأرخى قبضته متراجعًا إلى الخلف، رفعت يدها إلى وجهها محاولة أن تكفكف دموعها ثم استدارت ببطءٍ إليه وقفت أمامه تتأمل هيئته كيف أصبح شابًا وكم مرَّ بينهما مِن بُعد ومرة أخرى تعذبها ذاكرتها وتعكس أمام عينيها تلك اللحظة التي أعطته للفتاة الشابة كي تنقذه، أجهشت بالبكاء وتشبثت به وكأنها تستعيده من الماضي الذي فرقهما، لم يكن يدرك ما الذي يحدث له؛ قلبه يئن وكأنه عرف تمام المعرفة أنها شقيقته وكأن بكاءها يحترق في قلبه، لم يتوقع هذا ولكنه ضمها إليه فتشبثت به بقوة وانهارت في بكائها أكثر أخذ يمسد على شعرها ولأول مرة في حياته يبكي، كان مضطربًا ما بين شعوره بما بينهما من انتماء وما بين صموده وصلابته على حسب اعتقاده عن نفسه، مسح دموعه ووجد نفسه بلا أي دوافع يعلمها يقول لها:

- آسفٌ، أرجوكِ اهدئي!

نبرته لينة ضعيفة ونشيجها يعلو وتتشبث أكثر به، نطقت من بين دموعها:

- أنتَ حقًّا هُنا.

أغمض عينيه بقوة وهو الآخر يسأل نفسه هل هذه اللحظة حقيقية؟! لم يحظَ كلاهما بجوابٍ، ولكن مشاعرهما بددت أي شكوك تؤرقهما، تراجعت (بيسان) للخلف قليلًا وظلت تنظر إليه ثم أمسكت ذراعيه وهي تتوسل إليه بنبرة متهدجة:

- أرجوك لا تتركني مرّة أخرى.

هزت كلماتها قلبه وأخذ يحرك رأسه إيجابًا محاولًا تهدئتها، وأخذ يردد لها:

- لا تقلقي أنا هنا!

- عِدني يا (جواد).

ابتسم، لا يعرف من أين وجدت الابتسامة طريقها إلى شفتيه، ابتسامة مليئة بالتعجب والأسى وكأنه بالكاد يستوعب أنه شخص آخر عندها، غير (بدر) الذي نشأ بعيدًا عنها لا تعرفه ولا يعرفها، كرر اسمه الذي سمعه منها وهو يقول:

- (جواد) يا لهُ من اسم!

ابتسمت من بين دموعها وقالت:

- أخي (جواد).

اللحظات الصادقة تجرِّدنا من أعمارنا، وتعيدنا أطفالًا نحاكي أي شعاعٍ للأملِ كي نطمئن، ما العُمُر وما الصلابة والنضج أمام شعورٍ وحيدٍ صادق، تنهدَ متأملًا إياها ثم أجابها:

- أخوكِ (جواد) يعِدك ألا تفترقا مرَّة أخرى يا...

سكت، واغرورقت عيناها مرة أخرى، وأكملت عنه:

- (بيسان)، اسمي (بيسان).

- أَعِدُكِ يا (بيسان).

تذكر أن عليهما الاختفاء من هنا قبلٍ أن يشعر (يونس) بشيء. لم يكن بحالة جيدة للشرح لكنه أخذها من يدها قائلًا:

- علينا الذهاب الآن.

أمسكت يده وتبعته دون أن تسأله إلى أين، نظرت إلى يده وهو يحيط معصمها لتقع عيناها على الشامة في يمناه ما بين السبابة والإبهام، عبست مُقَطِبة حاجبيها ثم لاحت على شفتيها طيف ابتسامة لتجده يسرع في الخطى فتنتبه للحظتها أنهما يغادران المنطقة الشمالية، أصبح المكان من حولهما خاليًا، فأتت سيارة مُسرعة من السيارات ذات الإطارات الضخمة المنتشرة في المنطقة الجبلية ثم توقفت أمامهم، فتح لها الباب طالبًا منها أن تصعد ثم صعد من بعدها وانطلقت السيارة.

***

المعسكر الطبي، في تمام العاشرة..

وقف (مجد) في مواجهة (ثريا) كلاهما يرمق الآخر بنظرات فضولية ولا ينبس بشيء، بقيا على هذه الحالة لدقائق ثم هَمَّا بالكلام معًا لتصطدم عباراتهما في آن واحد دون أن يستوعبا شيئًا، قال (مجد) مبررًا:

- كانت تنزف لم أستطع مراقبة هذا من بعيد دون أن أفعل شيئًا!

أما (ثريا) فقالت:

- (بيسان) لديها أخ، هل لديك علم بهذا؟!

سكتا مرة أخرى وهما يتبادلان نظرات بلهاء تشي بعدم الفهم، ثم عادا يتحدثان مرة أخرى في وقت واحد، حرك (مجد) رأسه يمينًا ويسارًا وهو يجيب ببطء محاولًا ترتيب كلماته:

- لا.. لا يوجد شيء كهذا.

بينما (ثريا) تقول:

- دعنا لا نتحدث حول هذا الآن، لكن سنعود إليه حتمًا.

زفر (مجد) بنفاد صبر، وقبل أن ينطق بشيء باغتته قائلة:

- دعني أتحدث أولًا.

- حسنًا، أسمعُكِ.

أخذت تحكي له ما حدثَ منذ وصولهما للغرفة والتقائهما بذاك القائد العسكري، وصفت له بدقة حالة (بيسان) وقتها، وترددها ما بين التعب والمكابرة، ثم ختمت حديثها مخبرة إياه:

- لم أرَها هكذا من قبل، لقد انتفضت لاحقة به ما إن أخبرها أنه وجد أخاها الذي تبحث عنه.

أصغى إليها (مجد) غير مصدق، هل حقًّا تركته (بيسان) لهذا السبب؟! أخذ نفسًا عميقًا منهكًا ثم سألها:

- هل أنتِ متأكدة؟!

- هل أنتَ جاد؟! أخبرتُك ما حدث كاملًا وما زلت تسأل!

سكتا من جديد لتشيح (ثريا) بوجهها بعيدًا عنه شاردة وهي تمتم بصوت خفيض:

- أنا أيضًا لم أستوعب هذا؛ فهي لم تخبرني عن أخيها من قبل!

- (بيسان) لم تتحدث معي حول عائلتها أبدًا.

- وأنا أيضًا!

بقي الصمت من جديد بينهما، فأخرجت (ثريا) من جيبها مكتوبًا ومدته إليه وهي تخبره:

- هذا آخر خطاب كتبته إليك.

نظر إلى يديها قليلًا، ثم أخذه منها مبتسمًا ابتسامةً ودودة، لتضحك بتهكم وهي تقول:

- حمقى.

جحظت عيناه وهو يرد عليها مندهشًا:

- عفوًا، ماذا تقولين؟!

- لا شيءَ أتحدث بيني وبين نفسي. عليَّ الذهاب الآن قد تعود (بيسان) في أي وقت!

أومأ برأسه باسطًا ذراعيه، لتتجاوزه عائدة للغرفة، بينما بقي يرمقها بعدم استيعاب، محدثًا نفسه:

- لم أستغرب أبدًا أنكما صديقتان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

«كُنّا نتحدث عن الموتِ وبشاعتُه أكان علينا أن نفترق حتى نتذوق مرارة أحاديثنا»

**

المنطقة الجبلية الشرقية، بعد يومين..

توكأ السيد (قدير راشد) على عكازته صاعدًا مع ارتفاع الجبل حيث يقع وكره السري، مكان عادي قد لا يلحظه أحدٌ من المارة وإن لاحظوه فلن يفكروا في الولوج إليه؛ فمجرد رقعة غائرة بين صخور الجبل أقرب أن تكون كهفًا مهجورًا، تتفرع حولها بعض النباتات الشوكية لن تبدو مكانًا خلابًا أو ملفتًا لأي عابر يمر من هنا.

تلفت خلفه متوجسًا كي يتأكد أنَّه بعيد عن العيون ثم دخله مُختفيًا بين ظلامه، توغل إلى الداخل أكثر حتى رفع يده إلى مكان يعرفه بين الجدران والتي احتوت بفعل الطبيعة على بروز وانحناءات، ثم تحسس بأنامله حتى أمسك مصباحه، وبعدها تابَع سيره مستخدمًا المصباح ليهديه سبيله إلى أن أصبح أمام باب خشبي، تُرِك الباب مواربًا لأنه قد سبقه إليه زائران وهذه هي عادتهم حين يجتمع ثلاثتهم هنا، يأتي هو متأخرًا عنهم بينما يسبقانه نحو الأسفل تاركين الباب مواربًا والمصابيح منطفئة ليتأكد من حضورهما، دفع الباب سالِكًا طريقًا آخرًا بدءًا من السلالم التي تقوده للأسفل حيث توجد غرفة ضخمة مجهزة بعدد لا بأس به من الأسلحة وأجهزة التتبع والمراقبة، أغلب الجدران مغطاة بخرائط تدرس المناطق وحيثياتها، عملهم يحتاج كثيرًا من الدقة والسرِّية وإن كُشِف أحدهم أو شُكَّ في أمره لن يرحموا الاثنين الآخرين وسيلقى ثلاثتهم حتفهم، لهذا السبب يعملون بحذر وتركيز شديدين.

وقفا بانتظاره أمام إحدى هذه الخرائط المتدلية من أعلى الجدار حتى منتصفه، لم يبدآ حديثًا أو يفكرا في إثارته رغم علمهما بالجديد الذي سيقدمون عليه، منتظرين السيد (قدير) فهو الأكثر خبرة بينهم والأقدر على توقع حركات الجيش، ودراسة مخططاتهم لأنه كان مسبقًا فردًا منهم، قبل أن يتقاعد ويتنحى لعمله الجديد مع هذين الصديقين الشابين...

***

(بدر) و(كمال) مجندان في جيش الغزاة، جذورهما عربية بل هما في الأصل من أبناء الضفة والأجدر لشابين مثلهما يتمتعان بالبنية القوية والذكاء والصلابة أن يلتحقا بجنود أرضهما من الحماة، ولكن لسبب ما لم يكن لكليهما مكان

في صفوف الجيش الحامي الخاص بالضفة الشرقية، وقف (قدير) قِبلَهم مُلقيًّا التحية ثم تقدم حتى أصبح بينهم فاستووا ثلاثتهم أمام الخريطة الخاصة بالمنطقة الشمالية..

التفت الشابان إلى زعيمهما، ليتذكر كلٌّ منهما قصته معه، وعلى وجه الدقة هذا يحدث في كل مرة يجتمعان فيها به..

(كمال) شاب في الثامنة والعشرين من عمره، قبل عشر سنوات فقط كان جنديًا تابعًا للحماة، فردًا منهم، يشاركهم هجماتهم، هزائمهم وانتصاراتهم، حتى تم فصله من الجيش بتهمة مُلَفَقة لم يرتكبها ولا يد له في حدوثها، لا تُهم تفاصيل تلك الحادثة كثيرًا بقدر ما لاقاه بعدها؛ حيث تعرَّض لعدة محاولات متتابعة لقتله فضلًا عن تخلي الجميع عنه، أهله، رفاقه، الكُلّ صدَق ما لُفِق له وبات بينهما منبوذًا موصومًا بالعار والخزي، عدا حبيبته هي الوحيدة التي صدقته، لم تعبأ لما يُقال ولما فعله حاولت كثيرًا من أجله، ولم تحلم بشيءٍ سوى أن يُكمِلا حياتهما معًا لكن لم يُفلِح الأمر معه، كان عليه أن يبتعد عنها بأي شكل لم يشأ أن يؤذيها أراد فقط إسعادها وفشل بعد أن خسر كل شيء.

رحل دون وداع رحيل قاسٍ للغاية حيث اختفى تمامًا بعد أحد الهجمات، الحق أنه أصيب وأنجده (قدير) تعارفا وحكا له قصته وأنه ترك كل شيء خلفه لذا مدَّ له يديه، لم تكن الثقة بينهما وقتها مثل ما هي عليه الآن لكن (قدير) لم يُقصِر في شيء لولاه لكان ميتًا بالفعل كما يعتقد الجميع!

أما عن التحاقه بالجيش الغازي فهذه قصة أخرى طويلة، ربما لم يتحين ذِكرها بعد، المهم في الأمر أنّ ثلاثتهم يعملون معًا لمصلحة الضفة الشرقية فلا يقتلون شعبهم ولا يلوثون أيديهم بدماء الأبرياء...

***

أدار (قدير) دفة الحوار، سائلًا:

- ماذا فعلتم؟!

ردّ (كمال):

- كما توقعتَ يا سيدي، (يونس) كان على علمٍ بكل شيء حتى إنه ذهب بالفتاة إلى المنطقة الشمالية، استمررتُ في مراقبتهما دون أن يشعرا حتى تفرقا، وأتى دور (بدر).

نظر إليه (قدير) ليكمل (بدر):

- إنها هي، لكن أريد أن أسألك شيئًا؛ كيف تستطيع قراءة ما يفكر فيه القائد (يونس).

ضحك (قدير) بشدة ثم أخبره:

- كُنا أصدقاء ذات يوم!

جحظت عينا كُلٍّ من (بدر) و(كمال) وتبادلا نظرات الدهشة وعدم التصديق ليربت (قدير) على ظهريهما قائلًا بمُزاح:

- كُفا عن التحديق هكذا أيها الأبلهان، كنت أمزح معكما فقط.

بادلاه الضحك ليتابع موجهًا حديثه إلى (بدر):

- كيف تشعر؟!

تنهد واقفًا في مواجهته ثم أجابه:

- كنا قريبين للغاية ولم نلتقِ قط.

تدخل (كمال) في الحديث مستفهمًا بذهول:

- كيف؟!

- أنا أيضًا لا أصدق لكنه حقيقي، لقد كنا طوال هذه السنوات قريبين للغاية ولكننا لم نجتمع أبدًا، حتى إننا تحدثنا ذات مرة عبر الهاتف وكلانا لم نعرف أننا إخوة..

قالها ثم ضحك متهكمًا وأردف بعدها:

- مثل الخرافة، طوال هذه السنوات و(بيسان) طالبة لدى (عزيز) الذي عشتُ عمري في بيته، والذي لم يكف عن التحدث عنها والافتخار بها، حتى إنني في بعض الأحيان كنت أغار من حبه لها.

سكت لهنيهة آخذًا نفسه ليكمل:

- قبل أن آتي إلى هنا تعرضت أمي (ريتا) لحادث، خرجت من البيت تاركة كل شيء خلفها حتى أنا، أحزنها (عزيز) كثيرًا بسببي، أتعرفون من أنقذ أمي من الحادث؟!

نظر الاثنان له بتساؤل ليقول:

- إنها (بيسان) شقيقتي، أذكرُ أنها اتصلت بي في ذلك اليوم وأخبرتني بما حدث لوالدتي ثم طمأنتني أنها ستكون بخير، فيما بعد أخبرتني أمي كثيرًا عن هذه الفتاة التي ظهرت كمعجزة لتنقذها من الموت.

سكت قليلًا قاطعًا المكان ذهابًا وإيابًا ممسكًا رأسه بكلتا يديه، بينما كان (قدير) في عالمٍ آخرٍ حيث توجد حبيبته (ريتا) التي ذهبت خلف رجلٍ غيره ومع ذلك لم يجرؤ قلبه على الشعور بشيء تجاه غيرها، وحدها ملكت قلبه ورحلت به، بقي كل هذه السنوات يغذي روحه على أنقاض شيء جميل كان يملكه ذات يوم ثم انفلت منه، لو كانت معه لما أحزنها قَطّ مثلما فعل (عزيز)، كيف له حقًّا أن يمد لها الأذى بينما تكن له كل هذا الحُب، ترى أما زال يحزنها، ألم تعد سعيدة معه؟! انتشله من أفكاره تلك صوت (بدر) الذي وقف متابعًا ما بدأه بنبرة مكسوة بالحيرة والضياع في آنٍ:

- تشبه الملاك، منه أشعر بالانتماء إليها، ومنه يتملكني شعور بالخوف كأني مجرد غريب عابر ستجمعنا عدة لقاءات ثم سنغترب من جديد، منه أصدق أني وجدتها وأننا أصبحنا معًا، ومنه أعود وأشعر أني في حُلم قد أصحو منه في أي وقت! بدا واضحًا للغاية كم أنها انتظرتني، انتظرت رجوعي إليها، لكن ماذا عن كل هذه السنوات التي مرت بيننا دون أن نعرف عن بعضنا شيء؟! هل نستطيع أن نعود بكل بساطة معًا متجاهلين هذه السنوات، هل سيذوب هذا الجليد الناتج عن البُعد؟!

ربت (قدير) على كتفه قائلًا:

- إنها شقيقتك يا بني، اتبع قلبك لا داعي لكل هذا الضجيج.

كان (كمال) يراقبهما يرى كيف تتبدل حالتهما، الحزن استقر في مقلهم والشرود حل محل الكلام، تذكر أنهم اجتمعوا هنا استعدادًا للهجمة التالية، تنحنح طارحًا عليهم سؤالًا في غاية الأهمية:

- كيف سنمد (يونس) بالمعلومات دون أن يذهب (بدر) إليه!

أجابه (قدير):

- أنا سأذهب إليه.

نظر الاثنان له وقالا في وقتٍ واحدٍ:

- ماذا؟!

- سأذهب أنا، ما الغريب في هذا؟!

زم (كمال) شفتيه رافعًا حاجبيه، ولم يعقب بشيء، بينما بقي (بدر) شاردًا مع (بيسان) ما زال يسترجع كيف سار الأمر بينهما!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(3)

«أي عذابٍ قد يعيشه المرء أقسى من الخوف؟! حسنًا، على كلِّ الأحوال لن نخسرَ أكثرَ مما فقدناه».

**

معسكر الغزاة قبل ساعات من الهجوم..

جلس (دانيال خوسيه) القائد الأعلى لجيش الغُزاة إلى مكتبه حيثُ توجد إضاءة خافتة بالكاد تُمكِّن عينيه من تمييز ما يُغَطيه الظلام، لا صوت حوله لأي شيء سوى عقارب الساعة التي ظلَّ يراقبها ساكِنًا تتحرك حدقتا عينيه مع تتابع عقاربها أما باقي جسده فجامدٌ تمامًا دون حراك..

طُرِقَ باب مكتبه طرقتين متتابعتين فنقل عينيه من الساعة المستديرة أمامه إلى الباب نظرات ثاقبة تبعث في النفس التوتر، تحرك المقبض ببطء ليدلف أحد جنوده محدثًا إياه بتلعثم لا يتناسب مع الحربِ التي يوشكون على خوضها، أعلمه أن كل شيء جاهز كما أمرهم ثم انصرف مسرعًا حتى لا يعكر عليه خلوته، تأمل الباب المُغلق وعلت شفتيه ابتسامة جانبية خبيثة ثم قام واقفًا متأملًا الخريطة المبسوطة على مكتبه، عددٌ من بيادق الشطرنج مبعثرة فوقها انحنى إليها مجيلًا ناظريه في المدن مفكرًا مليًا قبل أن يحرك قطعة من هذه القطع ويحصي لنفسه تقدمًا، وها هو يضع البيدق فوق أولى المدن التي سيبدأ بها.

طرق الباب من جديد فاستقام واقفًا ملتفتًا منتظرًا دلوف جنديه الأقرب إليه، دلف (بدر) مؤديًّا التحية العسكرية ثم وقف في مواجهة قائده، وقعت عيناه على الخريطة، نظرته سريعة لا تكاد تُلحظ، سأله قائده وقد التفت من جديد ليكمل تحريك بيادق الشطرنج:

- أين تختفي كل هذا الوقت؟!

التقط (بدر) ما يرمي إليه ذلك الخبيث، لكنه ادعى جهله بما يحيكه، فأجابه مطالعًا عينيه بثبات:

- أتجول في المنطقة، عليَّ تفقد المكان جيدًا حتى لا يحدث شيء لا نتوقعه!

- لن أسمح أن يحدث شيء لا نتوقعه.

قالها رابتًا على كتف (بدر) ليبتسم ابتسامة جانبية ثم يجيبه:

- كما أنت دائمًا سيدي، والآن اسمح لي!

بسط (خوسيه) كفه سامحًا له بالذهاب، وقبل أن يتجاوز الباب استوقفه مناديًا:

- (بدر)!

استدار إليه ليتابع الأول:

- كن حذرًا.

ابتسم إليه ابتسامة ضيقة وهو بالكاد يحرِّك رأسه بإيماءة خفيفة وبعدها انصرف. تدرب (بدر) كثيرًا حتى يستطيع التحدث بلكنتهم دون أن يُظهِر فَرقًا، وتدرب أكثر كي يفكر بطريقتهم؛ فيتكهن بما يريدون فعله وما سيقدمون عليه.

خرج قاطعًا الممر ما بين مكتب (خوسيه) والطريق المُوصِل إلى غرفِ الجنود، يلتفت بين فينة والأخرى إلى باب المكتب الذي خرج قبل ثوانٍ منه، شرد عقله قليلًا وهو يفكر ثم توقف فجأة عن السير وكأنه التقط شيئًا مهمًا أغفله، أمسك رأسه محدقًا للأرضية مسترجعًا ذلك الحديث الذي دار بينهما، الخريطة والبيادق، السيد (قدير) ومن بعده (يونس)، شعب الضفة، النساء والأطفال، حدَّث نفسه مزمجرًا: «(خوسيه) الخبيث كيف يغير خطته قبل الهجوم ببضعة ساعات».

أنصت بعدها إلى صوت خطواتٍ قادمة تجاه الممر اختلس النظر ليلمح (رحوم) ذلك الجندي الذي يكن له من الضغينة ما يحمله على فعلِ أي شيء ليتخلص منه، أو بمعنى أدق ليحلّ محله في قربه من (خوسيه).. طوال الوقت يحاول أن يوقعه في شباكه، يضع عينيه على جميع تصرفاته، يتمنى أن يمسك بشيءٍ يشي به لقائده فيتخلص به فورًا من (بدر).

كان (رحوم) مُطرَق الرأس لم ينتبه بعد لوجود (بدر) لذا انتهز الأخير هذه الفرصة محاولًا التخفي من أمامه حتى يصل إلى المكتب الذي يتوجَّه إليه ومن ثم يسترق السمع ليرى ما يحيكانه من خلفه..

انتظر (بدر) مروره حتى استمع إلى صوت الباب يصطك لينم عن انغلاقه، سار بخطوات خفيفة متوجسًا حتى أدرك حديثهما وهو لا يزال في أوله:

- أنا لا أخطئ في ثقتي، ولكن إذا كان الأمر كما تقول فسيلقانا الجيش الحامي في هذه المدينة، أمامه وقت لينقل لهم هذا التغير، إن كان كما تقول سأتخلصُ منه بيدي..

قالها (خوسيه) موجهًا حديثه إلى (رحوم) الذي أجابه بنبرة مغلولة لا تخلو من التشفي:

- سنرى..

هنا أدرك (بدر) أن عليه الإسراع في المغادرة قبل أن يطرد القائد ذاك الغبي (رحوم) على كلٍ أصبح الآن يعرف ما عليه فعله، فكّر مليًا مُديرًا هذا الحديث في رأسه «إذًا اصطنع (خوسيه) تغيير الخطة ليوقع بجيش الحماة وبي، إن كان قد أفسح مجالًا لذاك المدعو (رحوم) ليتجسس عليَّ، فيجب أن أتوخى الحذر أكثر». ثم راوده شعور ما أنه من الأفضل أن تتواجد القوات الحامية في كلتا المدينتين، فعاود حديثه مع نفسه سائلًا: «ماذا إن غيّر (خوسيه) خطته حقًّا وهذا ليس مجرد طعم ليوقع بي؟! على كُلٍّ أعرف كيف أتصرف، عليَّ أن أجد (بيسان) قبل الهجوم».

***

على جانبٍ آخر كان (يونس) يشتعلُ غيظًا فقد أدرك أن (بدرًا) رمى له طُعمًا وأصبح مستقرًا في حلقه ولم يستسغه بعد ليبتلعه، تأكد من تلك الخديعة عندما لم يجد (بيسان) أيضًا في المنطقة الشمالية، كيف لم يفكر باحتمال كهذا؟! سلّم له الفتاة براحة بينما تركه هكذا دون أن يمده بأيّةِ معلوماتٍ حول الهجمة الآتية كما وعده، لا يريد المجازفة بجنوده وشعبه عليه أن يفعل شيئًا، وفي خضم انشغاله بأفكاره تلك اجتذبت أذنيه ضجة ليخرج من مكتبه غاضبًا كي يرى ما الذي يحدث؟! الجنود ملتفون حول عجوزٍ واهنٍ تختلط أصواتهم للحدِّ الذي يجعله لا يميز ما يقولون، اقترب أكثر وقد صرخ عليهم حتى يبتعدوا عنه فيرى ماذا به؟!

وقعت عيناه على (قدير) مال برأسه قليلًا محملقًا إليه وهو لا يصدق رؤيته أمامه بعد كل هذه السنوات، مرّ وقتٌ طويل دون أن يعرف شيئًا عنه، مشى إليه مُرحِبًّا به وتعانقا وكلاهما يربتُ على ظهر الآخر والجنود حولهما يتبادلان نظراتٍ بلهاء، أخذه (يونس) إلى مكتبه وجلسا معًا بادر (قدير) بالحديث دون انتظار مقدمات لا طائل منها في هذا الوقت المحدود أمامهم، مدّ له بورقة وهو يقول:

- (بدر) ترك لك هذه.

أخذها منه وهو يحملق إليه بدهشة غير مستوعب فتابع (قدير):

- لا وقت لهذا، علينا التصرف.

فتح الورقة ليعرف تفاصيل الهجوم الذي بقي عليه بضع ساعات، ثم أحرقها بعد انتهائه متخلصًا منها، قطع جلستهما طَرقُ الباب ومن ثم دلوف أحد جنوده بطردٍ سلَّمهُ له وانصرف، وقف (يونس) كي ينظر إليه قلّبه بين يديه ثم التفت إلى (قدير) وهو يرمقه بعينين متسعتين، قائلًا:

- إنه من (عزيز).

نهض (قدير) واقفًا وكلاهما يتبادل نظرات الفضول الممزوجة بعدم الفهم، ثم ردَّ عليه:

- افتحه لنرى.

أومأ إليه وبدأ في فتحه، ظرفٌ به بعض الصور مرفق معها رسالة مكتوبة قرأها مسرعًا ثم نظر إلى (قدير) بعينين ضيقتين وكأنه يفكر في شيء ثم أخبره قائلًا:

- سأطلب منك أن تفعل شيئًا من أجلي.

نظر إليه بتساؤل ليتابع:

- تولَّ الأمر هنا حالما أعود، أعِدُك أن آتي قبل الهجوم، جنودي بأمانتك يا (قدير).

قالها تاركًا مكتبه، طالبًا من جنوده اتباع أوامره، لم يمهله حتى وقتًا ليجيب وصعد سيارته مغادرًا إلى (بيسان)، أراد أن يبذل كل ما في وسعه ليصلح ما أفسده في الماضي وإن فعله دون قصد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(4)

«أذبُل ولا أتساقط، أُدرِكُ أنّي عالقة على غُصني، أُدرِكُ أن الغصن ناءَ بالحِمل، ولكنه يُكابِر بالاعتراف، يُبقيني لبعض الوقت على أمَلِ أن أهوى وحدي، أذبُل ولا أتساقط وأحيى مع إدراك أن ما بيني وما بين الغصنِ انتهى».

**

المعسكر الطبيّ..

جلست (بيسان) إلى سريرها سارحة بأفكارها بعيدًا مع (جواد)، أراحت ظهرها للخلف مُتَنَهِدة وهي تُغمِض عينيها، أكوامٌ من التساؤلات تأتي وتذهب ثم يجيء غيرها، من بين كل شيء مرت به لاح في ذاكرتها ذلك اليوم تحديدًا حينما قررت ترك كل شيء خلفها والمجيء إلى هُنا مرةً أخرى للبحث عنه، أما كان عليها أن تأتي لأنه طيلة الوقت كان هُناك، هل هو ذاك الشاب في المشفى الذي لحقت به ولم تدركه، التوقيع، الأوراق المبعثرة، الشامة في يمناه، قامته وطريقته في السير... ضمت جفونها أكثر ليرتسم ما حدث من جديد أمام عينيها.

لم تكن بخير تمامًا...

شعرت وهي تسير بطنين في رأسها فأغمضت عينيها مغطية إياهما بكفها، لتصطدم دون قصد بعابر مرَّ جوارها، أزاحت يدها إلى الأعلى وهي تفتح عينيها لترى أوراقًا طبية مبعثرة؛ بعض الإشاعات والتحاليل وما إلى ذلك، استنتجت فور رؤيتها أنها من تسببت في هذه الفوضى، فانحنت لتجمعهم سريعًا معه ثم مدت إليه الأوراق معتذرة دون أن تنظر إليه، أخذها الآخر منها على عجلة ومضى دون رد، عكست ردود أفعاله السريعة حركات يديه وهو يجمع الأوراق وطريقة تلقيه البقية منها مدى انزعاجه من الموقف مما جعلها تشعر بالحرج الشديد، استقامت واقفة لتكمل طريقها بعد رحيله وهي لا زالت تفكر فيما تسببت به ثم توقفت فجأة ملتفتة إليه وكأنها بالكاد انتبهت إلى الشامة في يمناه ما بين السبابة والإبهام، نظرت إلى يديه مدققة النظر ثم لحقت به وهي تسرع في الخطى لكنه سبقها بضع خطوات وبمجرد وصوله إلى المصعد فقدته، ولم تحاول من جديد..

لم تتمكن حينها من رؤية وجهه لتتعرف عليه فقط رأت ظهره من الخلف وعرفت من قامته ومشيه أنه شاب في مقتبل العمر.

فتحت عينيها معتدلة في جلستها، تتنفس بسرعة وكأنها عاشت طوال حياتها في سباق للعدو وبالكاد توقفت لتلفظ أنفاسها، منذ عودتها و(ثريا) تراقبها،

تحاول اجتذاب أي طرفٍ للحديث معها كي تفهم منها ما حدث وتَطمئِن عليها بينما (بيسان) صامتة لا تقول شيئًا، كل شيء مَر سريعًا بحيث لم تستوعبه كلتاهما، لما رأتها تتنفس سريعًا وتنتفض لاهثة بهذا الشكل هرعت إليها والقلق يعصف بها، مسدت بيدها على ظهرها.

- (بيسان) هل أنتِ بخير؟!

قالتها بقلقٍ بادٍ لترفع (بيسان) ناظريها بوهنٍ وتومئ دون أن تنبس بحرف، اقتربت منها وهي تمد لها كأسًا من الماء لتشرب منه، تناولته من يدها بأناملٍ مرتجفة وكأنها لا تقوى على حملِ الكأس جلست (ثريا) أمامها وهي تمسكُ بيدها، ثم سألتها قائلة:

- أنتِ لم تتحدثي معي منذ عودتكِ، ألن تقولي أي شيء؟!

رمقتها بنظراتٍ مطولة لا يتبين إن كانت تحمل حديثًا مكبوتًا، أم وجعًا يفوق البوح، استطردت (ثريا):

- أنتِ حقًّا لديكِ أخ؟!

أومأت (بيسان) إيجابًا وارتسمت على شفتيها ابتسامة، وأجابتها:

- اسمه (جواد).

قالتها شاردة قليلًا مع بسمتها تلك ثم استأنفت:

- من الأساس أتيتُ إلى هُنا من أجله.

- لم أفهم؟!

بدأت (بيسان) تشرح لها كل شيء، تحكي كيف تفرقا في الماضي وكيف تم تهجيرها قسرًا عن هذه الأرض، ومجيئها من جديد إلى هنا، وأخيرًا عثورها عليه. تأثرت (ثريا) كثيرًا بما سمعته حد أنها لم تتمالك نفسها وبكت كثيرًا مع حديثها، انتهت (بيسان) لتضمها رفيقتها وهي تقول من بين دموعها:

- كم هو جميل عثورِكِ عليه.

أومأت (بيسان) وهي تبتسم ثم ردت:

- ولكني أشعر بالخوف، قلقة كثيرًا يا (ثريا)، لا أكُفُّ عن التفكير في تقبُّله لظهوري في حياته بعد كل هذه السنوات، هل سيتمكن من حُبّي كما أكنُّ له من الحُب؟! أُفكِر كيف يشعُر حيال أن له أُخت؟! هل يجعله هذا سعيدًا أم أن الأمر لا يحمل ذات الأهمية بالنسبة له؟!

- ومن لا يستطيع أن يحبك يا (بيسان) لا تفكري كثيرًا، تصرفي كما يملي عليكِ قلبكِ، كوني سعيدة لأنكِ عثرتِ عليه بعد كل هذه السنوات، لا تتخلي عنه أبدًا.

سكتت لهنيهة ثم استأنفت وهي تسألها:

- أهذا هو وعدكِ الذي قطعتِه؟!

- أودعته أمي -رحمها الله- في أمانتي، وأنا أودعته في أمانة الله حتى يعود إليَّ، أتمنى أن يسامحني على هذه السنوات التي لم أعلم فيها شيئًا عنه، ترى كيف مضت حياته من دوني؟!

- لا تفكري كثيرًا، ثقي بي سيصبح كل شيء أفضل من قبل.

تنهدت (بيسان) براحة وكأنها ألقت بحملٍ ثقيل عن عاتقها، سألتها (ثريا) من جديد متوجسة:

- ألهذا السبب تركتِ (مجد)؟!

شخصت بعينيها بعيدًا وهي تحرك رأسها لأعلى وأسفل ثم صمتت ولم تُضِف شيئًا، عمَّت بينهما لحظات من الصمت والشرود بدت فيها (بيسان) امرأة مختلفة وكأنها أخرى غير التي عرفتها (ثريا). بدأت تقول بنبرة راكدة و(ثريا) تنصت من جديد:

- أشعُر أني أعيش أحداثًا رواية بطلتها سيدة أربعينية، تحكي فيها عن تعثراتها الماضية وكم فقدت في حياتها لتحوز، تحكي كيف تخطت شبابها الطائش لتصل إلى النضج الأربعيني، لأصل في الصفحة الأخيرة إلى نهاية صادمة، أن البطلة ماتت باكرًا، باكرًا للغاية، فور تجاوزها العشرين، وهذه السيدة التي التمعت عيني بحكمتها ما هي إلا شبح لفتاة عاشت وماتت في شبابها بفعل قصة حُبٍّ حزينة!

جمدت (ثريا) للحظة ثم تنهدت وهي تقول:

- ربما لم تنتهِ الرواية بعد، ماذا إن كان (مجد) بانتظارك؟!

- أُريده أن يعيش سعيدًا يا (ثريا)؛ لذا لن أفكر باحتمال كهذا؟!

- وما الذي سيمنعه أن يكون سعيدًا معكِ؟!

- هو ليس معي، فضلًا عن أنه لن يعيش سعيدًا وهو ينتظر، الانتظار مؤلم لا أريد أن أفكر حتى باحتمال كهذا.

- لكنكِ تعشقينه يا (بيسان)..

- وما الذي سيمنعني من ذلك يا (ثريا). أنا لا أستطيع أن أكون معه، لكن لا شيء يمنعني من أن أُحِبّه..

سكتت قليلًا ثم استأنفت:

- أعتقد أني رأيتُ (مجدًا) هُنا.

حملقت إليها (ثريا) بدهشة وسألتها دون تمهُّل:

- ماذا؟! أقصد كيف ذلك؟!

- لستُ متأكدة من شيء يا (ثريا) لقد شعرت به قريبًا مني في ذلك اليوم عندما أُصِبتُ وكنت أسير معكِ إلى غرفتنا.

- (بيسان) لم تكوني وقتها بخير، ربما توهمتِ هذا لأنكِ تشتاقين إليه، ربما كنتِ بحاجة إليه فشعرتِ أنه موجود معكِ بشكلٍ ما.

- لا أعرف يا (ثريا)، أشعرُ أني مشوشة لا استوعبُ شيئًا، دعينا لا نتحدث حول الأمر.

زفرت (ثريا) براحة فقد انتابها الخوف للحظة وظنت أن رفيقتها تعرف شيئًا، ظنت أنها رأته معها أو شيئًا من هذا القبيل..

طُرِق الباب لتنهض (بيسان) غير مُكترِثة للأمر، مد لها أحد العمال بطردٍ وأخبرها أنه لها ثم رحل، أمسكته وهي تنظر إلى المُرسِل لتجده أستاذها (عزيز) ابتسمت ابتسامتها الهادئة وبدأت تفتحه لتنظر إلى ما يحتويه.

***

خرج (بدر) من معسكر الغزاة ناظرًا إلى ساعته، صعد إحدى السيارات التابعة للجيش وانطلق..

التفت إلى الطريق ليتذكر حديثه مع (بيسان) بعد أن أقلهما (كمال) من المنطقة الشمالية لمكان بعيد ثم تركهما ليتحدثا معًا وجلس بانتظارهما في السيارة.

أراد مرارًا أن يخبرها أن صوتها مألوفٌ لديه لكنه كان يتراجع قبل أن يفعل.

وقفت (بيسان) تتأمله ثم قالت:

- تشبه أبانا كثيرًا، شعرتُ لوهلة أني أنظر إلى أبي أمامي.

بادلها بابتسامة ودودة وأجابها:

- لم تسنح لي الفرصة لألتقي به..

سكت لثانيتين وأضاف بعدهما:

- في الواقع لا أذكر الكثير من التفاصيل حول طفولتي

- كنتَ صغيرًا للغاية، وكنتُ في العاشرة من عمري

أمسكت برسغه وهي تنظر لعينيه ثم استأنفت بنبرة متمزقة:

- أنا لم أتخلَّ عنك أبدًا صدقني، كنتُ أحاول إنقاذك في ذلك اليوم، لم أعرف كيف أتصرف أو ماذا أفعل لحمايتك؟!

أومأ إليها إيجابًا ثم رد:

- أصدقكِ، أخبرتني أمي بما قمتِ به من أجلي.

- أمك؟!

قالتها باستغراب ليستدرك (بدر) الأمر ويجيبها:

- أعني السيدة التي قامت بتربيتي.

أومأت (بيسان) متفهمة ثم التفت إليه قائلة:

- لا أعرف كيف أقولها، أنا آسفة من أجلِ هذه السنوات.

ضحك بأسي ثم أجابها:

- لا عليكِ، فعلتِ كل ما يمكنكِ القيام به كطفلة في الواقع أراكِ شجاعة للغاية بالنسبة لما قمتِ به.

عاد لصمته من جديد ثم أردف:

- لماذا لم تعودي؟!

رفعت (بيسان) عينيها ناظرة إليه قليلًا ثم زمت شفتيها قبل أن تجيبه:

- لم أتمكن من العودة أبدًا، حملني الحماة في ذلك اليوم مع بقية الأطفال الناجين إلى مكان بعيد لم أكن أعرفه وقتها، حاولت أن أشرح مطولًا أنه عليَّ العودة ولم يستجب أحد لي، بالمناسبة من أين تعرف (يونس)؟!

- الكل يعرفه هنا.

- لم أكن أعرفه وقتها..

- ماذا تقصدين؟!

- لم أستطع العودة أبدًا بسببه، إنه لم يستمع حتى إليَّ، ما إن أصبحت أوراقي جاهزة للسفر، حتى انتقلتُ للضفة الأخرى، لم أتمكن من الهرب أو الرجوع إليك.

خرجت نبرتها واهنة مختنقة بالبكاء، مدَّ يده ممسدًا على كتفها محاولًا التهوين عليها وهو يقول:

- لا بأس، أنا هُنا.

ابتسمت متجاهلة الدموع المتحجرة في مقلتيها وأجابته:

- أجل أنتَ هُنا.

أوقف السيارة على مقربة من المعسكر الطبيّ الذي تقطن شقيقته به، ثم ترجَّل سائلًا الجنود عنها، كان يرتدي ملابس عادية حتى لا يعرف أحدٌ أنه جنديٌ في جيش الغزاة انتظر قليلًا حتى أتت إليه (بيسان) وبعدها سمحوا له بالولوج، بدأ حديثه معها بشيء من العجلة قائلًا:

- أريد مساعدتكِ...

***

ختم (بدر) حديثه مع (بيسان) وانصرف مسرعًا مُعتذِرًا منها بسبب تعجله، راقبته وهو يبتعد عنها بعينين تبوحان عن حديث طويل لم تنطق به، نادته باسمه الحقيقي، ليلتفت إليها مبتسمًا وكأنه أحَبَّ أن يكون نداؤها له مختلفًا، أحب أن تكون له هويّة غير التي عاش عليها ولم تكن له، نظراتٌ من الفضول انعكست على عينيه، لتبددها (بيسان) وهي تقول:

- متى سأراك من جديد؟!

عاد ليقترب منها، ثم أجابها:

- لتمر هذه الأيام، وأعدكِ أن أراكِ في أقربِ وقت ممكن.

أومأت إليه مبتسمة ثم ردت:

- كن حذرًا.

رحل مسرعًا في خطاه وهو ينظر إلى ساعته ليرى كم تبقى أمامه من الوقت، بينما بقيت (بيسان) تراقبه وهي تشعر بالقلق عليه، تجاوز بوابات المعسكر فلم تعُد تراه، بقيت واقفة قليلًا وهي تفكر كيف ستصل إلى (يونس) الآن، استدارت ولم تكد تُنهي ما تفكر فيه حتى وجدته أمامها، أجفلت وهي تضع يدها على قلبها ليُعقِب على فعلتها قائلًا:

- لم أكن أعرف أن رؤيتي تفزع إلى هذا الحد.

التقطت أنفاسها وهي تشيح بوجهها ثم أجابته:

- كنت سآتي إليك؟!

قطب حاجبيه مستغربًا سائلًا إياها:

- ما الأمر؟!

- أتى أخي منذ قليل وترك لك رسالة..

قطعت حديثها قبل أن تكمل سائلة إياه:

- وأنتَ لم أتيت؟!

- لقد تأكدتُ من الأمر، إنه شقيقك حقًّا، أرسل إليَّ (عزيز) بعض الصور وطلب أن أتواصل معكِ.

أومأت بتفهم وهي تجيبه:

- أرسلا إليَّ أنا أيضًا.

- سعيد أنكما معًا أخيرًا.

ضحكت بسخرية دون رد، ليتجاهل ذلك مستفسرًا منها عما تركه (بدر) له، أجابته:

- يريدكَ أن تنظر إلى هذه الآن.

قالتها ومدت له بورقة ليفتحها، ويقرأها بعينيه تبدلت ملامحه بين فينة وأخرى ثم انطلق مُسرِعًا دون أن يقول شيئًا، حملقت إليه (بيسان) مندهشة ثم لحقت به وهي تسأله:

- ما الأمر؟!

أجابها وهو يتقدم دون أن يلتفت إليها:

- لا شيء، عليّ الذهاب الآن.

بقيت مُتَسمِرة مكانها دون استيعاب منها لما يدور حولها، هي لم تفتح الورقة المطوية لتقرأها كما استأمنها أخاها، لكن ما الذي حوته حتى تتبدل حالة القائد هكذا؟!

عندما خرجت قبل قليل إلى (جواد) كي يسمح له الجنود بالولوج إلى داخل المعسكر أرادت التحدث معه حول الطرد الذي بُعِث إليها من (ريتا) و(عزيز)

أرادت أن تخبره أن كل شيء يؤكد لهما أنهما وجدا بعضهما بعد كل هذه السنوات، السيدة (ريتا) هي تلك الشابة التي أخذته منها في ذلك اليوم واعتنت به حتى أصبح شابًا، الدكتور (عزيز) الذي عاش طوال هذه السنوات في بيته كان كفيلها والقائم على شؤونها هناك ومع ذلك لم يلتقيا رغم تقاربهما إلى هذا الحد، الأمر كالمعجزة، كان لديها الكثير الذي رغبت بقوله له، ولكنه لم يمهلها بسبب تعجله، وبدأ حديثه معها قائلًا:

- أريد مساعدتكِ..

حينها تحتم عليها الإنصات إليه، لطالما رغبت أن تقدم له كل ما تستطعه، وهو الآن يطلب مساعدتها فكيف تتأخر عنه، سألها إن كانت تحمل قلمًا طلبت منه أن يتمهل لتنظر إلى جيبها هي في الغالب لا تتخلى عن الأقلام التي تحملها سواء بسبب مهنتها كطبيبة لا تتوقف عن وصف الأدوية للمرضى أو بسبب رسائلها غير المحدودة التي لا تتوقف عن كتابتها، أخبرها وهي تبحث في جيبها أنه سيكتب شيئًا، وعليها أن توصله للقائد (يونس) رفعت عينيها باستغراب وهي تمد له بالقلم، التقطه منها ثم دَوّن به بعض الكلمات ولم يُطِل، أعاده إليها ثم طوى الورقة وهو يقول:

- أريدكِ أن تأخذيها إليه الآن، بإمكانكِ ذلك صحيح؟!

حملقت إليه وهي تسأله محاولة التأكد مما سمعته:

- الآن؟!

- إنه شيء ضروري.

أومأت إليه وهي تقلب الورقة بين يديها عبثت بأطرافها ليمسك يدها وهو يقول:

- لا يجب أن تنظري إليها، الأمر متعلق بالحرب، أنا أثق بكِ.

- بالحرب؟!

- اسمعي ليس أمامي الكثير من الوقت، عليَّ الرحيل سريعًا من هنا، أعدكِ أن اشرح لكِ هذا في الوقت المناسب.

- حسنًا، سآخذ رسالتك إليه الآن.

- لن أنسى لكِ هذا.

ابتسمت وأجابته:

- أنا هنا دائمًا من أجلك.

بادلها ابتسامة ودودة ثم ربت على كتفها معتذرًا منها على هذا اللقاء السريع الذي لم تفهم منه شيء ثم استأذنها ليذهب.

***

مُعسكر الحماة قبل بضع ساعات من الهجوم.

عاد (يونس) مرة أخرى إلى جيشه، كان (بدر) قد طلبَ منه في رسالته تكثيف القوات الحامية في خمس مدن دون أن يضيف مزيدًا من التفاصيلِ فيما عدا المدينة الأولى كان من المهم له الانتباه إلى تنفيذ ما طلبه منه، من الجيد أن (قدير) كان موجودًا خلال هذه الفترة التي غاب فيها فقد أشرف على كل شيء كما لو أنه قام به بنفسه، شكره ثم استبقاه طالبًا منه ألا يغادر المكان فهو آمِن ضد أي هجمات ستحدث بالخارج، لم يكن أمام أحدٍ متسع من الوقت ليختار شيئًا لذا فعل (قدير) كما طلب (يونس) منه..

بدأ الجيش استعداداته، وخرجت القوات لتأخذ مواضعها في المناطق التي أشار إليها (بدر) وصلوا قبل الغزاة بوقتٍ كافٍ سمح لهم بإجلاء أغلب السكان إلى مناطق أخرى آمنة لن يصلها الهجوم أو القذف، انضم إليهم عددٌ مكثف من الفرق الطبية كل شيء يؤذِن بتخطي الأمر، الانتصار بادٍ أمامهم لكن كعادة أي نصرٍ لا يتحقق دون خسائر، بالتأكيد سيُوَدِّع من جنوده ما يُوَدِّع، ربما كذلك لن ينجو أطباؤه كليًا، ربما تتهدم بعض المباني، وربما يفقدون بعض المركبات الحربية، لكن ليبذلوا ما بوسعهم لمفاداة النساء والشيوخ والعجائز والأطفال، ليبذلوا كل طاقتهم للدفاع عن أرضهم وشعبهم وعقائدهم وإن كان المقابل أرواحهم...

تركوا لهم المدينة الأولى فارغة كي يعثوا فيها فسادًا مثلما شاءوا وكيفما أرادوا، ابتلعوا الطُعم بلا تفكير؛ لم يتوانوا في استنفاد ذخائرهم، لم يتركوا بناءً إلا وصيروه بعتوِّهم مساويًا للأرض، من شدة انشغالهم بالمداهمة والتقدم لم ينتبهوا مع سرعة الهجوم إلى خلوّ المدينة!

وأخيرًا التقت الفئتانِ على مشارف المدينة التالية، أتى جيش (خوسيه) رغم كثرته مزعزعًا، السكون الممتد عبر المدن بدأ يثير رعبًا جليًا في أعين جنده، لم يَخفَ تردُّد قلوبهم في حناجرهم وخشيتهم من المواجهة، خصيصًا بعد أن شرد بهم الحُماة من خلفهم وحاصروهم فصاروا رغم كثرتهم عاجزين عن الاطمئنان لعددهم، من المؤسف لدى (بدرٍ) و(كمال) أن يأتوا كل مرة برفقة هؤلاء، أن يكونوا بصحبة أعدائهم، يدًا بيدٍ مع جلّاديهم، ولكن لا؛ هم ليسوا مثلهم، لقد أقسموا ألا يقتلوا طفلًا، ألا يمسوا مسالمًا، ألا يخونوا انتماءهم لهذا الشعب بتمزيقه، لن يمدوا سوءًا بأيديهم لأحد، سيحمونهم مهما كلفهم الثمن!

رغم أن الوقت لم يكن مُلائِمًا للضغائن، كان (رحوم) ينظر إلى (بدر) بعينين متقدتين بالحقد، نظراتٌ ناقمة كارهة؛ لا يعرفُ كيف نجا هذه المرة من وشايتهِ لكنه لن يستسلم، لن يبعد عينيه عنه، أما (بدر) فقد كان هذه المرة أدهى من أن يسمح له بتبديد ما وصل إليه من أجل أرضه، لذا طلب من (يونس) في رسالته أن يتركوا لهم المدينة الأولى خالية، وأن ينتظروا تقدمهم للتي بعدها ثم يحاصروهم من الخلف، أكَّد عليه ألا يبدأوا بالهجوم إلا بعد ولوج الغزاة إلى هذه المدينة واستنزاف أغلب مؤنهم الحربية في هجوم لا طائل منه!

تأهب جنود الحماة من اللحظة الأولى التي وطأ الغزاة أرض مدينتهم تلك، اتبعوا أوامر قائدهم بحذافيرها دون زيادة أو نقص، قتلوا العديد منهم، داهموهم حتى قبل أن يدركوا المكيدة التي حيكت لهم ثم وجدوا أنفسهم محاصرين بينهم من الأمام والخلف عاجزين عن التقدُّم أو الفرار، بدأت الدبابات تُلقِي قذائفها حتى أصبح الغزاة مشتتين، مفرقين، أقل عددًا وأضعف جندًا، جيشهم شبه خاوٍ من العدة والعديد، سهلٌ للغاية أن يُظفر بهم! لم يكن الانسحاب من مخططات (خوسيه) لكنه فكر مليًا في الأمر؛ جنوده ينحسرون، يوشك أن يفقدهم كُليًّا، الوضعُ يضيقُ بهم؛ لم تبقَ ذخيرة كافية للتقدم أو النجاة، الكثير من أطبائهم قُتِلوا، أصبحوا عاجزين حتى عن إسعاف مُصَابِيهم، وفي اللحظة الأخيرة بعد أن أعلن الاستسلام وأصدر أوامره لجيشه بالانسحاب.. خرجت طفلة صغيرة من أحد المنازل المُتَهدِّمة تبكي وهي تحملُ دميتها المتمزقة وترمق كل ما حولها بفزع يفطر القلب، غبرة الهدم تغطي جانب وجهها، ذراعها تنزف والدماء تكسوها، تبحثُ المسكينة عن أمها وتناديها دون أن تصل لشيء، بدا خروجها في تلك الأثناء مُربِكًا للكل، رآها أحد قناصة الغزاة لم يكن بحاجة للتفكير فيما يُقْدِم عليه، كونها طفلة لا يُشَكِّل فرقًا كبيرًا بالنسبة إليه، المُهم أن يقتلها حتى وإن انسحبوا مهزومين سيبقى هذا في نفسه يشفي غليله، سيبقى لديه ما يتفاخر بين زملائه به؛ جثة زائدة عن الضحايا هَمَدَت على يديه، علت شفتيه نصفُ ابتسامةٍ صفراء ساخِرًا من بكائها وزُعْرِها، مُتباهيًا أمام نفسه أنَّه سيتمكن منها عبرَ هذه المسافة وذاكَ البُعد ورغم تبادل الطلقات واستمرار المناوشات والقذف، وها هو الآن يسدد سلاحه صوبها..

(بدر) و(مجد) و(بيسان) ملتفون في مكان واحد حول الطفلة لإنقاذها، تسمرت (بيسان) مكانها وكأن كل ما حولها توقف فجأة، تتناقل نظراتها بين هذا وذاك دون تصديق، (مجد) الآخر جامد مكانه يتطلع إليها و(بدر) كذلك لا يختلف عنه، لا وقت أمام كليهما للتبرير أو الشرح، التفتت إلى أخيها رامقة ثيابه؛ دموعٌ متحجرة في مُقلتَيها، نظراتٌ مختلطة باللوم وعدم الفهم، يلوح بذاكرتها لقاؤها به قبل ساعاتٍ من الهجوم، الورقة التي تركها من أجل

(يونس)، عجلته من أمره، حديثه عن الحرب، والآن هو جندي مع الغزاة يقاتل في صفِّهم لكن كيف؟! لم يُمهلها ما حدث مزيدًا من الوقت للتفكير وانطلقت رصاصة القناص..

انحنى (بدرًا) سريعًا دافعًا الطفلة كي يفاديها ليصاب هو عوضًا عنها، ثم تنطلق رصاصة أخرى تلوها ليسقط القناص الذي أصابه صريعًا إلى الأرض.

كادت (بيسان) أن تفقد أنفاسها، ترمق أخاها ممددا على الأرض، أنفاسه مُتَحشرِجة نظراته الغائرة تجاهها تحملُ اعتذارًا في طياتها، لا يُهِمُها كل هذا الآن لقد أصيب صغيرها، نقل عينيه قبل أن يفقد وعيه إلى الطفلة لتنظر (بيسان) إليها، تقفُ عاجزةً تمامًا عن فعلِ شيءٍ ليتدخل (مجد) ويحمل الفتاة ثم يسحب (بيسان) من معصمها جارًّا بها، ظلت ترمقه وهي تركض معه بعينين شاخصتين لم تستوعِب شيئًا، متى جاء إلى هنا؟! وكيف ظهر فجأة أمامها؟! سحبت يدها من يده ناظرة إلى عيون الطفلة نظراتها لا تختلف كثيرًا عن (جواد) الصغير الذي أهلكته الحرب التفتت إلى أخيها، اقترب أحد جنود جيشه منه ليحاول مساندته ثم حمله على كتفه ليبعده عن تبادل الطلقات، ذلك الجندي إنها تعرفه، ملامحه مألوفة لديها، أغمضت عينيها لهنيهة كي تتذكر أين رأته؟! لقد تذكرته، إنه ذاك الشاب الذي قاد بهم السيارة خروجًا من المنطقة الشمالية في المرة الأولى حين التقت (جواد).. أمسكها (مجد) من يدها ليحثها على المضي معه مخبرًا إياها أن لا وقت أمامهما، المكان خطرٌ، دويُّ الطلقات النارية المتبادَلة حولهما يزداد صخبًا يجب أن يذهبا بالصغيرة إلى سيارة الإسعاف الآن.. نظرت إليه نظرات لم يفهمها متراجعة خطوتين إلى الخلف والدموع تنهمر على وجنتيها ثم نطقت بصعوبة قائلة:

- عليَّ إنقاذ أخي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(الفصل السادس)

(1)

«ما كان هينًا على قلبي أن يرى نأيك ويدعك دون أن ينسلَ من ضلوعي مُقتَفِيًا أثرك!»

**

معسكر الغزاة، يناير2020م

- العالمُ كلّه في الخارجِ معك

قالها وهو ينظر إليها بترقُّب منتظرًا أن تقول شيئًا، كانت مستندة إلى الطاولة مطرقة الرأس ظلال الظلام تواري ملامحها فتطمسها عنه، أكمل محاولًا استثارة هِمَّتِها لتسايره في الأخذِ والرد فقال:

- لم أتخيل شيئًا كهذا، ولكنه حقيقي يا (بيسان) لقد جعلتِ هؤلاء البشر بالخارج يشعرون، أنتِ فعلتِ هذا...

رفعت وجهها بوهن ناظرة إليه، لتتضح ملامحها له قليلًا مع الضوء الخافت الذي تجود به أشعة الشمس المتسللة عبر قضبان النافذة الخاصة بالزنزانة، هالة سوداء من الحزن تحيط عينيها، وجهها شاحب مصفر، تعلوه آثار ندبات، جراح على جانب مبسمها وكدمات مُزرقّة على وجهها وذراعيها، انتفض ناهضًا بفزع ينظر إلى آثار الضرب والتعذيب الذي تلقته بعينين متسعتين شاخصتين، تمكنت من قول شيءٍ أخيرًا رغم نبرتها المتهدجة المتعبة:

- لن يتركوني لِأعيش طويلًا هنا!

ألقى بجسده المثقل على الكرسي الذي نهض وتركه قبل لحظات، بددت حالتها الأمل الذي أتى إليها محملًا به، كلما قطع شوطًا في هذه القضية ليحلها تزداد أمامه تعقيدًا دار بخلده سؤلًا ولم يقدر على التصريح به؛ ماذا إن لم يسعفه الوقت حقًّا لإخراجها من هنا؟! دفن رأسه بين يديه مفكرًا ثم رفع وجهه وهو يسألها محاولًا أن يفهم:

- كيف فعلوا بكِ هذا، ما الذي حدث؟!

جاهدَتْ نفسها مرة أخرى للنطق فسألته عما يشغلها دون أن تجبه:

- ما الذي فعلوه بأخي؟! هل قتلوه؟!

أتى سؤالها كالصاعقة بالنسبة إليه، نظر إليها مليًّا، ثم استقام فاتحًا الملف الذي أتى به وأخذ يرتب بعض الصور أمامها على الطاولة، كانت نظراتها إليه

ثابتةً، منتظرة أن يجيب بشيء يهدئ من خوفها، لكنه لم يفعل فواصلت مكملة حديثها بنبرة مختنقة بالبكاء:

- لا بأس فقط أخبرني، فقدتُ أبي وأمي من قبل، ربما اقترب وقتي أنا أيضًا.. أتعرف؟! اعتدتُ حلول الموت ونزعَه الأشخاص مني عنوةً دون التفات لقلبي وما سيحدث له، اعتدتُ ألا أشيع جثمانًا وألا أعرف قبرًا لهم، لا لأبي ولا لأمي ولا حتى (جو...

قاطعها قبل أن تكمل وقد تكامل غضبه فخرجت نبرته عالية حاسمة:

- لا نعرف شيئًا، لا نعرف أين هو أو ما الذي حدث له؟!

مالت برأسها وقد انفلتت الدموع من مُقلتيها محاولة الاستيعاب وهي تسأله:

- كيف؟!

لم يعرها ردًا من جديد وقام مقتربًا منها وهو يمسك مرفقها لتنظر إليه، بضع ثوانٍ مرت ثقيلة لكنها تعني لها الكثير.. عاد إلى ما جاء إليه وأخذ يمرر الصور أمام عينيها وهو يحكي لها كيف تحول الأمر في الخارج من أجلها، متمنيًا أن يكون ما يفعله كفيلًا لبث بعض الأمل إليها..

***

بعد صدور حكم الإعدام في حقِ (بيسان) أحدث نشطاء المدوَّنة التي تديرها (ريتا) -من أجل الدفاع عن ضحايا الحروب- جلبة ضخمة وغير متوقعة، بدأ الأمر في أولِّه صغيرًا؛ بعض الاعتراضات والآراء، وعدة وقفات احتجاجية لعشراتِ الأشخاص، ثم أخذ الأمر ينمو ويتفاقم تدريجيًّا ولا سيما مع انضمام المثقفين بآرائهم واعتراضاتهم وتولِّي (عزيز) دَور المُتحدِث الرسمي باسم المدوّنة، فأصبح في محاضراته التي يُلقيها وندواته التي يعقدها يحكي عن (بيسان) ويصوِّرُ مدى المعاناة التي مرت بها في حياتها وما زالت مستمرة إلى اليوم، طلب من زملائها الأطباء أن يكونوا حاضرين بدورهم، أن يشاركوا الناس بمواقفهم التي جمعتهم بها، أن يحدِّثوا الجميع كم كانت (بيسان) إنسانة ذات قلب رؤوف، لم تسعَ في حياتها لشيءٍ غير السلام، أهذا مطلبٌ كبيرٌ إلى هذا الحد؟!

امتدت القضية إلى كبار الشخصيات بالضفة، أغلب من تجاهل الأمر في البداية لم يتحمل السكوت عنه مع صدور حكم الإعدام في حقها، كل من لزم الحياد ولم يعبأ للقضية برمتها أصبح الآن يتساءل ويساوره القلق حول مصيرها؟! صارت قلوبهم هي التي تتمنى إنقاذها، هي التي تحركهم لفعل الكثير من أجل إخراجها من هذا الوضع.

أصبحت قضية عامة يدعو الآلاف إلى الإفراج عنها أو تخفيف الحكم في حقها، الوقفات الاحتجاجية تجاوزت العشرات إلى الآلاف والملايين، ولم يقتصر الدور على مدوَّنة (ريتا) فقط بل ساهمت العديد من المؤسسات التي تدافع عن حقوق الإنسان بالدعم..

كان السيد (علي ناصف) المحامي المشرف على هذه القضية يعرض أمام (بيسان) صور المحُتجين على الحُكَم الصادر بحقها، يُرِيها كيف ألهمت هؤلاء الملايين لاستبصار النور في قلوبهم، للشعور بالخير في دواخلهم، كيف جعلت الإنسانية تمتد من قلبها للعالم أجمع...

***

أنهى حديثه معها حول تبَدُّل الأحول في الضفة الأخرى، فعلت ملامحها ابتسامة مطمئنة مكتفية بالصمت ولم تُعقِب على حديثه، فسألها:

- ألن تقولي شيئًا؟!

تنهدت تنهيدة مثقلة ثم أجابته:

- لم يتبقَّ لدي ما لم تعرفه، أخبرتُكَ القصة كاملة..

أومأ برأسه وبقي ينظر إليها وكأنه يرغب بقول شيء، ابتسمت طالبة منه أن يخبرها عن الأمر الذي يفكر فيه ويشغله بوضوح هكذا؟! جلس بمقابلتها من جديد ثم سألها:

- ماذا عن (ثُريا)؟!

فهمت ما يرمي إليه ثم أجابته باقتضاب دون استفاضة حول ما فعلته:

- قلبي لا يجرؤ على التصديق، وعقلي يخبرني أن الأمر قد حدث بالفعل.

- وأي صوتٍ تتبعين؟!

- عشتُ طوال عمري أنصتُ لعقلي وكانت النتيجة أنه أتى بي إلى هنا.

ابتسم بسخرية ثم قال مستفهمًا:

- أفهم من إجابتكِ تلك أنكَ سامحتِها؟!

أومأت إليه إيجابًا وهي تزم شفتيها ثم ردت:

- لم تمنحني حياتي وقتًا طويلًا للضغائن، بالأخير هي حاولت من أجلي.

- كيف تستطيعين أن تكوني هكذا؟!

- كيف؟!

- متصالحة مع كل ما حدث معكِ.

أجابته متنهدة وهي تشيح بوجهها ناحية الضوء:

- لأن هذه أنا؛ هذه السنوات التي مرت والتي قد أعيشها بعد، الأشخاص الذين صادفتهم في حياتي، من آذوني أو مدوا إليَّ يد العون، مساوئي ومسراتي، أفراحي وأتراحي جميعها تشكل جزءًا مني، إذا لم أقبل شيئًا منها فمعناه أني أرفض نفسي..

أنهت ما قالته ثم عادت تنظر إليه هي تسأله إن كان يحملُّ ورقة وقلمًا ليبتسم وهو يعطيها ما طلبته قائلًا:

- وجدتِ الشخص الصحيح.

ابتسمت ابتسامة ودودة ثم انحنت إلى الطاولة وبدأت بكتابة رسالةٍ ما، استغرق الأمر بضع دقائق ثم رفعت القلم عن الورقة وأغلقته وبعدها طوتها ومدتها له وهي تقول:

- إن لم يسعنا الوقت ولم يكتب لنا لقاء جديد، فسيتعين عليك قراءة هذه الرسالة وإعطاؤها للشخص الذي ذكرت اسمه أعلاها.

حملق إليها بدهشة، لتتابع حديثها:

- كان من الجيد بالنسبة إليَّ أن ألتقي بشخص مثلك، أتعرف، لم يكن بمقدوري الحديث في الأمر ولكنك الوحيد الذي تمكنت من إخباره بالقصة كاملة.

ابتسم إليها ابتسامة ودودة ثم تنهد وهو يجيبها:

- لا تتحدثي وكأنه لقاؤنا الأخير، ما زال لدينا متسع من الوقت لا تدري كيف قد تتحول الأمور بين ليلة وضحاها!

أومأت إليه باسمة دون أن تعقب بشيء، ليسألها وهو يجمع أوراقه لينهض:

- ما زلتِ لا تثقين بي؟!

- أثقُ بكَ يا سيد (عليّ).

نظر إليها قليلًا وكأنه لا يصدِّق ما سمعه، ثم ضحك محركًا رأسه وهو يرد عليها:

- إنه لشرف لي يا (بيسان) إنه لشرف لي!

***

خرج السيد (عليّ ناصف) من عند (بيسان) قاطعًا الممر بين حجرات السجن وهو يتمتم بينه وبين نفسه:

- ما زلتُ لا أمتلك الصلاحيات الكافية لإخراجك من هنا، ولكن مَن أوكل هذه القضية إليَّ يستطيع، إنه على أتم استعداده ليفعل أي شيء مقابل حريتكِ!

ما إن عبر الممر وأخذ درجات السلم صعودًا للأعلى حتى وجد (رحوم) في مقابلته يرمقه بنظراته الخبيثة المعتادة، تجاهل نظراته وتجاوزه دون أن يعبأ به، تبعه الآخر حتى سار جواره جنبًا إلى جنب وقف ملتفتًا إليه لثانيتين ثم ابتسم ابتسامة متهكمة وواصل السير. مد (رحوم) يده إلى كتفه مُوقِفًا إياه ليبعدها السيد (عليّ) ويعاود الوقوف مرة أخرى منتظرًا منه أن يفضي بما عنده، نطق أخيرًا بنبرته الشبيهة بفحيح الأفاعي:

- السيد (دانيال خوسيه) ينتظرك بمكتبه.

هز رأسه مُتَفَهِمًا ثم أشار إليه كي يذهبا، كان يتوقع أنه يحيك شيئًا دون أن يدرك ما هو، وصلا إلى المكتب ليطرق (رحوم) الباب، مخبرًا قائده بمجيء المحامي وبعدها دعاه ليدخل وبقي هو في الخارج ينتظر ويسترق السمع..

تحية باردة بين (خوسيه) و(علي ناصف) لم يجلس الأخير ولم يدعُه القائد للجلوس، ثوانٍ من الصمت، ثم بدأ (خوسيه) بالحديث:

- مَن أنت؟!

نظر إليه مليًّا وقد علت مبسمه ابتسامة جانبية ثم أجابه بنبرة متهكمة:

- شيء يدعو للسخرية، رجلٌ في منصبكَ هذا ولا يمتلك المعلومات العادية حيال شخص...

قطعه ليرد قائلًا:

- تفهم جيدًا مقصدي، لكن لأخبرك بشكل أوضح، وصلت إلى هنا قبل شهرين، ثم توليت الدفاع في هذه القضية تحديدًا، مَن أرسلك؟!

زفر السيد (علي) ثم بسط كفيه في علامة أنه لا يفهم ما يرمي إليه وبعدها أجابه محاولًا استفزازه:

- عقلك يعملُ بشكلٍ جيد أيها القائد، لكن لا شيء من هذا حقيقي، إن كنت تريد إجابة محددة علَى سؤالك هذا فدعني إذًا أخبرك؛ ببساطة أنا السيد (علي ناصف) محامي الدفاع الخاص بالطبيبة (بيسان) لم يرسلني أحد ولا يوجد أحدٌ خلفي وكلُّ ما حدث منذ وصولي إلى هذه الضفة جرى بمحض المصادفة.

لم يتمالك (خوسيه) نفسه وانفجر غاضبًا:

- مصادفة؟! اسمع أيها المحامي، عاجلًا أم آجلًا سأتوصل إلى ما أريد معرفته، وإلى هذا الوقت أريدكَ أن تتأكد أنّي لن أدعك تُخرِج هذه الفتاة وهي على قيد الحياة من هنا!

اقترب منه بخطواتٍ ثابتة واثقة ثم انحنى قريبًا من أذنه هامسًا:

- آسف لأنكَ لن تستطيع، بالمناسبة يمكنني اعتبار هذا تهديدًا صريحًا منك، ومن حقي أن أرفع دعوة قضائية ضدك.

أمسكه (خوسيه) من ياقته وهو يوشك أن يلكمه قائلًا:

- أنت...

فتح (رحوم) الباب سريعًا بلا استئذان ليفلته (خوسيه) محوِّلًا نظراته الغاضبة الثاقبة إلى (رحوم).. عدَّل السيد (علي) ربطة عنقه ثم أخبره وهو يهمُّ بالذهاب:

- سعِدتُ بلقائِك، والآن اعذرني عليّ الذهاب!

قالها خارجًا من المكتب، بينما وقف (رحوم) مُرتَبِكًا أمام نظرات (خوسيه) الصارمة، اعتذر من سيده لتبوء محاولته بالفشل ويصرخ عليه طاردًا إياه من المكتب صافقًا الباب خلفه بعنف شديد، ثم طرقت عقله فكرة خبيثة للتخلص من (بيسان) قبل أن يستطيع ذاك المحامي إخراجها من هنا، لمعت عيناه بمكر بمحض تخيله أنه يسلم لهم الفتاة جثة هامدة، فتح الباب من جديد آمرًا أحد جنوده أن يبعث له (رحوم) حالًا، وبعدها اتجه إلى كرسيه جالسًا أمام مكتبه حتى أتى الآخر إليه متوجسًا منتظرًا أن يتلقى توبيخًا من سيده، نظر (خوسيه) إليه وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة ثم بدأ حديثه قائلًا:

- أخبر الجنود أنه تم تقديم الحكم، فلتكُن مقصلة الإعدام جاهزة.

حملق إليه مندهشًا وهو يسأله:

- ماذا؟!

ضحك (خوسيه) ضحكة صاخبة حتى مالت رأسه إلى الخلف، ثم أجابه:

- سيتمُ تنفيذ حكم الإعدام بعد يومين.

- وماذا عن السيد (عاموس) ألن نفعل شيئًا من أجله؟!

زم شفتيه، وهو يحك ذقنه ثم قام مقتربًا منه وأجابه:

- ما رأيك أن تتخذ القرارات بدلًا مني؟!

تراجع (رحوم) خطوة للوراء وهو يزدرد ريقه والعرق يتفصد على جبينه ثم نظر إلى الأرض معتذرًا منه وبعدها استأذن ليذهب، استدار متجهًا ناحية الباب ثم جذبه إليه ليستوقفه (خوسيه) سائلًا:

- ألا توجد أي أخبار حول (بدر)؟!

التفت إليه، وأجابه إجابة سريعة مقتضبة:

- لا، لقد اختفى تمامًا.

أومأ مشيرًا له بيده كي يرحل..

***

قبل ثلاثة أشهر

حمل (كمال) (بدرًا) على كتفِه محاولًا إنقاذه، عيناه المذعورتان تنبئان عن خوفه الشديد عليه، يتحرك بصعوبة وسط هذه الطلقات المتضاربة بشكل عشوائي من كلِّ اتجاه، يطلب من صديقه أن يتحمل، لن يسمح له بالذهاب، لن يسمح للحرب أن تأخذه بأي شكل، أما (بدر) أنفاسه متحشرجة صوته بالكاد يخرج، أنينه واهن غير مفهوم عيناه غائرتان تدوران في المكان دون وِجهة محددة ينعكس أمامه القتال، الجنود يموتون، الطَّلقات مستمرة، شقيقته تلحق به، جاهد نفسه ليبدي أيَّ ردة فعل لمنعها من هذا، لم يخرج صوته ولم يقوَ على تحريك يديه، اتجه (كمال) إلى حطام منزل متهدمٍ بعيدٍ إلى حدٍّ ما عن وصول الطلقات إليه، أنزل صديقه برفق وهو يخبره أنه سينقذه، تلفت حوله، لا أحد هنا ليساعدهما، أخذ يفكر وهو ينظر إلى صديقه نظرات متوترة خائفة يراه ينازع الموت ولا يعرف كيف ينقذه.

أتت (بيسان) ركضًا كانت تتلفت حولها باحثة عنهما حتى وقعت عينها على أخيها، وقفت تلقف أنفاسها وهي تنظر إليه بعينين متسعتين لأول مرة تشعر أنها عاجزة كطبيبة عن فعل شيءٍ هوت إليه مسرعة وأخذت تحاول نزع سترته عنه لتنظر إلى إصابته، دموعها منهمرة على وجنتيها، تمرر يديها بسرعة وارتباك على جسده، يداها ترتجفان، ينتابها خوفٌ شديدٌ أجهشت بالبكاء ليجلس (مجد) إلى جوارها مقتربًا منه ويبدأ بنزع الرصاصة، كانت قريبة للغاية من القلب لكن لحسن الحظ أنه أتى في الوقت المناسب، بعد دقيقتين وصلت (ثريا) بمزيدٍ من المعدات وبعض العقاقير التي يحتاجون إليها في مثل هذه الإصابات، ما إن وجدتهم حتى جمدت مكانها، نهض (كمال) واقفًا هو يتطلع إليها تملؤ عينيه نظرات الارتباك ظل (مجد) يناديها طالبًا أن تجهز له مصلًا من أجل (بدر) نادها عدة مرات حتى انتبهت بالأخير فجلست إلى جواره وبدأت تُحضِّر ما طلبه وأعدته له، تنظر من فينة إلى أخرى إلى (كمال)

نظراتها إليه تائهة، ظل مرتبكًا أمامها يتحرك جيئة وذهابًا حولهم، ما إن انتهوا من استخراج الرصاصة من صدر (بدر) وأغلقوا جرحه حتى وجدوا (رحوم) و(خوسيه) خلفهم، جحظت عيني (كمال) هذا ما كان ينقصه، نهض الجميع واقفين، لينظر (رحوم) إلى قائده، ويقول:

- كما أخبرتك، إنهما يخفيان شيئًا.

كانت نظرات (خوسيه) تشع غضبًا، تقدمت (بيسان) خطوتين، ثم بدأت بالحديث موجهة حديثها إليه:

- لا يوجد شيء كهذا، أنا فقط...

تدخل (كمال) قاطعًا حديثها مستدركًا الموقف قبل أن يثور (خوسيه) قائلًا:

- إنها حبيبة (بدر).

التفت الجميع محدقين إليه، ليتابع ناظرًا إلى القائد بترقب:

- حاولت كثيرًا أن أمنعه عن هذه العلاقة يا سيدي ولكن (بدرًا) كما تعرفه..

لم يسمح له قائده بأن يكمل وبقي ساكنًا يرمق الجميع بنظرات متأججة بالغضب، التفت إلى (رحوم) ثم قال:

- تخلص منهم جميعًا.

استدار ليَهُمَّ بالانصراف، ليوقفه (رحوم) ثم ينحني قريبًا منه هامسًا في أذنه:

- اعذرني يا سيدي على التدخل، ولكن نحن بحاجة إلى أطباء.

التفت إليه (خوسيه) بنظرات حادة، ثم واصل تقدمه عدة خطواتٍ للأمام، لحقت به (بيسان) متجاوزة (رحوم) حتى أدركته وهي تقول:

- سيدي، لا يمكنك معاقبتهم جميعًا، لا ذنب لأحد منهم، لقد أحضرتهم من أجل إنقاذه، وهم قبلوا مساعدتي لأننا بالأخير أطباء لا شأن لنا بالسِّلم والحرب وإنما يتعلق عملنا بالإنسانية، بإنقاذ الجرحى والمرضى والمتألمين، بمنح البعض فرص جديدة للحياة.

كان لا يتحمل الاستماع إلى حديثها فسلَّ سلاحه وسدده إلى رأسها، وقف أمامها قليلًا وهو يدير حديث (رحوم) في رأسه ثم ردَّ:

- أريد طاقمًا طبيًّا مجهزًا لإسعاف جنودي.

حملقت إليه ليتابع:

- وإلا قتلتهم جميعًا الآن، بسببكِ.

التفتت (بيسان) خلفها ناظرة إليهم ليبعد سلاحه عنها وهو يبتسم ابتسامة خبيثة، عادت مرة أخرى ونظرت إليه ثم قالت:

- أستطيع مساعدتك بمفردي، ولكني لن أخاطر بهم، اعذرني.

نادى على (رحوم) بنبرة عالية وهو يشير إلى (ثريا) قائلًا:

- ابدأ من هذه الفتاة، لا أريد أحدًا منهم حيًّا.

جحظت عينا (كمال) لكنه قبل أن يفعل شيئًا وجد (بيسان) تسرع واقفة أمام سلاح (رحوم) موجهة حديثها إلى (خوسيه) قائلة:

- بإمكاني أن أوفر المعدات اللازمة، كما أنني أستطيع القيام بالأمر وحدي.

نظر إلى (رحوم) وكأنه ينتظر رأيه ليعقب على حديثها بنبرة خبيثة:

- هذا أفضل من لا شيء يا سيدي، كما أننا نستطيع معاقبة جنودنا بالطريقة التي نراها صائبة، لا ذنب لهؤلاء.

ضحك (خوسيه) ضحكة صاخبة إزاء حديث (رحوم) المغلف بالمَكر، ثم نظر إلى (بيسان) قائلًا:

- سننتظركِ في المساء أيتها الطبيبة، ولكن ستبقى صديقتكِ معنا حتى تأتي.

قالها وهو يتجه إلى (ثريا) ثم أشار إليها بسلاحه حتى تأتي معه، تحركت أمامه بينما بقي (كمال) يرمقهما بعينين متسعتين ونظراتٍ مرتبكة وجلة ليناديه (خوسيه) بنبرة قاسية، فينظر إليه، وقبل أن ينطق بشيء أتى إليهما (رحوم) سريعًا متدخلًا وهو يوجه حديثه إلى (كمال) قائلًا:

- ساعدني في حمل (بدر).

لم يعقب (خوسيه) وسار إلى (بيسان) حتى أصبح أمامها ومعه (ثريا) ثم أخبرها بنبرة متوعدة:

- كوني موجودة في تمام التاسعة، إذا تأخرتِ لثانيتين فودعي صديقتكِ وحبيبكِ.

لم ترد (بيسان) عليه، ونظرت إلى (ثريا) وهي تمسك يدها قائلة:

- ثقي بي.

أومأت إليها متنهدة، ومن داخلها تحدِّث نفسها «لن يسمح لهم (كمال) بأذيتي».

***

«قد لا تعطينا الحياة وقتًا كافيًا للفِهم، قد تتوالى الأيام دون أن تمنحنا فرصة للتفكير فيما مضى وما نعيشه وما هو آت، قد لا نمتلك وقتًا أبدًا لندرك منه ما الذي حدث؟! أو كيف، ومتى وقعنا به؟!»

هذا ما حدَّثَت به (بيسان) نفسها وهي تراقب (جواد) و(ثُريا) و(كمال) وهم يبتعدون عنها بينما كل ما تملكه من الأمر أن ترمق رحيلهم دون القدرة على فعلِ شيءٍ أكثر مما أقحمت نفسها وأقحمتهم فيه، تنهدت رافعة بصرها إلى السماء تتمنى لو تعطيها الحياة فرصة لتتنفس، لتلقف أنفاسها، لتستريح قليلًا، التفتت بوهنٍ إلى (مجد) لتجده منتظرًا إياها وعيناه منجذبتان بما يملؤهما من شوقٍ إليها، لحظات بطيئة من انعدام توازن الكون، حيث لا صوت حولهما، ولا متسعٍ من الرؤية سوى لما بينه وبينها، سارت نحوه وكلما قطعت خطوة إليه وأوشكت على إدراكه داهمتها أشباحٌ لتفاصيل جمعتها به وانفلتت منها، وأشباحٌ لتفاصيل أخرى تمنت لو أنهما تقاسماها معًا، تلوح بذاكراتها صباحات قضتها تنظر إليه وأخرى قضتها تتمنى رؤيته، يداهما متشابكتان، ويداها تسترقها منه، لماذا أتى وهي التي آذته وتركته؟! عدلت عن المضي إليه وأخذت تتأمله وهي ثابتة البنيان مرتجفة الوجدان تندفع بنظراتها إليه وتكبلها حماقاتها ونأيها مسبقًا عنه، ابتسم مدركًا ما يشغلها، هو أكثر ارتباكًا منها لكنه بعد مضي عامين من الهجر أصبحت لديه تلك القدرة التي تمكنه من فهمها بشكلٍ أوضح، أصبح متمكنًا من قراءة ذاك الجزء المخفي داخلها (بيسان) القوية المرتجفة، المرأة الناضجة العالقة في طفولتها، الصامدة بما أوتيت من صبر المنهارة بما وهبت من حب، ذات القلب الذي يسع كل الجمال والوجع في الكون، اتسعت بسمته أكثر وواصل وهو يدنو منها حتى وقف أمامها متأملًا ما أصبحت عليه، عيناها الرماديتان تتأرجحان بين التألق بالفرح والترقرق بالدمع، ثغرها ينم عن ابتسامة واسعة تكشف عن أسنانها ثم تتلاشى بسمتها شيئًا فشيئًا وكأنها لم تعلُ مبسمها ذات يوم، لا يوجد ما يمكن قوله، ومتى كان المحب يدرئ الشوق بالكلمات، ارتباكٌ ورجفةٌ مستتبة في القلوب، صمتٌ ونظراتٌ متعطشة، أنفاسٌ متقاربة، وزمانٌ لا يمر، أغمض عينيه متنهدًا ثم جذبها إليه، عطر الياسمين يداعب أنفه قربها إليه أكثر وهو يتنفس عطرها ليتوقف الزمان ولتنتهي الحروب وليعم السلام وتبقى له (بيسان) لتبقى للأبد بين ذراعيه، دفنت رأسها في صدره وتشبثت بأناملها به تخشى ضياعه تخشى انفلاته من جديدٍ، رفعت وجهها متأملة ملامحه ما زال أسمرَ جذابًا، ما زالت عيناه الداكنتان تسترقان نبضات قلبها، لم يتغير به شيء، ربما ما جدَّ على ملامحه انتمائها إليه، طبع قُبلةً على جبينها وهو يخبرها بنبرته المتلهفة:

- لم أستطع أن أبقى هناك من دونكِ ولحقتُ بكِ، كنتُ هنا طوال الوقت بجانبك، قرأتُ كافة خطاباتكِ وأعدتها مع (ثريا) حتى لا يربكك وجودي، الشكر

لصديقتكِ فلولاها لبقيَ قلبي ممزقًا غارقًا في خوفه، بقيت أراقبكِ طوال الوقت دون أن أقترب؛ لم أشأ أن أجعلكِ تائهة بيني وبين شيء لم أكن أفهمه، إلى أن أخبرتني (ثريا) عن أخيكِ الذي تبحثين عنه...

- دعنا نرحل من هنا يا (مجد)، لنرحل ثلاثتنا أنا وأنت وأخي.

قالتها وعينيها متشبثة بعينيه، ليجيبها:

- أعدكِ سنرحل ثلاثتنا معًا.

- لم تصدق أني استطعتُ تركك، صحيح؟!

ابتسم متنهدًا وأخبرها:

- عشتُ أسوأ كابوس في حياتي، لكني لم أصدق أن هذه التي تركت يدي هي (بيسان) التي تنظر لكل شيء بلطف، هذه لم تكن أنتِ لذا لحقتُ بكِ أردتُ أن أفهم.

- كنت خائفة أن تتأذى إن لحقتَ بي، تَرى كيف هي الحياة هنا لا ضمانات لأي شيء، خفتُ كثيرًا عليك لم أكن لأتحمل فقدك أبدًا يا (مجد).

- أنا هنا حبيبتي، أنا معكِ لا تقلقي من شيء.

***

(دانيال خوسيه) ليس بالرجل المغفل الذي يسهُل خِداعهُ، من وجهة نظره العسكرية أن (بدرًا) و(كمال) من أكفأ جنوده، لكن ظهور هذه الفتاة مع أصدقائها جوارهما مؤشرٌ خطير على ضياعهما منه، (بدر) لم يخذله من قبل، هو يدرك للغاية الحقد المتأجج في نفس (رحوم) تجاهه بسبب قربه منه، أما (كمال) فمنذ سنوات يعمل معه ولم يبدُ أي تقصير منه، مَنْ هذه الفتاة؟! هل الأمر حقًّا كما أخبروه، ولكن متى وكيف أحبها (بدر)؟! أرسل طالبًا أحد جنوده، والذي يُعَدُّ صديقًا مقربًا له، رجلٌ كبيرٌ في السن يصغره ببضع سنواتٍ -فقط- لكنه شديد الذكاء، لديه قدرة هائلة على معرفة أصول الأمور وحقائها والتحقيق في خباياها، سيستغرق وصوله بعض الوقت لكنه لن يأخذ قرارًا نهائيًّا بشأن (كمال) و(بدر) حتى يأتيه هذا الجندي ويستشيره..

طرق (رحوم) باب مكتبه وأخذ يسعى بهمسه حوله محاولًا التأثير عليه، إلا أنه طلبَ منه أن يخرج ويتركه ليفكر ثم أكد عليه أن ينتظر وصول هذه الطبيبة حتى يتولى أمرَ تجاوزها بوابات المعسكر وولوجها إلى مَخْدَعِ الأطباء ثم مباشرتها العمل.

في تلك الأثناء كان (كمال) و(ثريا) في مكانٍ واحدٍ حيث أمرَه القائد باحتجاز هذه الفتاة ومراقبتها، جلست (ثريا) إلى أريكة خشبية تعلو وجهها أمارات الغضبِ ولا تنبس بحرفٍ، بينما (كمال) أمامها مرتبك يقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا ثم يقف زافرًا ممسكًا رأسه بكلتا يديه وبعدها ينظر إليها بطرف عينيه ويعيد ما بدأه من جديد، قامت واقفة ليتسمر مكانه مراقبًا إياها بعينين متوجستين سارت عدة خطوات نحوه، ثم توقفت مغمضة عينيها مُتَنهِدة بثقلٍ ومرة أخرى عادت إلى أريكتها التي تركتها متراجعة دون أن تذهبَ إليه، أغمض عينيه عابسًا وهو يعض على ناجذه متألمًا مما يحدث بينهما الآن، معها حقٌّ في تجاهل ظهوره أمامها بعد هذه السنوات، هو اختفى دون أن يقول شيئًا، رمقها بعينين نادمتين يملؤهما الحزن، دفنت وجهها بين كفيها ولم تعد تنظر إليه أو لم تعد ترغب بذلك؛ ليستمر بدوره كشخص ميتٍ أخذت عزاءه وفقدته دون رجعة.

لم يستطع مغالبة نفسه أكثر واقترب منها ممسكًا يدها برفق محاولًا الحديث معها ليجدها تبكي ودموعها تغطي وجهها، سحبت يدها منه باضطراب وعنف شديدين مبتعدة عنه وكأنها تخاف من ملامسته لها، تراجع هو الآخر شاعرًا بانقباضة خانقة وظلَّ يراقبها متأملًا ما حدث الآن نهضت واقفة أمامه وهي تكفف دموعها نظراتها مهزومة رغم الغضب المتأجج بها، أراد أن يشرح لها؛ هو بحاجة لأن يخرج ما بصدره، ربما تفهمه وربما لا تفهمه أبدًا ولكن على الأقل من حقها أن تعرف ثم تقرر، خرج كلامه بصعوبة نبرته مختنقة راجفة وهو يقول:

- (ثريا) أنا...

لم يكد يزد عن هاتين الكلمتين حتى وجد كفها ينهال على وجهه لتصفعه، أشاح بوجهه جامعًا جفنيه بغضب وهو يزم شفتيه، لترد عليه وكأنها توجِّه له الصفعة الثانية:

- أنتَ ماذا؟! من أنتَ من الأساس؟! أنتَ رجلٌ لا أعرفه، لقد فقدتك في ذاك اليوم، أنتَ ميتٌ بالنسبة إليَّ!

كان ينفث أنفاسه بغضب نظر إليها بعينين متسعتين صارمتين وقال:

- لم أتحمل أن أظهر أمامكِ بهذا الشكل.

دفعته بوهنٍ وأجابته:

- كنتُ أثق بكَ، لم أصدق أنكَ خُنتَ جيشك لكن الآن.

أجهشت بالبكاء وهي تشير بيدها المرتجفة إلى ثيابه ليتدارك الأمر ويدنو منها ممسكًا بكفيه معصميها حتى يستطيع التحدث إليها دون تلقي ردة فعل

متهورة منها، وقال بنبرة حادة:

- لم أخن جيشي، ليس الأمر كما يبدو لكِ.

رفعت عينيها إليه بنظرات مستفهمة ليبدأ بالشرح، حكى لها كلَّ شيء منذ رحيله حتى التقى بالسيد (قدير) ثم صداقته مع (بدر) أخبرها كل ما مرَّ به ودوافعه وأسبابه لما أقدمَ عليه وما إن أنهى ما أراده حتى أفلت يديها رافعًا رأسه للأعلى وهو يتنهد وكأنما ألقى حملًا ثقيلًا عن عاتقيه، لم ينظر إليها من جديد وأدار ظهره لها دون أن يضيف شيئًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

«أمور الحُبِّ مُعقَدة، القلوب الليِّنة تتأذى، أصحاب الحجارة دائمًا يُواصِلون دون أن يلتفتوا للجثثِ المكومة خلفهم».

**

المعسكر الطبي، في تمام السابعة

سار الأمر بشكل سِرِّيٍّ دون أن يلفت انتباه أحد سواء من الأطباء أو جنود الحُماة القائمين على الحراسة؛ فقد عاد الكلّ مُنهكًا إثر المناوشات الأخيرة وبقي المكانِ ساكنًا شبه خالٍ، وكأنهم أرادوا جميعًا من غير اتفاق مُعلَن أن يأخذوا قِسطًا من الراحة، أن يتوقفوا حتى يلقفوا أنفاسهم ولو لبعض الوقت..

كان توقيتًا ملائمًا بالنسبة إلى (بيسان) كي تُنَفِّذ خطتها؛ دلفت بخطوات خفيفة إلى المخزن تحمل بيدها مصباحًا صغيرًا ذا إضاءة خافتة، وعلى ظهرها حقيبة قماشية ضخمة، جالت ببصرها بين الرفوف كل شيء حولها دقيق للغاية؛ الأدوية مرتبة ومسلسلة بحيث يسهل العثور عليها وأخذها دون مضيعة للوقت، نظرت إلى ساعتها أمامها نصف ساعة حتى تنتهي ثم تخرج من المعسكر، مررت الضوء على الرفوف ببطءٍ ثم توقفت لثانيتين أمام أحد العقاقير وفتحت حقيبتها وعبأت الكثير منه، ثم التفتت خلفها وبدأت تأخذ من بقية الأدوية كميات قليلة بالكاد تُعادل ما أخذته من الدواء الأول، ومن جديد بحثت بالمصباح بين الرفوف حتى وجدت ما تبحث عنه مدت يدها وتناولت بعض الأقراص ووضعتهم في جيبها، وبعدها خرجت دون أن تسمح لنفسها بالتفكير في شيء، خبأت الحقيبة داخل إحدى الغرف الخالية، وتركت المبنى آخذة جولة في المكان بالخارج، اتفقت مع (مجد) أن ينتظرها عند إحدى البوابات المُهمَلة للمعسكر؛ بوابة ضخمة قديمة لا يُولي لها الحرس اهتمامًا كبيرًا فقط يجلس أمامها جندي عجوزٌ وحيد مع بندقيته وجهازه اللاسلكي، وفي أغلب الأوقات يغط في النوم دون انتباه لما يدور حوله، ذهبت إليها فوجدته كما توقعت يغط في نومٍ عميق مستندًا إلى بندقيته. ألصقت أذنها بالبوابة لتنصت إلى محرك السيارة بالخارج، تنهدت مطمئنة لوصول (مجد) أخرجت ورقة مكومة من جيبها وألقت بها إليه كي يستعد، اقترب هو الآخر من البوابة وتحديدًا إلى الجهة التي رمت منها (بيسان) الورقة وأخبرها بصوت خفيض «أنا جاهز، لا تقلقي».

عادت مسرعة حيث تركت الحقيبة وحملتها متجهة بها إلى البوابة وألقت بها من أعلاها ليلتقطها (مجد) من الطرف الآخر ويخبئها داخل السيارة ويمضي متجهًا إلى البوابة الرئيسية ليأخذ (بيسان) دقائق وخرجت إليه، تجاوزت

البوابة وهي تلقي التحية على الحرس الذين التفوا حول طاولة خشبية صغيرة يحتسون الشاي ويتبادلون الحديث دون انشغال بمَنْ يدخل المعسكر أو يخرج منه..

صعدت السيارة وهي تلقي التحية على (مجد) نظر إليها مبتسمًا ثم انطلقا ما إن قطعا مسافة كافية داخل الصحراء حتى أوقفا السيارة مترجلين ذاهبين إلى الحقيبة، أفرغت (بيسان) محتوياتها وهي تقول له:

- ساعدني في تبديل هذه اللاصقات.

حملق إليها بعينين متسعتين وأجابها:

- ماذا؟!

مدت يدها لتبدأ بتبديل اللاصقات بين العقاقير، وأجابته دون أن تنظر إليه:

- أسرع، لا وقت أمامنا.

طاوعها فيما طلبته وبدأ بمساعداتها وهو يخبرها بنبرة قلقة:

- (بيسان) الأمر خطر، لن يستطيع أحدٌ إنقاذك لو اكتشفوا الأمر!

- أعدك أني سأخرج من هناك دون أن يحدث شيء.

- لا أستطيع أن أتركِكِ في هذا المكان وحدكِ سأذهب معكِ إلى الداخل.

- لا.

قالتها بحسم، ليرد:

- لن أكون مطمئنًا إلا إذا كنتُ معكِ.

- أنت ستأخذ (ثريا) وتبتعدان عن هذا المكان.

أمسك يدها وهو يقول:

- الأمر غير قابل للنقاش سأكون معكِ في الداخل.

- حسنًا أخبرني، ماذا سنفعل ثلاثتنا هناك؟! اسمعني أنت ستقوم بهذا الشيء من أجلي أنا أقحمتُ صديقتي في هذا الوضع وعليّ إنقاذها، كما أنني بلا شكٍ لن أُجازِف بكَ، لن أقحمك في هذا يا (مجد)، أتفهم؟!

***

لم يتحدث (كمال) مرة أخرى ولم تحاول (ثريا) أن تجتذب أي طرف للحديث للبدء منه، ربما استسلم كُلٌّ منهما للأمر، أو كما قالت (ثريا) من قبل «كمال

بالنسبة إليها رجل ميت، لتتابع حياتها دون التفات لهذا اليوم، أراد أن تراه كذلك فليبقى إذًا كما أراد» ربما هي قاسية قليلًا في ردة فعلها، ولكنه مزق قلبها وهذا أقل ما يمكن أن تقابله به..

حلّت التاسعة إلا ربع، ففتح (كمال) الباب الحديدي للغرفة الموصدة، ونظر إليها طالبًا منها أن تتبعه، قامت ولحقت به عدة خطواتٍ ثم استوقفته منادية إياه، وقف ملتفتًا إليها بنظراتٍ متسائلة، لتقول باعتداد:

- لا تنتظر منّي أن أسامحك وأنا كذلك لن أنتظر شيئًا كهذا منك، ولن أبرر لك..

- لن أجبركِ على هذا، كما أنه لا يوجد شيءٌ قمت به لأسامحكِ أي لستُ بحاجة لتبريرك.

- ستبقى دائمًا كما كنت، تعتقد أن أي شيء تتركه إما أن يترجاك لتعود، أو يقف حيث رحلت باكيًا عليك، ولكن لستُ أنا، لستُ من ضمن أشيائك التي تقف عاجزة عن الحياة.

- ليس لدي شك.

- لماذا؟!

- لأنها طبيعة البشر، يواصلون مهما بدا صعبًا.

قاطعته بصرامة ناظرة في عينيه وهي تردُّ:

- لكنه لم يَبدُ صعبًا، أتعرف لماذا؟!

هزّ رأسه مُستَفهِمًا وهو لم يتوقع الرد، لتستأنف مجيبة إياه:

- لأنه كان هناك رجل آخر يهوّن عليَّ، لقد أحببت رجلًا غيرك يا (كمال).

اقترب منها وهو يطالعها بنظراتٍ متفحصة ثم أجابها:

- لا تبدين بالنسبة لي كامرأة عاشقة..

- كيف أبدو لك؟!

- امرأة عالقة عند ذلك اليوم الذي فقدت حبيبها به، تبدين ضائعة للغاية، أستطيع أن أميز ذلك، أستطيع قراءة ما تحمله عينيك...

أجابته بعناد:

- إن سنحت الفرصة سأعرفك عليه، ربما تتوقف عن إيهام نفسك أن الناس يبكون طيلة عمرهم على موتاهم.

- ما اسمه إذًا؟!

ارتعش جفنيها ووجمت لثانيتين ثم أجابته بلا تفكير...

وصلت (بيسان) مع (مجد) إلى معسكر الغزاة، ولكنها رفضت الولوج دون أن ترى (ثريا) وتطمئن على رحيلها برفقة (مجد) انتظرت قليلًا حتى رأتها من بعيد تسير إليهما وأمامها (كمال) ما إن وصلا حتى تركت (بيسان) حبيبها متجاوزة البوابة لتقف بجانب (كمال)، وخرجت من بعدها (ثريا) إلى (مجد) كانت (بيسان) تراقبهما لتطمئن أنهما سيرحلان معًا من هنا، بينما (كمال) وقف يراقبهما لسببٍ آخر، ما إن رأت (ثريا) (مجد) حتى حضنته طابعة قبلة على خده وبعدها أمسكت يده بكلتا يديها متشبثة به، كان الأخير مرتبكًا، جامدًا، يرمقها باستغراب ولا يفهم ما الذي تفعله، أبعدها برفقٍ عن صدره متراجعًا خطوتين إلى الخلف وهو مازال يرمقها بنفس النظرات، أشار إليها ليرحلا ثم استدارا معًا صاعدَين إلى السيارة، و(بيسان) و(كمال) في الداخل يرمقانهما بنظرات ممتعضة ووجوه مكفهرة واجمة، التفت (كمال) إلى (بيسان) وسألها بعبوس:

- أهذا هو (مجد)؟!

لم تجبه من فورها واكتفت بالنظر إليه نظراتها، شاخصة مضطربة، بدت له وكأنها لم تفهمه فوجد نفسه مضطرًا أن يعيد سؤاله من جديد بنبرة أوضح، هزَّت رأسها بمعنى نعم دون التلفظ بها، ليتابع بنبرة خفيضة:

- هذا إذًا (مجد) الذي تحبه.

حدقت إليه (بيسان) وهي تسأله أن يكرِّر ما قاله، ليخبرها بنبرة متواترة وكأنه يسرد شيئًا يطالعه:

- لقد أخبرتني أن حبيبها اسمه (مجد) لذا لما رأيتهما يتعانقان ساورني الفضول فسألتك.

أجابته وهي تحملق فيه:

- أخبرَتك بهذا حقًّا!

- أجل، تبدين مستغربة قليلًا؟!

تلجم لسانها وبقيت تطالعه بنفس النظرات، استمر هو الآخر بالنظر إليها منتظرًا أن تقول شيئًا. ضحكت ساخرة ثم زمت شفتيها محركة رأسها وأجابته:

- لأنه شيءٌ خاصٌّ للغاية، بالأخير أنت شخص غريب هي لم تعرفك إلا منذ بضع ساعات، استغربت لأنها أخبرتك ببساطة.

بسط كفيه وهو يميل برأسه قليلًا وأجابها:

- وأنا أيضًا!

وصل (رحوم) قاطعًا حديثهما موجهًا حديثه إلى (بيسان) قائلًا:

- في ميعادكِ أيتها الطبيبة.

لم تُعِرهُ ردًّا وحملت حقيبتها ليستأنف باسطًا كفه وهو يقول:

- تفضلي معي من فضلك.

***

تجاوزت إحدى السيارات العسكرية كلًا من (بيسان) والجنديين مبطئة السير وهي تمر أمامهما كان زجاجها يحجب مَن بالداخل، وما إن مرت بهم حتى عاودت التقدم بسرعتها التي تجاوزت بها بوابات المعسكر، عقب (رحوم) وهو يتابع السيارة ببصره:

- إنه السيد (عاموس) على الأرجح.

اتسعت عينا (كمال) وانتبه أن عليه الذهاب فورًا، فالتفت إلى (رحوم) وهو يقول مصطنعًا سببًا لذهابه:

- إن شئت دعني أصطحبُ الطبيبة إلى مهجع المصابين.

أجابه بحسم ونظرات ثاقبة:

- لديّ أوامرٌ بأن أرافقها بنفسي.

أومأ إليه (كمال) ثم ردَّ:

- لا بأس، كنت أرغب بتقديم المساعدة فقط، لكن أتدري أشعرُ أني بحاجة لبعض الراحة، أتمنى لك التوفيق.

أنهى حديثه وانصرف مبتعدًا عنهم، حدثَ كما توقع وأبدى (رحوم) ردة الفعل التي أرادها (كمال) تحديدًا، تلفت فلم يجد أحدًا حوله فاتجه إلى حيث دلف (عاموس) لاحقًا به بيقظة وحذر شديدين حتى رآه يلج إلى مكتبِ السيد (خوسيه) اقترب حتى التصق بالباب وأطرق السمع حتى وصله حديثهما واضحًا...

بينما كان (رحوم) المغفل منشغلًا مع (بيسان) وهي تَمُر بين الأسرة تداوي الجرحى وتحقن الجميع بالمصل الذي جهزته هي و(مجد) خصيصًا من أجلهم، سألها (رحوم) عن هذه الأدوية التي تحقنهم بها فأجابته إجابة مقتضبة لا تسمح له بطرح سؤال آخر وهي « تابع عملك ولا تتدخل في عملي».

من المهم ألا تتجاوز مدة بقائها هنا الساعتين وإلا سيبدأ مفعول هذا المصل بالظهور، وإن حصل ذلك واكتشفوا خطتها فلن تخرج من هذا المكان أبدًا، لن تستمر حياة هؤلاء الجنود أكثر من ساعتين، أغمضت عينيها متنهدة وهي تُسِر إلى نفسها بأنه لا داعي لتفكر طويلًا في مصيرهم أو تأخذها رأفة بهم؛ فهؤلاء أخذوا منها عائلتها، سرقوا طفولتها هي وصغيرها (جواد) كما يسرقون حاضرهما الآن، إنها حتى لا تدري كيف سيكون مستقبلهما في ظلّ هذا الاحتلال، هي وأخوها مقحمان بينهم ولا يدريان كيف سينتهي بهم الأمر، هؤلاء يقتلون نساءهم وأطفالهم، لا يفرقون بين العجوز والشاب بين المُسِن والفَتِيّ، ينهبون أرضهم ويهدمون بيوتهم، مساجدهم، وكنائسهم، هم تركوهم أنقاضَ شعبٍ، أنقاضَ بشرٍ ولم يفكروا حين فعلوا ما فعلوه فيما يخلفونه في صدور ضحاياهم من نيران متأججة، حتى وإن لم تنجُ هذه المرة فستموت وقد أخذت انتقامها من كل واحدٍ من هؤلاء الجنود. كانت قد وصلت إلى السرير الأخير حيث يجلس (بدر) كان منهكًا، ولكنه على الأقل نجا، تبادل كلٌّ منهما النظرات ولم يتفوها بشيء في تلك الأثناء وصل أحد الجنود مناديًا (رحوم) ليذهب إليه محاولًا العودة سريعًا، أخرجت (بيسان) بعض الأقراص من جيبها وأخبرت شقيقها أن يأخذهم في مواعيد محددة، ثم دنت منه وطلبت أن يهرب من هذا المكان في أقرب وقت، ما إن لمح (بدر) (رحوم) موشكًا على العودة إليهم، حتى قام بتحذير (بيسان) مشيرًا لها ببصره لتفهمه وتصطنع أنها تنهض وهي تحمل بيدها حقنة فارغة. وصل (رحوم) موجهًا حديثه لها قائلًا:

- قائدي يريد أن يشكرك.

ثم التفت إلى (بدر) وأخبره بنفس النبرة:

- ويريدكَ أيضًا في مكتبه، تستطيع أن تنهض وحدك أليس كذلك؟!

ردت (بيسان):

- ما زال جرحُه غضًا، يستحسن أن تحضر له كرسيًّا ثم تأخذه إلى حيث تشاء.

أومأ إليها متفهمًا ثم أشار لأحد الجنود كي ينفِّذ ما طلبته، بعدها خرج ثلاثتهم متجهين إلى مكتب (دانيال خوسيه).

وصل ثلاثتهم إلى المكتب (رحوم) يدفع (بدرًا) بالكرسي و(بيسان) متأخرة خطوتين للخلف، كان (عاموس) لا يزال موجودًا يتفحص الجميع بنظراته

الثاقبة الضيقة التي تشبه نظرات الثعالب قبل الانقضاض على فريستها، نهض (دانيال) واقفًا أمام (بيسان) ثم مد يده إليها ليصافحها وهو يشكرها، لم تمد له يدها واكتفت بابتسامة مقتضبة بالكاد ظهرت على وجهها ليقاطع الجميع طَرق الباب، وصل (كمال) هو الآخر مؤديًا التحية العسكرية مخاطبًا قائده:

- لقد استدعيتني يا سيدي.

التفت إليه متجاهلًا (بيسان) وأجابه وهو يخطو نحوه:

- خُذ هذا.

قالها وهو يمد له مسدسًا، فالتقطه منه وهو يقطب حاجبيه باستغراب.

اتجه (خوسيه) إلى (بيسان) وأخبرها أن تقف خلفه، ثم أمر (عاموس) بإغماض عينيه والوقوف أمامه، بعدها نظر إلى جنوده قائلًا:

- بدلو أماكنكم.

لم يستطع (بدر) تحريك الكرسي بيدٍ واحدةٍ فتولَّى (رحوم) الأمر وقاده إلى أقصى اليمين، بينما وقف (كمال) في المنتصف و(رحوم) على مقربة خطوات منه، نظر (دانيال) إلى (كمال) وأخبره أن يطلق النار إلى الجهة التي يشير إليها (عاموس) مهما كانت، ثم أصدر أوامره إلى الأخير ليبدأ باختيار الجهة التي يريدها.

رفع (عاموس) يساره مشيرًا بسبابته ثم بدأ بتحريك يده حركة سريعة يمينًا ويسارًا بداية من (بدر) مرورًا ب (كمال) وصولًا إلى (رحوم) كرَّر ما فعله عدة مرات ثم استقر في المرة الأخيرة إلى الجهة التي يقف فيها (رحوم) كانت إشارته مائلة لأسفل قليلًا، قال (خوسيه) موجهًا حديثه إلى (كمال):

- الآن أفرغ الطلقات.

ازدرد (كمال) ريقه وهمّ (رحوم) بالتراجع، ولكن (كمال) أطلق أولى رصاصاته إلى الزاوية التي أشار إليها (عاموس) قبل أن يتحرك (رحوم) فأصابت فخذه ليبدأ بالتأوه بصوت عالٍ صاخب وتخر ساقه قليلًا فيقف متحاملًا على الأخرى مستندًا بكلتا يديه إلى الحائط، غير (عاموس) مَيْل سبابته إلى الأسفل قليلًا ليطلق (كمال) رصاصته الثانية فتصيب ركبته فيصرخ ويفقد اتزانه فيقع إلى الأرض كان ينظر إلى قائده منتظرًا أن يوقف (عاموس) منتظرًا أن يقول شيئًا، أن يأمره مثلًا بتغيير اتجاه الطلقات، كان العرق يتفصد على جبينه يتنفس بسرعة تحمل عيناه مزيجًا من الفزع والتوسل، أشار (عاموس) إشارته الثالثة فكانت تجاه الحائط فأطلق (كمال) ليجد أنه لم يعد بسلاحه طلقاتٍ ليصيب أحدًا بها ربت (خوسيه) على كتفِ (عاموس) ليفتح عينيه ناظرًا

إلى (رحوم) الملقى أرضًا والدماء تغطي الأرضية من حوله ثم يقول له بشماتة بادية من نبرته:

- أنا آسف يا صديقي، لم أتعمد اختيارك ولكنك كنت في الجهة الخاطئة.

لم تستغرب (بيسان) ما رأته، تحرك (خوسيه) مبتعدًا من أمامها دون أن ينتبه إلى سلاحه وأنه لم يعد يحمله، ثم تحرك (عاموس) إلى المكتب وأخذ سلاحًا آخرًا وأعطاه إلى (بدر) نظر (بدر) إلى (خوسيه) بفضول ليقول الأخير:

- الآن دوري لأختار أنا.

أشار إلى (كمال) ليتنحى جانبًا ثم رفع يمناه موجهًا سبابته إلى (بيسان) وهو يستأنف حديثه مع (بدر):

- هذه هي الطريقة الوحيدة كي تثبت ولاءك لي، اقتلها!

حملق فيه (بدر) دون أن يرفع سلاحه ثم نظر مطولًا إلى شقيقته ثم إلى (كمال) ومن بعده (رحوم) وأخيرًا إلى (عاموس) ثم رفع سلاحه إلى (بيسان) وهو يملأ عينيه منها وضغط على الزناد.

***

اقترب (كمال) حتى التصق بالباب وأطرق السمع حتى وصله حديثهما واضحًا، كان (عاموس) يقول موجهًا حديثه للقائد:

- لا تثق بكل ما تسمعه من (رحوم) وهذا لا يعني أنّي أطلب منك التغافل عما فعله الجنديَان الآخران، فكما قلت ظهور هذه الفتاة مؤشرُ خطر.

- لكني أريد اتخاذ إجراء صارم مع (بدر) و(كمال).

صمت (عاموس) وبدا أنه يفكر، ثم ردّ:

- اسمعني، نحن بحاجة لهذين الجنديين لستُ مع قرار فصلهما من الجيش أو إحالتهما للسجن العسكريّ، لكني أفكر في شيء آخر.

تحمس (خوسيه) كما ظهر من نبرته وهو يقول:

- أخبرني فيم تفكر؟!

اقترح (عاموس) عليه استدعاء الكل إلى مكتبه بمن فيهم الطبيبة و(رحوم)، ثم طلب منه تجهيز مسدسين الأول معبئ بالطلقات والآخر فارغ، سيبدأون بالمسدس الممتلئ وسيعطونه إلى (كمال). استأنف وصولًا إلى المسدس الآخر الفارغ الذي سيمنحونه إلى (بدر) وبعدها أنهى حكاية خطته قائلًا:

- منه تتأكد من ولائهما لك ولجيشكَ ومنه تحذرهما من تكرار شيء كهذا وإلا لن تلتفت لحياتهم.

- من الجيد أني انتظرت مشورتك.

لم ينتظر (كمال) ليستمع أكثر من ذلك وعاد بنفس الحرص والحذر إلى غرفته دون أن يُشعِر أحدًا بمجيئه أو رحيله..

***

كانت نظرات (بيسان) و(بدر) مربكة لمن حولهم تشيع في نفوسهم الاحتمالات دون نتيجة حاسمة، الكل يراقبهما وينتظر، نظر مطولًا إلى شقيقته وبادلته النظر، عيناه تخبرانها أنه لا يستطيع أذيتها، وعيناها تطلبان منه أن يفعل حتى لا يتأذى هو، عيناه تقولان إنه لن يعبأ لنفسه وسيفاديها، وعيناها تقولان إنها مستعدة للتضحية من أجله، شعر بطنين في رأسه وألم يمزق أحشاءه، فأشاح ببصره بعيدًا عنها عله يتمكن من فعل شيء لإنقاذها التقت عيناه بعيني (كمال) الذي رمقه بنظرات ثابتة مع إيماءة موجبة طفيفة معناها أن يفعل ما قاله (خوسيه) التقط (بدرًا) مقصده ووضع ثقته فيه ثم حول نظراته من (كمال) إلى البقية حتى لا يشعر أحدٌ بشيء، استجمع شيئًا من قوته ورفع سلاحه إليها ضاغطًا على الزناد ليجده فارغًا من الطلقات، تنهَّد شاكرًا الله بينه وبين نفسه، ليتبع ذلك تصفيق (دانيال خوسيه) معقبًا بتباهٍ على استجابة (بدر) له:

- هؤلاء هم جنودي الذين أعرفهم، أحسنت.

ثم التفت إلى (بيسان) متجهًا بخطواته إليها، كانت واقفة تجمع يديها خلف ظهرها، ابتسم بودٍّ مصطنع وقال:

- لقد وعدتكِ أن تخرجي آمنةً من هنا إذا أسعفتِ جنودي، وأنتَ قمتِ بواجبك على أكمل وجه والآن دوري لِأفي، فقط سأطلب منكِ طلبًا أخيرًا من أجل سلامة (بدر)؛ ابتعدي عنه لأنه...

قطع حديثه اندفاع الباب بشكل مفزع، ليلتفت الجميع إليه بترقب، وقف جنديان بالكاد يلقفان أنفاسهما استجمع أحدهما قوته وقال بنبرة متقطعة مفرقة:

- الجنود.. في المهجع.. الصحيّ.. ليسوا بخير.

لم تكن (بيسان) غافلة عن مرور الساعتين، ولم يكن (دانيال خوسيه) ليغفر لها فعلتها، لم تمهلهم ليتساءلوا كيف؟! أو ما الذي حدث؟! وأخرجت السلاح الذي أخذته من (خوسيه) دون أن تجعله يشعر وصوَّبته إلى رأسه، وهي تصرخ

في الجميع أن يضعوا أسلحتهم أرضًا، ارتبك كلّ مَن كانوا بالمكتب حتى إن الجنديين اللذين دلفا آنفين انبطحا أرضًا واضعين سلاحهما مع البقية، كانت تضع إصبعها على الزناد مباشرة والمسدس ملتصق بين عيني (دانيال خوسيه) نظرت إلى عينيه بثبات وقالت:

- ارفع يديك، وتحرك معي دون أن تستدير.

كانت تتحرك بخطوات جانبية وهو أمامها والمسدس ما زال مثبتًا في جبينه، استأنفت:

- اطلب من جنودك أن ينصرفوا.

نظر إليها بغضب، لترفع صوتها أكثر:

- هيَّا وإلا أطلقت عليك.

صرخ فيهم جميعًا لينفذوا ما قالته، خرجوا من المكتب متتابعين، لتستوقف (عاموس) قبل أن يلحق بهم قائلة:

- أنتَ أيها العجوز، لا تذهب.

تراجع عدة خطوات إلى الدخل لتتابع:

أغلق هذا الباب اللعين، ظنَّ (خوسيه) أنها مشتتة بما تقوم به فحاول عرقلتها، ما إن همَّ بالتحرك حتى صدمته صدمة قوية في رأسه مستخدمة المسدس دون أن تطلق، تشوشت رويته وشعر بدوَّار وزاد الأمر سوءًا تسلل الدماء من جبينه إلى عينيه، اختل توازنه قليلًا متراجعًا إلى الخلف محاولًا الاستناد على شيء لكنه لم يجد سوى الفراغ خلفه فسقط مرتطمًا بالأرض، وجهت سلاحها مسرعة إلى (عاموس) اقتربت منه حتى أصبحت خلفه ثم طلبت منه التقدم أمامها وهي تضع السلاح في مؤخرة رأسه، طلبت منه أن يفتح الباب وخرجا من المكتب، ما إن تركت المكتب حتى دلف الأربعة الذين أخرجتهم قسرًا ليروا قائدهم، ليجدوه ممددًا على الأرض الدماء تغطي راسه، لكنه كان واعيًا بعض الشيء، نظر إليهم وهو يقول:

- أحضروا هذه الفتاة لي، ولكن أحذركم أن يصاب (عاموس) بخدش.

تبادل (بدر) و(كمال) النظرات، ليستأنف (خوسيه):

- أنتما خارج هذه المهمة، سيتكفل الجنود بذلك.

في تلك الأثناء كانت (بيسان) قد غادرت المبنى طلبت من (عاموس) التوجه إلى سيارته التي أتى بها، ثم أمرته بفتحها أخرجت من جيبها حقنة مخدرة،

غرزتها في معصمه بخفة لينظر إلى يديه بلا استيعاب ثم يشعر بتوازنه يختل، دفعته إلى السيارة وهي تقول:

- من الجيد أني استعرتُ هذه الحقنة من الداخل.

اتجهت إلى الباب الآخر وصعدت وقادتها بسرعة مثل التي دلف بها إلى المعسكر، ما إن رأى الحرس السيارة تقبل عليهم حتى فتحوا البوابة على مصراعيها لتمر، ظنًا منهم أن (عاموس) هو الذي يغادر كما أتى، ساعد (بيسان) كذلك على إتمام هذه المهمة أن السيارة مزودة بزجاج لا يسمح لمن بالخارج برؤية من يجلس بالسيارة.

***

قطعت الصحراء ما بين معسكر الغزاة ووجهتها وهي تقود بأقصى سرعة ممكنة تتلفت من حين إلى حين إلى هذا العجوز الغائب عن الوعي بجوارها، حتى لمحت على مقربة منهم ضوء سيارة متوقفة في الطريق هدأت من سرعتها حتى لا تجذب انتباه أحد، لكنها ما إن تجاوزتها بعدة مترات حتى توقفت متراجعة بسيارتها إلى الخلف ترجلت متجهة إلى السيارة الأخرى ليترجل راكبوها مثلها، (مجد) و(ثريا) اقتربا منها ليحتضنها (مجد) بقوة يوشك أن يخبئها بين ضلوعه عانقته هي الأخرى، ثم نظرت إلى (ثريا) همت (ثريا) بالاعتذار لتوقفها (بيسان) متحدثة قبل أن تنطق بشيء، قائلة:

- ساعداني بسرعة.

تبادل الاثنان النظرات دون فهم ليجداها تسير متجهة إلى السيارة، لحقا بها حتى فتحت باب السيارة للمقعد المجاور للسائق، ليريا هذا الجندي الغائب عن الوعي، لم تمهلهما ليتساءلا وأخبرتهما بنبرة جادة:

- ثلاثتنا في خطر، خذا هذا العجوز إلى القائد (يونس) أخبراه أن شقيقي سيشرح له كل شيء وإلى هذا الوقت عليهم إبقاء ذاك العجوز في السجن!

لم يستوعبا بوضوح، فتابعت:

- هيَّا لنحمله إلى سيارتكم سيستيقظ في غضون ساعة ونصف.

نقلاه للسيارة الأخرى، لتمدَّ يدها إلى (مجد) بالسلاح الذي كانت تحمله، وقالت:

- احتياطيًّا إذا ما استيقظ، اسمع لن يستغرق وصولكما للمصنع الحربي أكثر من نصف ساعة، قودا بأقصى سرعة ولا تغادرا إذا لم يسمح لكم القائد بالذهاب!

أنهت حديثها ليصعدا إلى السيارة وينطلقا بها. وقفت بضع دقائق حتى رأتهم يبتعدون عن مَرمَى بصرها ثم صعدت إلى سيارتها سالكة اتجاه آخر وهو اتجاه عمودي على معسكر الغزاة يؤدي إلى المنطقة الشرقية للضفة، وكما توقعت لم تمر بضع دقائق على مفارقتها (مجد) و(ثريا) حتى وجدت جنود (خوسيه) خلفها، واصلت القيادة محاولة أن تشغلهم ليمر وقتٌ كافٍ تطمئن معه من وصول (مجد) و(ثريا) إلى المصنع الحربي.. قطعت قرابة النصف ساعة ثم توقفت السيارة عن السير؛ لتكتشف أن وقودها نفد، ترجلت منها راكلة الإطارات بغضب، نظرت حولها لتجد نفسها عالقة في صحراء خالية إلا من جنود (خوسيه) الذين التفوا بسياراتهم ومركباتهم الحربية حولها، لم تجد أمامها حلًا سوى الاستسلام، كانت تعرف أنه يريدها حية ليأخذ انتقامه منها بيده، أكد لها ما دار بعقلها امتناع الجنود عن إطلاق النار عليها وقتلها حاوطها عددٌ من الجنود ثم تقدَّم أحدهم واضعًا الأصفاد الحديدية في يدها، وعندما توجَّه ثلاثة جنود إلى السيارة التي هربت بها من معسكرهم وفتشوها وجدوها خالية، ولم يعثروا على (عاموس) فيها.

***

معسكر الغزاة، يناير2020م

- حينما تكون وحيدًا لن تجد الأفكار صعوبة في القضاء عليك، أعلم أنكَ هنا، أستطيع تمييز حضورك بشكلٍ ما، أخبرني كيف حالك هل تحسنت قليلًا؟!

لم يأتِها رد فبقيت صامتة دون أن تُعقِب بحرف، فقط تركت مكانها والتجأت إلى زاوية بعيدة وجلست مستندة بظهرها إلى الحائط، رافعة عينيها متأملة السقف، حتى استمعت إلى صوتٍ ما، فالتفتت لتجده مرر لها ظرفًا عبر عقب الباب، نظرت إليه ثم قامت والتقطته بيدها وبقيت واقفة قليلًا باحثة بعينيها عنه وهي تحدث نفسها دون تصريح بما يخالجها «لن أستطيع أن أقترب أكثر من ذلك، رؤيتي لكَ ستشكِّل خطرًا عليك».

***

ظلَّ (بدرًا) مُنِحَنيًا مُطرِقًا رأسه للأسفل يفصل بينه وبين شقيقته هذا الباب اللعين ولكنه لا يستطيع تجاوزه، لا يستطيع إخراجها أو تحريرها، استمع إلى خطواتها وهي تدنو من الباب ملتقطة الظرف الذي مرره لها، أغمض عينيه كاتمًا أساه بين جفونه ونظر إلى حارس الزنزانة الذي أسدى إليه هذه الخدمة ملوحًا بيده كإشارة على الشكر ونهض متراجعًا إلى زاوية بعيدة حيث يمكنه مراقبة شقيقته دون أن تراه، كان باب الزنزانة من تلك الأبواب ذات الحديد المُصمَت الخالص، به فتحة مستطيلة ضيقة للغاية ذات سياج بالكاد تسمح للعين بتبادل الرؤية بين الداخل والخارج، (بدر) يترقب أن تظهر شقيقته

و(بيسان) واقفة في الداخل باحثة بعينها عنه دون أن تراه، تمكن بصعوبة من رؤيتها بينما لم تسنح لها الفرصة أبدًا لتمتلئ روحها منه، تراجعت إلى الداخل مُلتَجِئة إلى زاوية الغرفة مفضلة ألا تتسبب في إيذائه خاصة مع تواجده في هذا المكان كجاسوس وليس كجندي من جنود الغزاة، لو كُشِف أمره لن يتركوه على قيد الحياة، لن تسمح لأحدٍ بإيذائه، لن تعطي أحدًا هذا الحق ما دامت على قيد الحياة!

لما رآها وهي تنسحب زم شفتيه وهو يطرق رأسه من جديد متى كان عاجزًا إلى هذا الحد؟! وجد شقيقته أخيرًا ولكنه لا يستطيع أن يكون بقربها فرت دمعة من عينه ليكفكفها مشيحًا بوجهه مسرعًا إلى الخارج وهو يقسم على نفسه أن يخرجها من هذا السجن اللعين حتى وإن اقتضى الأمر أن يدفع روحه في المقابل..

رغم كل ما حلَّ بهم في الآونة الأخيرة لم يتوقف (رحوم) عن مراقبته، ورغم حالته المتدهورة وعكازيه اللذين يتوكأ عليهما كان مُصِرًّا أن يُشعِل فتيل النار الخامد في قلب (خوسيه) كان يعلم أن قائده ليس بهذا الغباء ليتركه هو و(كمال) دون أن ينتقم منهما، يعلم أنه لم يقتلهما إلا من أجل إبقائهما تحت عينيه، عيون ضيقة خبيثة نظرات متأججة بالحقد تتحرك عيناه مع خطوات (بدرٍ) المثقلة حتى اختفى الأخير عن ناظريه وسلك (رحوم) بصعوبة وبطء طريقَه إلى مكتب (خوسيه)، طرق الباب ليسمح له قائده بالولوج لم يدعُه للجلوس فقد كان في الآونة الأخيرة مثل المتخبط يعاني ما بين ذكائه كقائد عسكري وكبريائه الذي دهسته الأقدام، الأكيد من كل ما حدث أنه يحمل ضغينة لا نهاية لها تجاه هؤلاء الثلاثة (بيسان) و(بدر) و(كمال)...

قص (رحوم) عليه ما حدث، ليطلب (خوسيه) استدعاء حارس الزنزانة الخاصة بـ (بيسان) وبعدما تأكد مما أخبره به (رحوم) أمر بحبس الحارس واستبداله بغيره، ثم نظر إلى (رحوم) بعينين حمراوين كالجمر وأخبره بنبرة غاضبة:

- أريد جُثة (بدرٍ) اليوم قبل أن يحل المساء، إن استطعت اقتله حالًا.

ابتسم (رحوم) ابتسامة جانبية صفراء، واستأذن سيده ليخرج، لم تكن إصابته لتسمح له أن ينفذ هذه المهمة وحده ويقتله بنفسه، لذا أوكلها إلى أحد القناصة وهو يعرف أن احتمالية إخفاق هذا الرجل مستحيلة، في ذلك الوقت كان (بدر) و(كمال) جالسين في المهجع بمفردهما حيث ترك باقي الجنود المكان منشغلين بأمور أخرى، مما شكل لهما فرصة مواتية للحديث؛ لم يعد من الآمن لكليهما البقاء في معسكر الغزاة كجنديين منتميين إليه ولو صوريًا، نظر (كمال) إلى (بدر) وهو يخبره بهمس خفيض:

- لن يتركنا (خوسيه) لنعيش كثيرًا، لقد شدَّد علي السيد (قدير) بأن نهرب إلى المصنع الحربي قبل أن يقتلونا، هناك لن يتعرض إلينا أحد كما أنهم لن يستطيعوا التوصل إلى مكاننا مهما حاولوا، تعرف أن (خوسيه) لم يبقِنا أحياء بعد ما فعلته (بيسان) إلا ليطمئن أننا أمام عينيه ولن نتملص من مصيرنا الذي يحيكه على مهل!

رمقه (بدر) بتفهم ممزوج بالحزن:

- لا أستطيع أن ارحل دون شقيقتي.

طرق الباب ليوقفا حديثهما ويتطلعا إليه، دلف أحد الجنود مناديًا على (بدر) مخبرًا إياه أن هناك أمرًا ضروريًّا متعلقًا بالسجينة التي أنقذته، لينهض (بدر) فزِعًا لاحقًا به ليتحدثا، لم يطمئن (كمال) إلى الرجل فأخذ سلاحه ونهض من خلَفهما مراقبًا لهما دون أن ينتبها إليه، بدأ الرجل يتحدث إلى (بدر) وهو يتقدم في السير والآخر يجاوره منصتًا بإمعان حتى وصلا إلى غرفة ضخمة للمعدات كانت خالية تمامًا من أي شخص عداهما نظر الجندي إلى (بدر) وهو يقول:

- المكان مناسب هنا لنتحدث، ما رأيك؟!

لم يشعر (بدر) بالراحة، كان ينظر إليه متأملًا نظراته وهو يتحدث إليه فأجابه بهدوء دون أن يلفت انتباهه لما لاحظه:

- أتفق معك، تفضل.

ختم جملته باسطًا يده ليتقدم الآخر أمامه، لكنه أصر أن يتقدمه (بدر) لم يصعب على (بدر) توقع الآتي لكنه فعل كما أراد الجندي وتجاوز الباب أمامه ببضع خطوات يسيرة، أخرج الجندي سلاحه وسدده إلى رأس (بدر) من الخلف وقبل أن يطلق، أخذ ضربة قوية على رأسه من الخلف أسقطته مغشيًا عليه، التفت (بدر) في فزع ناظرًا إلى الجندي وهو ينزف وإلى السلاح الذي بين يديه، ثم نظر إلى (كمال) نظرة امتنان وقبل أن يتفوه بشيء، بادره (كمال) وهو يقول:

- لنذهب الآن، لن تستطيع أن تنقذ شقيقتك وأنتَ هنا، إن كنت تريد حقًّا إخراجها من هذا المكان لنفعل كما طلب منا السيد (قدير) ونذهب إلى المصنع الحربي.

أومأ إليه (بدر) متجاوزًا الرجل وخرجا مسرعين، هاربين إلى المصنع فهو المكان الأكثر أمانًا لكليهما، ومنه يستطيعان التدبير بشكل صائب لإنقاذ (بيسان).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(الفصل السابع والأخير)

الضفة الغربية، بعد مرور ثلاث سنوات..

(1)

«عندما تُفكِر فيما لا تُريد حدوثه تأكد أنّه حتمًا سيحدث».

**

منزل (بيسان) في الضفة الغربية..

- الكُلّ كان ينتظر الكُلَّ كان لديه الأمل ولكن...

اختنقت نبرته قبل أن يُكمِل ولم يستطع مغالبة دموعه، ربت السيد (عليّ ناصف) على كتفه وهو يطرق برأسه إلى الأرض ثم أجابه:

- جميعنا لم نُصدِق بعد!

لم يُعقِب على ردِّه واكتفى بالصمت، ليتابع السيد (عليّ):

- اعذرني على المجيء بلا موعدٍ مسبق، ولكني بحثتُ طويلًا عنك، حتى إنّي لم أصدِّق بعد توصلي إلى عنوانك أني سأجدك حقًّا؛ لذا لم أُفكِر طويلًا ونهضت مسرعًا إليك، أين اختفيت طوال تلك السنوات؟!

التفت متطلعًا إليه وآثار بكائه على وجهه لم تجف بَعدُ، أخذ نفسًا عميقًا وهو يهز رأسه مُتَفهِمًا، ثم ردَّ:

- لم أستطع البقاء في أي مكانٍ لا هُناك ولا هُنا، جربتُ أشياءً عديدة ولم أُفلِح في أيٍّ منها، مهما فعلت وأينَ ذهبت لا أتمكن من إسكاتِ رأسي، أُفكِر باستمرارٍ بها، كُلُّ شيء مَرَّتْ به وكل شيء تحمَلَتْهُ وبالأخير ما حَصلَتْ عليه، هذا ليس عادِلًا أبدًا!

سكت لهنيهة وهو يحوِّل ناظريه إلى صورتها على الجدار أمامه ثم عاود حديثه وعيناه ما زالتا متشبِثتين بها:

- الحياة تَخنِقُني كثيرًا من دونها، لم أغادر هذا البيت أبدًا منذ عودتي.

نظر السيد (عليّ) هو الآخر إلى صورتها لتلوح بذاكرته تفاصيل ذلك اليوم...

***

المصنع الحربيّ قبل ثلاث سنوات..

وقفت سيارات الغزاة أمام الباب الرئيسي للمصنع، خرج لهم السيد (يونس) ومعه السيد (قدير) بينما بقي الآخرون في الداخلِ حِفاظًا على سلامتهم..

ترجل (دانيال خوسيه) من إحدى السيارات في المنتصف، ثم تقدم حتى وقف أمامهما، نزع خوذته مبتسمًا ابتسامة خبيثة وهو يقول:

- كنتُ مارًا من هُنا فقلتُ لألقي السلام.

أنهى عبارته مشيرًا إلى جنوده، ليذهبوا تجاه إحدى السيارات المُصَفحة ثم يقوموا بفتحها لتظهر لهم (بيسان) جسدٌ مُلقَى على نقَّالة طبية، اقترب بها الجنود أكثر لتستبين ملامحها الشاحبة؛ شفتيها الزرقاوين المُحتَدِمتين عُنُقها الذي تظهر عليه بعض الجروح ومع الاقتراب أكثر أتضحت أنها آثار لحبلٍ غليظ شُنِقَت به، تقدم الجنود بالنقَّالة حتى أصبحوا أمام (خوسيه) فتوقفوا منتظرين أوامِره، ليقول بنبرةٍ قاسية غليظة وهو يرمق جُثَتها باحتقار:

- ألقوها إلى الأرض.

أمال الجنود النقَّالة لينحني (يونس) و(قدير) سريعًا في آنٍ واحد مُلتقطين جُثتها قبل أن تُصيب التراب فتتمرغ فيه، كانا واجمَين جامِدَين عاجزَين عن التفكيرِ أو الصراخ أو حتى الانقضاض عليه والأخذ بالثأر، جسدها بارد بين أيديهم ينقلان بصرهما بينها وبين (خوسيه) الذي وقف بكبرٍ يُدخِن سيجارته ينظرُ إليهم من الأعلى بعينين شامِتتين وعلى وجهه ابتسامة مُتَشفِية مُتَهكِمة، لم يُطل وقفته أكثر وأشاح بوجهه بعيدًا وهو ينفث دخان سيجارته موليًا ظهره لهما مُتَجِهًا إلى السيارة التي ترجل منها آنفًا وبعدها أصدر أوامره لجنوده بالانسحاب..

غابت سياراتهم عن العيون مُثيرة خلفها غبارًا شاحبًا، وما هي إلا ثوانٍ حتى التف جنود الحماة حول (يونس) و(قدير) حاملين جُثتها إلى الداخل ليلاقيها البقية (بدر) و(مجد) و(ثريا)، (كمال) والسيد (علي)...

لم يكن واضِحًا لهم سبب التفاف الجنودِ هكذا، أو ما يحملونه بين أيديهم فقد بدى المشهد غريبًا قابِضًا، خاصة مع خطوات (يونس) و(قدير) الوئيدة الهائمة التابِعة وكأنهما مُسيَران دون وعي بما يفعلانه، اقترب (بدر) و(كمال) منهما وهما يراقبان الجنود بأعينهما دون أن يريا جثتها بعد، سألا باستغراب:

- ما الأمر؟! لماذا أتى جنود (خوسيه) وما الذي يفعله جنودنا هكذا؟!

لم يلقيا ردًّا، وإنما كانت العيون تجيب بدلًا من الأفواه، شعر (بدر) بانقباضة في صدره، فأعاد أسئلته مرارًا و(يونس) و(قدير) ساهمان لا يُفهم من نظراتهما ما الذي حدث أو فيما يفكران؟! نقل (بدر) بصره إلى (كمال) ليجده يزمّ شفتيه للأسفل بمعنى أنّه لا يفهم شيئًا!

عاود متابعة الجنود ليشعر بطنين في رأسه مما جعله يغمض عينيه لتنعكس في مخيلته صورة شقيقته تئن بوهن تبدو له ضامِرة مُتعَبة، فتح عينيه بفزع

ووجد نفسه يتجاوز العجوزان متجهًا إلى الجنود أمامه بخطى مسرعة مضطربة حتى أصبح في منتصفهما لتقع عيناه على شقيقته، جمدَ مكانه مُنَطلِعًا إليها بعينين مُنَسعتين ونظراتٍ مستريعة خائفة ثم حوَّل نظراته إلى الجنود وهو يصرخ فيهما:

- ما الذي حدث لها؟!

أخذ يتحسس وجهها متفحصًا حالتها، يمسك رأسها ويحرِّكه يقبض على يديها الباردتين ثم يتركهما، ليعيد ما بدأه من جديد وفي كل مرة يناديها ولا تجيبه، جذبها إليه ليحملها وهو يهيم بخطواته مُتَقدِمًا إلى الأمام مُنتَظِرًا أن تستفيق، ينظرُ بين ثانية وأخرى إلى وجهها ويكرر نداءه لها حتى مالت رأسها على ذراعِه إلى الخلف ليرى آثار الحبل الذي اختنقت به حتى زهقت نَفْسها، الجراح التي خلفها على جيدها وآثار الدماء المحتدمة إثر الشنق، لِتفقِد قدميه اتزانهما ويخرُّ إلى الأرض جاثيًا على ركبتيه وهي لا تزال بين يديه.

كان يتأوه بصوت عالٍ منتحب، يصرخ ويضمها إليه، ثم يبعدها عن صدره متحسسًا وجهها وكأنه يتأكد أنها هي حقًّا، ينطق بكلمات مبعثرة غير مفهومة موجهة إليها، ثم يعاود صراخه وانتحابه من جديد، هرول إليه (مجد) وهو يتعثر يقع ثم ينهض حتى جلس أمامهما يرمقهما بفزع ينادي (بيسان) نداءات متكررة سريعة منتظرًا منها أن تُجيب يمسك يدها ويقبِّلها ويترجاها ولا تستجيب، ينظر إلى (بدر) وهو يسأله لماذا لا ترد؟! يتطلع إلى عينيه التائهتين بخوف، يهزّ كتفه كي يقول شيئًا، أي شيء يعطيه الأمل..

نهضَ واقِفًا وهو يراقب الجميع حوله تتناقل عينيه بين (ثريا) الجاثية أرضًا تصرخ منتحبة وتلطم وجهها ثم (كمال) ذلك الجندي الذي يبكي ويتردد بكاؤه في صدره، ومن بعدهما (قدير) و(يونس) و(علي) أخذ يردد بنفس السرعة المتعثرة ستكون بخير، ستكون بخير.. عاود النظر إليها بعينين متوسلتين متمليًا ملامحها وجهها الشاحب وشفتيها الزرقاوين جيدها الذي جُرحَ، جسدها الهامد بين يدي شقيقها الصغير جثا في التراب من جديد وهو يمسك رأسه بكلتا يديه وبدأ ينتحب ويعلو صراخه...

***

انتشله من شروده مع ذلك اليوم صوت (مجد) وهو يسأله:

- قلت لي إنك بحثتَ عنّي طويلًا؟!

التفت إليه واضِعًا يده في جيبه مُخرِجًا ورقة مطوية مُصفَرّة حبرها بارز ذات سمك رقيق يُنَبِئ عن انقضاء سنوات بعد كتابتها، لكنها وعلى الرغم من ذلك لا تزال مثلما تركتها له (بيسان) تحمل عطرها الياسمينيّ وبقايا لمساتها،

ومشاعرها ونبرتها الهادئة ذات الإيقاع الناعم الأخاذ، لم يكن من الصعب على (مجد) أن يميز أنها من حبيبته مدَّ يده والتقطها منه، قرَّبها من وجهه مستنشقًا عطرها ثم قام بفتحها ليقرأها وكأنه ينصت إليها وهي تُسِر له بحديثها، وكأنّه يرى قسمات وجهها وتعبيراتها وملامحها..

«إلى رجليّ الأوفى ومالك قلبي، (مجد)..

لم تمنحنا الحياة أكثر من ضمتين مرة حين خذلتك ورحلت والأخرى حين أرغمتك على المضي دوني، مهما كانت وجهتُك حول ما فعلته فأنا أعتذر كثيرًا لكَ، أردتُ فقط إبعادك عن كل هذا الخراب ولكني وبشكل ما عثرت عليك مُقحَمًا به والفضل في ذلك راجعٌ إليّ، لا أسامح نفسي من أجل أي شعور سيئ تسلل إلى قلبك بسببي ولا أُخفيك سِرًّا كم هو صعبٌ عليَّ أن أمضي محمَّلة بأوجاعكَ التي تسببتُ لكَ بها، فاغفر لي عسى أن يشفع لي حبي عندك، لو كان بيدي كنتُ سأختارك إلى آخرِ لحظة وآخر نفس، لو كان بيدي أن أنتشِل نفسي وأنتشِلك وأخي من الحرب، لكنتُ الآن مستندة برأسي على كتفك أُغمضُ عينيّ مطمئنة ثم أفتحهما وأنا أرمق أخي وطفلة صغيرة يُداعبِها، أتأمل ملامحها بحُبٍّ ثم أرفع وجهي متملية ملامحك بحُبٍّ يفوقه وأنا فخورة كم أن طفلتي تشبه أباها، الأمر مع الحرب شبيه بأحلام الفردوس نعيم لا وجود له في الواقع..

هناك العديد من التفاصيل التي حلمتُ بها معك ولكنها لن تتحقق أبدًا لن تتحقق إلا في مُخيلتي؛ ليس لأني فقدتُ الأمل في نجاتي من هنا، وليس لأني فقدتُ نفسي مع ما سلبته الحرب مني وما صفعتني به، ما زلت بكامل قوتي التي عَهدتني بها ولكنّي الآن لديّ سرٌّ آنفًا اطّلعتُ عليه، ولا أخبرك به لتأسى ولكن لتُبصِر فترضى، ثم تتمكن من المواصلة من بعدي ولا زالت لديكَ تلك القدرة على أن تبتسم للحياة!

رأيتُ في الليلة الفائتة طفلة صغيرة تلهو بدميتها تجلس في حجرِ أُمّها التي تعقد لها جدائلها وتمشط لها خصلات شعرها البُنّي، أحرِز ماذا؟! كانت الطفلة سعيدة رغم تأجج الحرب، كانت الأم مُطمَئِنة رغم استعداد الزوج لمغادرة البيت وسط استمرار القصف، أتدري؟! إنها أنا مع أُمي وأبي..

انتهت أمي من عقدِ جدائلي ثم نهضت ممسكة بيدي لتُلقِي نظرة على (جواد) الصغير، طفلًا رضيعًا ملامحه ملائكية ناعمة ترغبُ لو تستمر في تأمُّلِ براءته حتى تأتي آخر أيام الأرض، في تلك الأثناء فتح والدي باب المنزل وخرج لتُفلِت أمي يديَّ وتلحق به لكنها قبل أن تتجاوز الباب وتتركني مع أخي وقفت مُتَلفِتة إليّ وهي تقول:

- هيَّا، يا صغيرتي لقد حان الوقت.

نظرت إليها ثم إلى أخي وبعدها جريتُ إلى يدها الممتدة إليَّ فأمسكتُ بها وأنا أسألها:

- وماذا عن أخي هل سنتركه وحده هنا؟!

مسحت على رأسي بكفها وأجابتني بلين وهي ترمقه بعينٍ مشتاقة حانية:

- سيلحق بنا قريبًا. هيَّا دعينا الآن نذهب يا صغيرتي، والدكِ ينتظرنا.

أومأتُ إليها متجاوزة الباب برفقتها وأبي على مقربة منّا تحيطه بؤرة نورانية من الضوء الساطع يمد يده إلينا وتعلو قسمات وجهه السكون والفرح، جذبتُ أمي من ثوبها وسألتها آخر سؤال قبل أن ندرك أبي:

- هل وفيتُ بوعدي يا أمي، أم أنكِ غاضبة عليَّ؟! أخشى أن تكوني حزينة بسببي.

انحنت مقبِّلة رأسي ثم ابتسمت وحملتني وهي تضمني بقوة إليها وأجابتني:

- أنتِ أفضل فتاة رأيتها في حياتي، أنا فخورة للغاية بكِ.

عاودتْ بعدها النظر إلى أبي مبتسمة ثم مضت إليه وهي تحملني حتى أمسكت يده وقبَّل أبي رأسي وصحوت وقد بدأت ظهورنا تتلاشى في وسط الضوء..

أتدرك معنى هذا؟! لقد اقترب وقتي للغاية، أيًّا كانت الطريقة التي سأفارق الحياة بها فأريدك أن تعرف أني لن أتألم؛ لأنّه عندما تحِين تلك اللحظة ستكون أمي هي التي تتلقاني، ستكون هي وأبي بانتظاري، تعرف لا مكان على وجه الأرض أكثر أمانًا من أحضان الأمهات، تعرف كم هي ذات قيمة تلك الخُطى التي نقطعها متشبثين بأيدي الآباء، الآن أنا أمضي إليهم، فلتمضِ أنتَ إلى طريقك حتى ألتقي بك، إلى ذلك الحين سأبقى أُحِبك، سأنتظرك، سأنتظر على أملِ أن يجمعني الله في حياة أخرى بك، عِش سَعيدًا من أجلي، فكِّر في الأشياء الجميلة التي صنعناها والتي قمنا بها معًا، فكِر كم سيكون أجمل لو أبقيتني فخورة بكَ كلما تطلعتُ من السماء إليك، كلما اطمأن قلبي أن الأمور تجري معك على خير ما يُرام!

(مجد) يا حُبّ حياتي اعتنِ بنفسك جيدًا من أجلي، أعطِ لقلبك مساحة ليشعر ويُحِب، وأرحل عن هذه الأرض سالِمًا ولا تُفكِّر في العودة من جديد؛ تبتَلِعُكَ كما تبتلِعُ كل جميل مرَّ عليها، وأخيرًا أتمنى أن تصل رسالتي لك في وقتها، وإن جمعك مع أخي لقاء، فأبلغه أنني أحبه بصدق وأني عشتُ لأعود حيث أجبِرت على التخلي عنه، أخبره أننا ننتظره، أنا وأمي وأبي، وأنّي مشتاقة من هذا الوقت إليه، إن أمكنك لا تتركه وحيدًا من أجلي.

(بيسان)»

ظل شاردًا بعد أن أنهى قراءتها وكأنّه لم يستوعب أن كلماتها وصلت إلى نهايتها ولن تزيد شيئًا، كان يسأل نفسه وماذا عن الكلام المخزون في قلبي؟! ماذا عما أريدُ إخبارِكِ به؟! عليَّ أن أفعل شيئًا كي أكون مثل أمنياتك ولكن كيف أجد سبيلًا وطرقي موصولة بكِ؟!

***

يوم تنفيذ الحُكم على (بيسان)..

ذهب جنود (خوسيه) إلى الزنزانة لاصطحاب (بيسان) منها إلى منصة الإعدام، كانت مراسم الإعدام بالنسبة إليهم أشبه باحتفال ملكيّ أو وليمة عشاء ضخمة فقد عمّ المعسكر في ذاك اليوم حالة من السعادة وانتشاء النصر وكأنهم سيقتلون أهالي الضفة المُحتلين جميعًا بتنفيذ الحُكم..

سارت الأمور بشكل سريّ ومُباغِت فقد كان من المفترض أن يتأخر تنفيذ الحكم قرابة الشهر وحينها كان لا بُدَّ للسيد (عليّ) محامي الدفاع المشرف على القضية من إيجاد ثغرة أو شيء يساعدهم جميعًا على إخراجها، كانوا يفكرون كذلك في التفاوض بأن يرجعوا لهم جنديهم المأسور (عاموس) مقابل إطلاقِ سراحِ (بيسان) ولكن على ما يبدو أن ضغينة (خوسيه) وحقده أعموه حدَّ الجنون فعجَّل بالأمر دون إعلام الجهات المسؤولة...

تقدَّم (رحوم) الجنديان إلى داخل الزنزانة وفق أوامر قائده، كانت (بيسان) ساكنة مستندة إلى زاوية الجدار والظلام يواري ملامحها فلا يتبين أين تحط نظراتها أو ما تحمله عيناها، أجواء الزنزانة مختلفة تمامًا عما يشيعه الجنود في الخارج من مظاهرٍ احتفالية، أجواء قابضة مؤسفة موحشة، باهتة كالموت، بدأ (رحوم) يناديها بنبرة قاسية:

- هيَّا، انهضي.

لم ترد ولم تلتفت وكأن سمعها لم يتأثر بصراخه أو نبرته المتحجرة، زفر في حنق وهو يدقق النظر إلى الظلام في الزاوية التي تواريها، ثم عاد من جديد ليقول:

- ألم تسمعي أيتها السجينة.

مرة أخرى لم تجبه، فصرخ بنبرة أعلى:

- لا تجعلي صبري ينفد أُحذِّرُكِ هذه المرة.

ولما لم يغيرِ صراخه عليها شيئًا، التفت إلى جندي من الاثنين والذي كان يحمل سوطًا بيده، نظر إليه ليقترب الجندي إليها ويهوى بالسوطِ إلى جسدها، كانت ضربة مُدوية قاسية، ولكن لم تعقبها أي ردة فعل ولو حتى أنين مكتوم كعادة مَنْ يُكابِر مِن المساجين هنا، نظر (رحوم) إلى الجنديين وتبادل ثلاثتهم نظرات الشك، فاقترب (رحوم) من جسدها المُنكَمِش المُكَوَّم في الزاوية وصرخ عليها وهو يركلها بعنفٍ بالغ الشدة منتظرًا أن تُطاوِعه مُبدِية أي ردة فعل ولكن لا؛ لم يحدث ما انتظره وإنما سقط جسدها إثر الركلة المندفعة مرتطمًا بالأرض دون أن تصدر صوتًا.

بُهِتَت ملامِحُه وتسمر في مكانه بينما ركض الجنديان إليها مُتفحصين جسدها وملامحها ثم التفتوا إلى (رحوم) بخيبة أمل تشوبها الصدمة وأخبراه أنها ميتة!

جحظت عيناه مصعوقًا مما سمعه وظلَّ يحدق إلى جثتها دون استيعاب، مرَّ وقتٌ طويلٌ وهو عاجز عن القبول لا يعرف كيف يتصرف، أو كيف ستكون ردة فعل (خوسيه)؟! ثم نظر إلى أحدِ الجنديين طالبًا منه إعلام القائد بما جرى الآن، انصرف الجندي مسرعًا بينما انحنى (رحوم) بالقرب منها وهو يهمس مطرقًا ببصره إليها:

- هذه مشكلة أكبر، لن يَروي موتكِ هذا انتقام (خوسيه)!

لم يكد ينهي جملته حتى استمع إلى تقارُعِ أقدام مسرعة تصطدم بالأرض، دلف أحدُ أطباء الجيش وبصحبته بعض الجنود، وبعد دقائق وصل (خوسيه) كان الأخير مذعورًا وناقِمًا في آنٍ، يرفض التصديق رغم كل شيء، يتمنى من داخله أن تكون (بيسان) على قيد الحياة حتى يأخذ انتقامه منها كما تستحق، لا يرضيه أن تموت هكذا دونما عقوبة، نظر إلى الطبيب ليحرك رأسه يمينًا ويسارًا بمعنى أنها حقًّا فقدَتْ حياتها، نهض (رحوم) سائلًا إياه:

- ماذا سنفعل الآن؟!

بقي صامتًا والدماء تتفجر في وجهه من الغيظ، عيناه ترمقان (بيسان) بحقدٍ مبالغٍ لم يَدرأهُ موتها أو ما عانته. تحول الأمر في نفسه إلى عداوة شخصية أكثر من كونها قضية جيش هو قائده الأعلى!

كان الجميع يترقب ردة فعله بينما هو في أوج اشتغاله يقطع الزنزانة جيئة وذهابًا بغضب، رفع عينيه إلى (رحوم) وقال آمِرًا:

- أكملوا ما جئتم إليه!

التقت أعين الجميع بلا فهم، فحاول (رحوم) أن يتبين مقصد قائِده فسأله مُتوجِسًا:

- هل نُجَهز جثتها لننقلها إلى معسكر الحماة؟!

رمقه بنظرة حادة وأجابه إجابة مقتضبة:

- احملوها إلى منصة الإعدام.

تسمر جنوده وكل منهم ينظر إلى الآخر نظرات تنبئ عن الرفض والخوفِ في آنٍ، بينما همَّ هو بمغادرة الزنزانة فحاول الطبيب أن يستوقفه مُبدِيًا رأيًا آخر يخالف قائده فقال:

- سيدي، نحن لا نستطيع إعدام جثة؛ على الأقل جميعنا نعرف أن هذه الفتاة فقدت حياتها بسبب التعذيب الذي تلقته.

نظر إليه (خوسيه) وعلى شفتيه ابتسامة واسعة ثم أومأ إليه إيجابًا ومشى نحوه مصفقًا بتهكم ليتراجع الطبيب كلما اقترب منه، رفع (خوسيه) سلاحه مصوبًا إياه إلى رأسه مطلقًا ثلاث رصاصاتٍ متتابعة ليسقط الطبيب مُرتَطِمًا جسده بالأرض!

تطلع إليه الجنود بنظرات وجلة خائفة ولم يجرؤ أحدهم على إضافة شيء بعد ما لاقاه الطبيب أما من داخلهم فكانوا يرفضون تقبُّل الأمر، حملوا جثتها بشفقة بعد أن غطّوا رأسها وخرجوا بها وصولًا إلى منصة الإعدام، كانت الساحة مجهزة تمامًا؛ بئر مستطيلة مُغلقة، ذات بوابة حديدية مُصمَتة متَصِلة بمِقبض يتولى أحد الجنود سحبه، وما إن يفعل حتى تُفتح البوابة على مِصراعيها ويتدلى حبل الشنق بالجسد المحكوم عليه وكلما هبط أكثر ضاق أكثر حتى تنقطع حياة الإنسان بهذا الشكل المُروِّع!

كان الحبل عاليًا مسافة تتطلب من الجنديان حملها إليه، ما إن عبرت رأسها حبل الشنق واستتبت قدماها على غطاء البئر حتى ابتعد الجنديان وبدأ الجندي المسؤول عن فتح البئر بسحب المقبض لتنفتح البوابة محدثة صوتًا قابِضًا ثم يتدلى جسدها دفعة واحدة ويضيق الحبل أكثر فأكثر حول عنقها، وكأنهم لم يكتفوا بموت واحد وإنما أرادوا قتلها مرارًا وتكرارًا حتى ينطفئ حقدهم!

***

تنهد (مجد) وعلى شفتيه ابتسامة جانبية مُفِكرًا كيف كانت حالته قبل دقائق من وصول السيد (علي)...

كان جالِسًا وعيناه شاخصتان حيث صورة (بيسان) المُعلقة على الجدار أمامه، فرت دمعة من مُقلتِه فلم يتحمل مزيدًا من التطلع إلى غيابها، والتفت إلى السلاح الموضوع أمامه على الطاولة، عيناه مُتَقِدتان ضياعًا وألمًا مدَّ يده إليه عابِثًا بالطلقات الموضوعة جواره، هذا المسدس الذي أخذه منها في ذلك

اليوم الذي رآها لِآخر مرة فيه، مدته له ليحمي نفسه بينما عجَز هو عن حمايتها، بدأ يحدث نفسه: «ليتني ذهبتُ في ذلك اليوم عوضًا عنكِ، ليتني لم أسمح لكِ بالذهاب أبدًا، لا يمُر، لم يمر أبدًا من الأساس، سأُجن، لأيّ شيءٍ تركتِني، ولِمَن؟! لا أنتمي لهذا العالم، بربكِ ما الذي قد أفعله في هذه الحياة من دونك؟!»

لم يفكر أكثر ورفع المسدس إلى رأسه وهو يمسكه بكلتا يديه، ضمَّ جفنيه بقوة وقرَّب إصبعه من الزناد وقبل أن يضغط قُرِع باب منزله بشدة، فتح عينيه بانزعاج مُرخِيًا يده ونهض مُتَجِهًا إليه، وضع المسدس بالطلقات في أحد الأدراج مُخفِيًا إياه وبعدها فتح الباب، ليرى السيد (علي ناصف) أمامه، في البداية لم يُصدِّق عينيه ووقف مندهشًا دون أن يدعوه للدخول حتى أخبره الأخير:

- كيف حالك يا (مجد)، أتسمح لي بالدخول؟!

شعر بالحرج ودعاه ليدلف شقته، كان كل شيء مبعثرًا، فوضويًّا إن صح التعبير لا يوجد شيء في مكانه الصحيح، البيت مُختَنِق برائحة الدخان، وأكواب قهوة عديدة فارغة، بعض أقراص الدواءِ الخالية، اعتذر (مجد) منه ودعاه ليجلس وهو يرتب المكان سريعًا من حولهما ليبدئا حديثهما...

عاود من جديد النظر إلى الرسالة لتصطدم عيناه بالسطر الذي كتبت فيه «أتمنى أن تصل رسالتي لك في وقتها.» ليتنهد مبتسمًا وهو يتمتم: في الوقت المثاليّ أيتها الطبيبة، في الوقتِ المثالي قبل أن أنهي حياتي، لقد أنقذتِني مرة أخرى، واصل القراءة من ذلك السطر إلى نهايتها وهو الجزء الذي تتحدث فيه عن شقيقها (بدر) أو (جواد) كما تسميه حبيبته، تبددت ابتسامته من على شفتيه مسترجعًا ما حدث بعد أن وصلت جثتها إليهم في المصنع الحربيّ.

***

حمل (بدر) جثة (بيسان) إلى إحدى الغرف، أراح جسدها على السرير، وجلس إلى الأرض ممسكًا يدها بكلتا يديه مستندًا برأسه إلى طرف السرير جوارها ولم يبدِ أيّ ردة فعل؛ لأن كل شيء كان يدور بداخله، بدأ الجميع يتتابعون من بعده إلى الغرفة حتى أصبحوا كلهم بالداخل، تقدم (يونس) بخطواته إليه وانحنى جالسًا إلى جواره وهو يربتُ على كتفه والدموع متحجرة في مقلتيه، هو أقواهم ولم يتحمل، ضحك (بدر) ضحكة مختنقة بالبكاء مُبعِدًا يده عنه، قائلًا بنبرة خاوية:

- أنت من تسببت في كل هذا؟!

نزلت كلمته كالصاعقة على (يونس) وفهم ما يقصده فنظر إلى الأرض وأجابه بنبرة مكمودة محاولًا التبرير له:

- لما عرفت أن (ريتا) هي التي أخذتك، أعددت أوراق (بيسان) لترحل هي الأخرى من هنا، وطلبت من (عزيز) أن يكون كفيلها هناك، ظننت أنكما ستجتمعان من جديد بهذا الشكل، ما أدراني أنكما لم تلتقيا هناك مرة أخرى يا بني؟!

حملق فيه (بدر) بنظرات مُنكَسِرة، ثم التفت إلى شقيقته مُقبِّلًا يديها واسترسلت الدموع على وجهه بلا انقطاع، أجهشت (ثريا) هي الأخرى في البكاء من جديد، كانت الأمور قد اتضحت قليلًا لدى (كمال) فاقترب منها وضمها كان هو الآخر يغالبُ الانهيار ولكنه يتماسك من أجلها، لم يتحمل رؤية صديقه في هذه الحال ولم يجرؤ على الاقتراب منه ليواسيه، الكُلّ بلا استثناء شعر بالانكسار والفقد، يتحركون كما المُغَيب لا يدرك ماذا يفعل أو إلى أين سيُقاد؟! نهض (بدر) واقفًا بشيء من الثبات المُدَعى لكنَّ عينيه حقًّا كانتا تنضحان بنظرات مخيفة، سار إلى نهاية السرير جاذبًا غطاءً قماشيًا وقام بفرده على جسد شقيقته حتى غطى وجهها، كان (مجد) جالسًا إلى جوار الباب يضم ذراعيه إلى ركبتيه كاتمًا أنفاسه بكفيه دون السيطرة على نحيبه وصوت توجعه، عيناه معلقتان بـ (بيسان) لم تتحركا بعيدًا عنها، انتهى (بدر) مُوليًّا ظهره للسرير لتقع عيناه على (مجد) سار نحوه، ثم توقف أمامه وهو يمدُّ يده إليه لينهض (مجد) معه، ضمه وهو يربت على ظهره، وأخبره بنبرة متقطعة وكلمات ممزقة:

- صعبٌ للغاية أعرف، ولكن لن نتركهم يا (مجد) لن نتركهم من أجل (بيسان).

أنهى ما قاله متجاوِزًا باب الغرفة وعيناه متقدتان بلهيب الانتقام، ليلحق به (كمال) و(قدير) بسرعة ومن بعدهما (مجد) أما (يونس) فخرج مُتَجِهًا إلى الأسفل حيث توجد زنزانة (عاموس)...

صعد (بدر) وحده إلى إحدى سيارات الجيش وانطلق بأقصى سرعته مُتَجِهًا إلى معسكر الغزاة، لم يُخفِّف سرعة السيارة مع اقترابه من البوابة ولم يتمهل حتى يفتحها له الجنود وواصل القيادة بذات السرعة لتسقط البوابة مع الاندفاع ويواصل تقدمه إلى داخل معسكر الغزاة، أوقف السيارة أمام المبنى الذي يقع فيه مكتب (خوسيه) كان الجنود يلحقون به ولكنه كان سريعًا ليصل إلى مكتبه قبل أن يدركوه، دفع الباب بقدمه بعنف شديد ثم سدد له طلقة في كتفه قبل أن ينهض أو يفكر في شيء، ثم طلقة أخرى في ذراعِه ثم قام وجذبه من ياقته وهو ينزع عنه سترته الحربية ويأخذ أسلحته وقف الجنود أمام

الباب مندهشين عاجزين عن القيام بشيء منصتين إلى تهديد (بدر) لهم بعدم الاقتراب، أخذ يركله في جسده قدمه تصيب كل شبرٍ فيه وهو يصرخ به:

- لماذا قتلتها؟!

بينما كان الآخر يضُم يديه أمام وجهه محاولًا تفادي ضرباته، وصل (كمال) و(قدير) و(مجد) في الوقت المناسب ليتولوا أمر بقية الجنود، استمر تبادل الطلقات بين الطرفين وفي تلك الأثناء خرج (بدر) وهو يجر (خوسيه) من قدمه بعد أن أوسعه ضربًا ونزع عنه ملابسه العسكرية، أذله أمام جُندِه وظلّ يخبره بنبرة متوعدة:

- لن أقتلك بهذه السهولة!

خرج إلى السيارة التي أتى بها وقام بربط ساقيه في السيارة من الخلف وانطلق على الرمال متجاوزًا بوابة المعسكر، بدأ جسده يتجلط وينزف وأصبح كل شبرٍ فيه مغطى بالدماء بما في ذلك وجهه وكفيه، خرجت من خلفه بعض سياراتٍ الغُزاة وأخذوا يطلقون النار بحذرٍ كي لا يصاب قائدهم، ومن خلفهم (كمال) و(قدير) و(مجد) يطلقون كما شاءوا عليهم محاولين التخلص منهم قبل أن يمدوا الأذى إلى (بدر)...

أما (يونس) فكان قد أخذَ (عاموس) وقام بتقييده في سيارة معبأة بالمتفجرات، قاد به من المصنع اتجاهًا إلى معسكرهم اللعين وما إن أوشكوا على الوصول حتى قفز من السيارة ليبدأ المعسكر بالانفجار وتتأجج النيران بكل شبرٍ فيه...

كان (خوسيه) قد لقي حتفه، وكان (كمال) مع (مجد) و(قدير) قد قضوا على كل السيارات عدا واحدة باقية خرج جندي منها وسدد طلقاته إلى إطارات السيارة التي يقودها (بدر) لتفقد السيارة توازنها وتنقلب عدة مرات وتبدأ بالاشتعال، فيسدد الآخر طلقة جديدة إلى خزان الوقود لتنفجر السيارة و(بدر) بالداخل...

***

لاحظ السيد (عليّ) أن (مجدًا) طال انشغاله بالرسالة وطال صمته وشروده فاقترب جالسًا إلى جواره وهو يربت على ركبتيه، لينظر إليه (مجد) بامتنان وهو يكفكف دمعه وقال:

- لا أعرف كيف أشكرك يا سيد (عليّ).

- لا شكر على واجب يا بني، هذه أمانة (بيسان) لدي وهذا واجبي.

أومأ إليه (مجد) مبتسمًا، ليكمل السيد (علي):

- رحلتَ سريعًا دون أن أجد فرصة للحديث معك، بعدها علمتُ أنكَ عُدت إلى هنا، سألتُ الكثير من معارفك، حتى تواصلتُ مع السيدة (ريتا) واقترحت عليَّ أن أذهب إلى شقة (بيسان) وأعطتني العنوان، وبالفعل وجدتك هنا.

- أشكرك للغاية، اشتريتُ المنزل بعد عودتي وقررت الاستقرار في بيتها.

- حدثت الكثير من الأمور بعد ذهابك في ذلك اليوم، هناك شيء قد يكون مهمًا بالنسبة إليكَ أن تعرفه.

أمال (مجد) رأسه قليلًا مقطبًا حاجبيه باستغراب، ثم رد عليه:

- من فضلك أخبرني.

أخرج ملفًا شفافًا يحوي تقريرًا طبيًّا ثم مده إليه وهو يقول:

- توفيت (بيسان) قبل يوم من إعدامها، هذا هو تقرير الطب الشرعي الخاص بها.

حملق فيه (مجد) بعينين متسعتين وهو يأخذ الأوراق منه ويقلب فيها ليقرأ التقرير، واصل السيد (عليّ) حديثه بنبرة مواسية:

- لم تشعر بأيّ شيء في ذلك اليوم يا (مجد)، لم تتألم وهي تموت كما كنا نفكر وقتها، لله مشيئته في ذلك.

سكت (مجد) مصدومًا متذكرًا تلك الجملة في رسالة (بيسان) الأخيرة «أيًّا كانت الطريقة التي سأفارق الحياة بها فأريدك أن تعرف أني لن أتألم».

أغمض عينيه وهو يحرك رأسه متنهدًا بأسى ثم نظر للسيد (عليَّ) وهو يسأله:

- ولماذا فعلوا هذا بها إذًا، بربك يا سيد (علي) هل تعذب جثة إنسان؟!

- تعرف كيف كانت العداوة متأججة بين الفريقين، لم يكن (خوسيه) ليرضى بالاعتراف أمامنا أنها ماتت دون أن يكونوا هم المتسببين في وفاتها، وبالأخص مع أسر رفيقه المقرب (عاموس) كان الأمر يزداد اتقادًا في رأسه، ذاك الرجل اللعين كان يحمل ضغينة وحقدًا ليس لهما مثيل، كان وقحًا للغاية ولا أهمية للقيم عنده، لكن انظر لقد لقي في النهاية جزاءه الذي يستحقه، ومات بطريقة بشعة!

أومأ (مجد) إليه وهو يزم شفتيه لينهض السيد (عليّ) مستأذنًا منه أن يذهب موصيًا إياه أن يبقى على تواصل معه، نهض (مجد) معه ليوصله، ثم عاد بعد رحيله إلى الداخل آخِذًا الرسالة متجهًا بها إلى غرفة النوم، غرفة حبيبته، ذهب تجاه النافذة المغلقة وقام بفتحها ليتسلل الضوء إلى الداخل وتقع عيناه على الأطفال يلعبون في الأسفل، أغمض عينيه مبتسمًا ابتسامة واسعة متذكرًا

عندما كان يأتي إلى الحيّ كي يأخذها ويذهبا إلى المشفى وتحديدًا المرة الأخيرة...

***

مالت بخصرها وهي تنظر إليهم، ثم شرعت تتأملهم بعينين يعكس بريقهما مكنون ما في قلبها من السعادة والحب؛ ما إن نزل (مجد) من سيارته حتى اجتمع الأولاد حوله وتعالت أصواتهم وهم يحكون له عن مغامراتهم في الأيام السابقة، استدار ناظرًا إلى نافذتها ليلمحها أمامه فتلتقي أعينهما دون عمدٍ ويغيبان عن كل ما يحيطهما، ولما أطالت عينيه التشبث بعينيها ارتبكت نظراتها فرفعت أناملها إلى شعرها المتدلي على وجنتيها فأزاحته للخلف مبتسمة ابتسامة خجلة هادئة، ابتسم هو الآخر من خجلها الذي أذاب قلبه أكثر وبقي مستغرقًا في ملامحها، منشغلًا بها حتى جذبه أحد الأولاد من يده مناديًا عليه فالتفت إليه شاعرًا بالخجل محاولًا التملص من الموقف بفتح أي طرف جديد للحديث حتى ينشغل لأولاد به ويغفروا له شروده بها عنهم!

ضحك لأول مرة بسعادة صادقة ثم نادى على أحد الأولاد الذين يعرفهم وهو يلوح له بيده، ليبادله الصغير بابتسامة، فيخبره (مجد) بنبرة مرحة وربما مُتَأمِّلة:

- أنا قادم أيها الأولاد، مَن منكم يريد الحلوى؟!

رفع الأولاد أيديهم وهم ينظرون إليه وتتعالى ضحكاتهم..

***

أما السيد (عليّ) فكان يجوب الشوارع مُحمَّلًا بأوجاعِ الحكاية، بنبرة (بيسان)، وموت (جواد) والوعد الذي فشل في الإيفاء به، ما زال يحملُ بيده ما دونّه، كل شيء حكته (بيسان) وكل ما مرت به من يوم فقدت (بدر) حتى آخر لقاءٍ دار بينهما في السجن، وبحضور آخر لقاءٍ في ذاكرته بدأ يشكر الله الذي ألهمه وقتها أن يخبرها عن شقيقها ويطمئن قلبها عليه..

- أتعرف؟! اعتدتُ حلول الموت ونزعه الأشخاص مني عنوة دون التفات لقلبي وما سيحدث له، أعتدتُ ألا أشيع جثمانًا وألا أعرف قبرًا لهم، لا لأبي ولا لأمي ولا حتى ل (جو...

- قاطعها قبل أن تكمل وقد تكامل غضبه فخرجت نبرته عالية حاسمة:

- لا نعرف شيئًا، لا نعرف أين هو أو ماذا حدث له؟!

مالت برأسها وقد انفلتت الدموع من مُقلتيها محاولة الاستيعاب وهي تسأله:

- كيف؟!

لم يعرها ردًّا من جديد وقام مقتربًا منها وهو يمسك مرفقها لتنظر إليه عيناها متوسلتين ممتلئتين بفيض من الحزن، أغمض عينيه في انزعاج مشيحًا بوجهه بعيدًا عنها لم يستطع مغالبة صمته أكثر وانحنى إليها هامسًا قرب أذنها بنبرة خفيضة:

- شقيقك بخير، إنه بالمصنع الحربي برفقة (كمال) والسيد (قدير)، هو فقط يجب أن يظل بعيدًا قدر الإمكان عن هنا وأنتِ تعرفين كم أن الوضع خطير بالنسبة لكليكما..

أومأت إليه وما زالت نظراتها مضطربة فأردف محاولًا دفع قلقها هذا وهو يقول:

- القائد (يونس) وجنوده يتولون مسؤولية حمايتهم كاملة لذا اطمئني لن يستطيع أي أحدٍ أذيته أو معرفة مكانه.

استقرت نظراتها وتنهدت براحة، بضع ثوانٍ مرت ثقيلة لكنها تعني لها الكثير..

...

زاغ ببصره محاولًا التملص من الذكرى إلا أن عينيه حطت على إحدى العبارات المكتوبة على الجدار، بخطٍ أسودٍ عريض وواضح كتبَ غريبٌ مرَّ من هنا ولامست قلبه تضحية (بيسان) «فتاة الضفة ستبقين في الذاكرة إلى الأبد، ستبقين على قيد الحياة في القلب مهما مرَّ». ابتسم بغصة مريرة وفرت من عينيه دمعة وردد وهو يواصل سيره «ستبقين في الذاكرة إلى الأبد».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

«ليس بالضرورة أن نلتقي حين تجمعنا الأماكن وليس بالضرورة أن نفترق حين تتقاطع طرقاتنا، ما دامت الروح موصولة بالروح فلا أهمية لحدودِ الكَون».

**

فتحت عينيها الزرقاوين بوهنٍ شديدٍ، نظرات مُنطفئة ضائعة تنم عن العيش من أجل هدفٍ وحيد وهو انقضاء الأجل، إنها تنتظر، فقط تنتظر حلول الموت حتى تلحق بمن رحلوا عنها ومعهم قلبها، خطَّ العمر خطوطه على جفنيها وكأنما يرسمُ لوحة تعبر عن الأسى الذي عايشته، نظرت إلى الطرف الآخر من السرير والذي كان فارغًا، لم تُطِل تأمل خوائه أو بمعنى أدق لم تتحمل مواجهة صباح جديد دون وجوده، لذا أشاحت ببصرها سريعًا وهي تنهض مستعدة لمغادرة الفراش.

سارت بخطى ناعسة إلى الشرفة المغلقة المُطِلة على الطريق الرئيسي وهي تتمطى ثم فتحتها رافعة عينيها إلى السماء متأملة صفائها، يحملُ الصباح بعض لمسات الأمل حاولت استجداءه لتشعر بما يحمله ولكن لا فائدة، تقدمت إليها حتى جاورت السور فوقفت مستندة بكفيها إليه وهي تتنهد آخذة نفسًا عميقًا ناقلة بصرها إلى الأسفل مراقبة الطريق لتلوح على شفتيها طيف ابتسامة مفكرة في حالتها بأسى، سيدة عجوز وحيدة بلا ابن أو زوج، مرغمة على التحلي بالصبر والأمل لتحقق أحلام الغائبين عن الحياة، تنهدت متذكرة ذلك الصباح الذي استيقظت فيه على هتافات المتظاهرين!

***

فزعت (ريتا) من نومها بسبب الهتافات العالية المنبعثة من الأسفل، تلفَتت حولها باحثة بعينيها عن (عزيز) فلم تجده إلى جوارها في الفراش...

الشرفة مفتوحة على مصراعيها والتلفاز يعرض إحدى المحطات الإخبارية التي تنقل بثًا مباشرًا لما يدور في الشوارع، وقفت مبهوتة في منتصف الغرفة دون أنّ تستوعب أيَّ شيء، ثم توجهت بخطى مترددة إلى الشرفة باحثة عن (عزيز) لكنها ما إن دلفتها حتى تسمرت مكانها بلا حراك وهي ترمق المتظاهرين بعينين متسعتين مذعورتين وكأنها للتوّ انتبهت لما ينطقون به، وضعت يدها على قلبها وهي تنظر إلى صور (بيسان) مع اليافطات العريضة المرفوعة والتي يطالبون فيها بمحاكمة قتلتها، تراجعت خطوتين إلى الخلف وهي تصرخ منادية على (عزيز) ثم هرولت مستريعة إلى الداخل باحثة عنه، كانت تجري بخطوات عشوائية من غرفة إلى أخرى حتى وصلت إلى غرفة

مكتبه لتجده جالسًا بالأرض حوله صور (بيسان) والأغراض التي كانت ترسلها له، وقفت أمام الغرفة والدموع تنهمر على وجنتيها ثم دنت من زوجها وهي تعانقه بشدة، ليعانقها وهو يدفن وجهه في كتفها باكيًّا بقهر، بقي بين ذراعيها ولم تنتبه (ريتا) كم مرّ بهما من الوقت وهما على هذه الحالة حتى وجدته متصلبًا بين يديها جسده بارد ولا يصدرُ له صوت تحركت وهي ترفع وجهه لتنظر إليه ليسقط أرضًا، أخذت تصرخ وهي تناديه وتهز جسده ثم هرعت إلى الهاتف بيدين مرتجفتين وهي تطلب الإسعاف، عادت إليه مرة أخرى وهي تنتحب بجواره بصوتٍ عالٍ وتضمه متوسلة إليه ألا يتركها ويرحل، انتظرت وصول الإسعاف طويلًا فيَ ذاك اليوم ولكنهم لم يأتوا أبدًا بسبب ازدحام الطرق بالمتظاهرين، توفيَ زوجها إثر أزمة قلبية وبقيت أمامه عاجزة عن فعل شيء!

بعد عدة أيام أتاها خبر استشهاد (بدر) لا تريد أن تتذكر أي شيء حيال ما مرت به، قضت أشهر عديدة في المصحة النفسية حتى أتى لها (قدير) بـ (أمل).

***

تركت الشرفة عائدة إلى الداخل متجهة إلى غرفة أخرى...

ربما وقوفها على قدميها حاليًّا وتحليها بالصبر معجزة إلهيَّة بالنسبة لقلبها، ثابتة إلى حدٍّ يدعوك لضمها عسى أنينها المكبوت داخل صدرها يخرج، لا تبكي، ولم تبكِ أبدًا بعد هذا اليوم، كأن دموعها جفت بعدهم، ومشاعرها توقفت عند فقدهم، وهبت الباقي من حياتها من أجل مواصلة الدفاع عن ضحايا الحرب ومن أجل إسعاد تلك الصغيرة.

فتحت باب الغرفة لتجد (أمل) ذات الستة أعوام نائمة تحتضن دميتها، ابتسمت وهي تسير إلى فراشها متذكرة ذلك اليوم الذي أتى لها (قدير) بهذه الطفلة إلى المصحة، أخبرها أنها إحدى فتيات اللاجئين التي فقدت كل أهلها في الحرب..

أمسكت الصغيرة بيدها وهي جالسة على السرير بالمشفى وتعلقت عينيها بها لتعود بذاكرتها إلى موقفٍ شبيه حدث في الماضي عندما التقت (بدرًا) وتطلع إليها بنفس النظرات البريئة تلك، حملت الصغيرة وأجلستها إلى جوارها وسألتها:

- هل يمكنكِ أن تعانقيني؟!

بسطت (أمل) ذراعيها وهي تبتسم لها لتضمها (ريتا) مشتمة في ثيابها رائحة الياسمين...

جلست إلى جوارها كي توقظها ما إن فتحت الصغيرة عينيها حتى مالت برأسها بدلال وهي تبتسم ثم نهضت وعانقتها لتضمها (ريتا) بقوة وهي تبتسم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كلمة الكاتبة (تسنيم التلاوي)..

هذه ليست حكاية (بيسان) و(جواد) هذه مجرد لمحة خيالية عن المعاناة التي يتلقاها الأطفال في الحروب، الدموع التي فرت من مقلتيك كانت بكاءً إزاء عدة سطور خيالية من تأليفي، فكيف لو كان حقيقة، والحقيقة أبشع وأمَر؟! ماذا لو عايشنا واقِعًا كهذا؟! ماذا إن رأينا الأطفال يُحكَمُ على طفولتهم بالوأدِ من المهد؟! إلى متى سنبقى مكتوفي الأيدي أمام ذاك الخراب الذي تُشيعه الحروب؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شكر وامتنان إلى..

* الله أولًا وآخرًا لتوفيقه ولمنحي هذه الهبة العظيمة، هبة الكتابة. فاللهم لكَ الحمد حمدًا يليق بك.

* أمي؛ لطالما كنتِ موجودة معي بقلبك ووسعك وحبك، أدامكِ الله لي.

* أروى التلاوي الطبيبة الصغيرة أشكركِ من كل قلبي.

* قرائي، شكرًا لأنه بفضلكم سطع حلمي أكثر، واستمر منذ أول حرف كتبته إلى اليوم، ممتنة من كل قلبي لكم.

* دار النشر والقائمين عليها، وكل من ساهم في خروج هذه الرواية للضوء.

* وأخيرًا إلى مُلهِمي وفِتنَتي (شهاب الدين سعودي)..

يُقَال «إن وراء كل رجل عظيم امرأة»، وأنا أقول وراء كل امرأة حالمة رجل يشاركها الطريق، يطمئنها أنّه هُنا؛ يُقيل عثراتها، ويشُد أزرها، فقط لتحلم هي باتساع الأفق وليكون هو سماؤها وأرضها، لطالما كنت أنتَ ذاك الرجل، ولطالما جعلتني أنظر إليكَ بثقةٍ وحب، أخجل أن أعبر عن امتناني بمجرد كلماتٍ متناثرة للشكر، ولكنكَ كنت دائمًا هنا، تشاركني الرأي، تبدي النُصح، وتثني على كلماتي بفخرٍ؛ لذا كتوثيق لإحدى خطواتنا في السير معًا أقول: شكرًا لأنكَ جعلتني أرى أبسط الأشياء التي أقوم بها -في حضرتك- ذات قيمة وأثر، شكرًا لأنّكَ سندٌ هائل يحتويني حتى في وهني، شكرًا لأنكَ مُتَكئي، ولأنكَ تُريني من نبرة صوتك وفي لمعة عينيك كم أنّكَ مفتون بأحرفي وقلمي؛ فَتنَ ثناءك قلبي فعاهدتُه ألا أتخلى عن الكتابة ذات يوم، عاهدته أن تبقى أنت الأبدية المُخلَدة فيه، وفي كلّ رواياتي التي لم أكتبها بعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الكتاب..

إهداءٌ خاص

مقدمة لا بُدَّ منها

ملحوظة مهمة:

المقال الأول
معضلة المحاكاة
The Simulation Argument
المقال الثاني
تأثير مانديلّا
The Mandela Effect
المقال الثالث
دليلك للأبعاد العُلوِيَّة
A Guide to Higher Dimensions
المقال الرابع
هل الظلام أسرع أم الضوء؟!
Which is faster, Darkness or light!?
المقال الخامس
قنبلة الثقب الأسود
Black hole bomb
المقال السادس
مقياس كارداشيف
The Kardashev Scale
المقال السابع
الكوكب X
Planet X
المقال الثامن
مُعضِلة الجَدِّ
The Grandfather Paradox
المقال التاسع
نموذج وولفرام للفيزياء
The Wolfram physics model
المقال العاشر

فيروسات تحت الجليد
Viruses under the ice
المقال الحادي عشر
حكايات عن الموت والعالم الآخر
Tales about death and the afterlife.

خاتمة

مصادر